ميشال كليرك

فئران الأنابيب
(بخشيش)

روايــة سـيـاسـيّة

مراجعة وتقديم
سامي ذبيان

دار المسيرة
بيروت

الطبعة الاولى

بيروت في كانون الثاني/يناير ١٩٧٨

صدرت هذه الرواية باللغة الفرنسية

تحت عنوان

BAKCHICH

Flammarion, PARIS, 1976
MICHEL CLERC

جميع الحقوق محفوظة «لدار المسيرة»

مقدمـة

جورج نمور ، لبناني اختفى منذ مدة ، ولم يعثر له على اثر . انه اسم مستعار ، كغيره من الاسماء الواردة في هذا الكتاب ، لكنها كلها اسماء أشخاص حقيقيين ، ما زالـوا موجودين ، مالئي الدنيا وشاغلي الناس ، يتآمر بعضهم على بعض ، يتآمرون مع هذه الشركة على تلك ، ومع تلك الدولة على هذه . كلهم ابناء عالم النفط والسلاح والمـال ، عالـم الصفقات والسمسرة الذي يجيز كل شيء من اجل كـل شيء ، من اجل الليرة والدولار والفرنك والين ، ومن أجل الجنس والبذخ والترف المتناهي .

اختفى جورج نمور ، خطفوه ، أو ربما قتلوه ، او ربما ذهبوا به الى بلاد بعيدة ، لكنه لن يعود ، لان سنوات عـدة مضت على حادث اختفائه ، ولانه ابن هذا العالم ، عالم الذهب الاسود ، الاسود فعلا . فوراء اختفائه ٣٧ مليونا و٢٥٤ الفا من الدولارات هي حصيلة صفقة واحدة ، انها عمولة اتفاق لبيع مائة طائرة مقاتلة ، بين ليبيا الملكية ، في عهد السنوسي المخلوع ، وبين شركة ((اسسكس مسيل آركرافت)) لبيـع السلاح . قيمة الصفقة ٥٠٠ مليـون دولار . تمكن جورج

نمور ، قبل خلع السنوسي بساعات ، من قبض قيمة السمسرة نقدا وعدا من الشركة ، رغم ان الصفقة لم تنفذ وان كان قد نص عليها عقد موقع من مسؤولي الشركة ـ بمعرفة وزارة الدفاع البريطانية ـ ومن كبار مسؤولي العهد الملكي في ليبيا ، لان الملكية قد سقطت . واذا علمنا انه كان لدى ليبيا الملكية ستة طيارين فقط ، لانها لم تكن دولة مقاتلة ولا هي في حالة حرب مع احد ، تساءلنا اذن لماذا المائة طائرة ، ولماذا تلك الصفقة ؟

❊ ❊ ❊

صفقة ثانية كان سيحققها جورج نمور بين المملكة العربية السعودية واحدى الشركات البريطانية للسلاح ، لكن سمسار سلاح آخر ، هو السعودي كمال عبد الملك ، نافسه عليها واتجه لعقدها مع الولايات المتحدة الاميركية . قيمتها مئات الملايين من الدولارات ، وعمولتها عشرات الملايين من الدولارات ايضا . وانتهت المنافسة عندما اختفى اللبناني نمور .

بالطبع ، يقول لنا هذا الكتاب كل شيء عن عالم نمور وعبد الملك ، صفقة صفقة ، ليلة ليلة ، ومؤامرة مؤامرة ، وامراة امراة ، وهكذا ... وذلك في اطار عالم مترامي الجهات والجبهات ، من جدة ، الى واشنطن ، الى باريس ، الى لندن ، الى لاس فيغاس ، الى بيروت ، حتى الى الربع الخالي . صفقة هنا ومؤامرة هناك اقلها محاولة كمال عبد الملك انقاذ نيكسون من فضيحة ووترغيت .

❊ ❊ ❊

هذا العالم الاسود هو افراز فوقي لبنية تحتية تقوم على الذهب الاسود . وكما تحايل الغرب ، وبالذات الولايات المتحدة الاميركية ، وخص نفسه باخذ امتيازات التنقيب عن النفط في عدد من الدول العربية النفطية ، يحاول ايضا او تحاول الولايات المتحدة الاميركية بشتى الطرق ، والوسائل ، والاتفاقات ، ووسائل الاقناع ، وباعداد وفيرة من العملاء والسماسرة والوسطاء ، ارجاع كافة العائدات التي تنتجها آبار النفط العربي ـ وبالذات في السعودية ـ اليها ، لتوظفها من جديد في اسواقها ، او لتكون ثمنا لصفقات سلاح يتحول خلال سنوات الى « حديد خردة للكسر » !

وكان لا بد من اتفاقات سرية او علنية لتنفيذ ذلك كله . وهذا شكل من تلك الاتفاقات ، وهذه ارقام وحقائق عن سرقة الغرب لثروتنا النفطية ..

❊ ❊ ❊

نص اتفاق سري ، مالي ونفطي ، بين الولايات المتحدة الاميركية وبين المملكة العربية السعودية على عدة قضايا اهمها ما يلي :

١ ـ اذا حافظ الفائض بالحساب الجاري لميزان مدفوعات المملكة العربية السعودية على مستواه ، فان ٥ بالمائة من هذا الفائض يضاف كل عام الى احتياطيات البلاد .

٢ ـ توظف نسبة ٥٠ بالمائة من الفائض السنوي في

ميزان مدفوعات المملكة العربية السعودية في استثمارات طويلة الاجل في الولايات المتحدة الاميركية .

٣ — ٨٧ بالمائة من الموجودات النقدية السائلة للمملكة العربية السعودية الفائضة عن احتياجات الحكومة السعودية لاستثماراتها في المملكة توظف بشكل مشابه في اسواق المال الطويلة الاجل في الولايات المتحدة الاميركية .

٤ — تتمتع هذه الاستثمارات بفائدة بمعدل ٧٥٥ بالمائة، وبامكان السعودية ان تسحب على مدفوعات الفوائد لتسوية حساباتها بصدد مشترياتها من الآليات والاجهزة من موردين اميركيين ، بما في ذلك مشتريات المعدات العسكرية .

٥ — تتعهد المملكة العربية السعودية بعدم زيادة السعر المعلن للنفط بأكثر من ٥ بالمائة في أية سنة من السنوات لمدة تنتهي في ١٩٨٤/١٢/٣١ . ويسري هذا الالتزام بصرف النظر عما اذا اتفق عليه ، او نفذت اية زيادة في السعر المعلن من قبل منظمة ((اوبك)) في أي وقت خلال هذه المدة . واذا طبقت ((أوبك)) زيادات أكبر بصورة فعلية ، فانها لن تكون قابلة للتطبيق على مبيعات النفط السعودية الى الولايات المتحدة الاميركية .

٦ — تتعهد الولايات المتحدة الاميركية باستعمال جميع امكانياتها السياسية والعسكرية والاقتصادية لمساعدة الحكومة العربية السعودية بأية طريقة في ضوء الظروف

المتطورة (١)

* * *

((ليس سرا ان الولايات المتحدة الاميركية والعالم الغربي يواجهان حقيقة مستجدة ، وهي ان هناك في الشرق الاوسط بلدا، له نفس أهمية اسرائيل ان لم يكن أكثر، الا وهو السعودية خزان النفط العالمي والقوة المالية العظمى ... فالودائع السعودية في الولايات المتحدة الاميركية تتجاوز عشرين مليارا من الدولارات ، والاستثمارات والعقود السعودية في اميركا تساوي عشرين مليارا اخرى، وستحصل صناعة الاسلحة الاميركية من اليوم (العام ١٩٧٧) وحتى العام ١٩٨٤ على (٣٠) مليارا . وبالاضافة الى هذا فان ٣٠ ألف اميركي من تقنيين وخبراء ومستشارين يعملون لدى السعودية .)) (٢)

* * *

تشير أحدث التقديرات في الولايات المتحدة الاميركية الى ان حاجاتها الى البترول المستورد سترتفع من ١١٠ ملايين طن عام ١٩٦٠ ، الى ٢٦٥ مليون طن عام ١٩٨٠ ، وستكون للبترول العربي مكانة هامة في هذه الزيادة ... ان مصالح

(١) نقلا عن نشرة « انترناشيونال كيرونسي ريفيو » (عدد ايار/مايو/١٩٧٧) المالية المعروفة ، مجلة « الاقتصاد » السورية (عدد حزيران/يونيو/ ١٩٧٧) ، « الحوادث » اللبنانية (عدد ٢٠ ايلول/سبتمبر/١٩٧٧) .

(٢) مجلة « الحوادث » اللبنانية (العدد ٢٠ ايلول/سبتمبر ١٩٧٧) ، صفحة ٢٤ (وهي مجلة تعتبر افضل مرجع لهذه الموضوعات بسبب خصوصيتها الصحافية التي تخدم اميركا والسعودية مباشرة) .

الولايات المتحدة الاميركية في استثمار البترول العربي لا تقتصر على الاستيرادات بل تتجاوز ذلك الى الارباح المالية والفوائد الاقتصادية الاخرى التي تحققها الشركات الاميركية العاملة في المنطقة .

... وحتى دخل الدول العربية المنتجة للبترول ، فان قسما كبيرا منه يسلك طريق الاسواق الاجنبية للتوظيف الخاص والحكومي في المصارف والاسواق المالية الغربية من اوروبية واميركية .

❋ ❋ ❋

اين يقع جورج نمور ، وكمال عبد الملك ومستشار الرئيس الاميركي نيكسون ، وغيرهم من سماسرة ووسطاء في خطة توظيف المال واعادته للغرب ؟ انهم كغيرهم من الوسطاء العرب والاجانب الكثيرين الذين برعوا في فن عقد صفقات التوظيف والبيع والاستثمار . وهذا الفن اسمه عمولة ، اسمه سمسرة ، اسمه بخشيش .. بخشيش .. من اعلى المستويات الى اعلاها ، ومن اعلى القصور البترولية الى اعلى البيوت السياسية .

ففي حالة صفقات السلاح تتكشف لعبة العمولة والسمسرة على حقيقتها . فالوسيط او السمسار ، يكون على علاقة بشركة انتاج وبيع اسلحة ، لكي ينجح بتدبير عقد صفقة ما، لا بد له من علاقات مع كبار الموظفين والوزراء وحتى الحكام ، ولا بد من اغرائهم بعمولات و « شوفة خاطر »، عند ذاك ، يوافقون على عقد صفقة حتى ولو لم تكن اسلحتها للاستعمال ، وحتى لو لم يوجد من يستعملها . تعقد

الصفقة ، ويوقع الاتفاق ، وتدفع العمولة ، وتحفظ حصة كبار الموظفين والوزراء المعنيين بتلك الصفقة .

❋ ❋ ❋

والحال نفسها في قضية توظيف الاموال ، فلقد اصبحت هناك مكاتب رسمية ، في طول اوروبا وعرضها وفي اميركا ، تتولى توظيف اموال النفط ، وتتنافس تلك المكاتب فيما بينها ، ويتآمر بعضها على بعض في عملية سباق ضخمة يمولها هذا المصرف او ذاك ، وهذه الشركة او تلك ، وحتى هذه الدولة او تلك . فنقرأ عن شراء جزيرة ، او قصر قديم ، او شاطىء بكامله ، وشارع ، وحي وناطحة سحاب، وباخرة ، وذلك باموال اباطرة النفط وملوكه .

واذا لم يحدث هذا ، فلماذا يقبل الغرب الاوروبي والاميركي باستثمار الثروة البترولية في بلادنا ؟ ان الشركات الاميركية تستخرج الذهب الاسود من رمالنا وصحارينا ، وتبلغ قيمته البلايين من الدولارات ، فاذا لم تضمن عودة ٨٥ بالمائة من هذه الثروة الى خزائنها وخزائن دولها ، ومصارف تلك الدول واسواقها ، فلا تستمر في عملها . بل تهدد بتدمير منابع النفط وغزوها بالقوة ، اذا ما حرمت من معظم انتاجها . الا نذكر جيدا الخطة الاميركية لغزو آبار النفط العربي كما وضعها مستشار في البنتاغون (وزارة الدفاع الاميركية)(١) ، وأجريت تجارب في صحراء

---

(١) نشرت الخطة مجلة « هاربر » الاميركية في عددها الصادر في آذار/ مارس ١٩٧٥ .

« نيفادا » لانجاحها ؟ وقد كررت وزارة الدفاع الاميركية التجارب ، والمناورات العسكرية نفسها خلال ايلول/سبتمبر ١٩٧٧ .

* * *

اين يقع « بخشيش » في هذا كله ؟

انه هذا كله، فبخشيش للسماسرة، ولمسؤولي الشركات ولموظفي الدول ووزرائها وحتى لحكامها ، بخشيش للجميع، لكي تبقى السكك مفتوح بعضها على بعض. فالعائدات العربية النفطية التي تتولى دفعها الشركات الغربية وبالذات الاميركية للدول النفطية لا توظف في مشاريع محلية . ولكي لا تبقى في خزائن تلك الدول يجب ان تخرج الى دول اخرى وبالذات الى الولايات المتحدة الاميركية لان هذا يحفظها هناك من اي طارىء ، ثم يمكن من اقتطاع قسم منها عمولة تذهب الى وزير وحاكم وسمسار . ولكي تخرج لا بد من صفقة سلاح ، حتى ولو لم تكن ضرورية ، او لا بد من اقامة مشروع او المشاركة في مشروع او شراء عقار او جزيرة او حتى بلد ما !

« بخشيش » يقع هنا ، وهنا يقع جورج نمور وكمال عبد الملك وشلتهما وعالمهما ، من « جوزيه » السكرتيرة المخلصة لـ « يوسف زكي » اللبناني رجل المصارف الكبير الذي مات ، فالتحقت سكرتيرته بجورج نمور ، الى «اماليندا» ملكة الجنس والتآمر التي كادت ان تكون مشتركة بين نمور وعبد الملك ، الى عالم كازينو لبنان ، الى الطائرة التي هي

عبارة عن منزل حديث متحرك ، الى شوارع باريس ولندن الى الربع الخالي .. الى « پارنت » مستشار نيكسون ، الى اكثر من امير وحاكم .

* * *

ان ما تناوله هذا الكتاب ، من المام بعالم البترول ، وما افرزه ويفرزه من صفقات ومؤامرات ودسائس وعوالم من المال والجنس ، قد يكون فيها بعض حقيقة وكثرة من خيال، او بعض خيال وكثرة من حقيقة . وقد يكون الكاتب اراد الاساءة الى العرب والشرق ككل . لكن سادة بعض عوالم البترول، ما زالوا يعتبرون هذه الثروة ملكا خاصا، يتصرفون بها بالشكل الذي كشف عنه هذا الكتاب ، بدل ان يحولوا الثروة البترولية الى ملك وطني وقومي ، ويوظفوه في خطط انماء تطال الارض الحبيبة في شبه الجزيرة العربية وغيرها، وفي خطط دفاع وتعبئة تطال معظم الدول العربية التي تحتاج الى دعم ومساندة . لقد ثبت ان البترول ، ان النفط العربي بالذات هو سلاح ، اثبتت ذلك اجراءات بعض الدول العربية التقدمية بشأنه عندما وضعته في اطار المصلحة الوطنية والقومية على السواء ، واثبت استعماله في حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ من كافة الدول البترولية العربية انه سلاح فعال ايضا . لهذا لم يعد مقبولا ان يبقى معظم هذا السلاح تحت رحمة ملكية خاصة ، تبعثره هنا وهناك ، او تترك لسمسار او لوسيط ان يمتص عائداته بهذه الصفقة او تلك .

وليست صدفة هذه البعثرة . فاذا كان الغرب لا

يفهمنا الا بترولا ، ولا يخافنا الا بترولا ، فانه يحاول استلابنا هذه الثروة حسب خطة مدروسة : بعثرة العائدات واعادتها اليه . بعثرتها في صفقات سلاح، وتوظيفات ، ومشتريات ، وكلها طبعا تصب في مصارفه وخزائنه ، وبالذات الغرب الاميركي . واذا ما حلت ازمة الشرق الاوسط ـ بالشكل الذي وصلت اليه مؤخرا : جنيف وتوابعه ـ فان الغرب ، والغرب الاميركي بالذات وجبهته الصدامية المباشرة اسرائيل، يخشى ان يمتلك العرب قدرتهم الفعلية البترولية ، لهذا اشترط الكثير وراهن على الكثير وخطط الكثير لابقاء معظمها بين يديه وتحت سيطرته . وكان لا بد من البعثرة ، وها هي مستمرة ، بخشيشا واكثر .

ترى ، هل اذا حلت ازمة الشرق الاوسط بشكل ما ، حلت مؤقتا على الاقل ، هل يمكن التوجه الى البترول الضائع لاسترجاعه ؟ لو حدث ذلك في المستقبل ، لامكن العرب ان يسترجعوا ازمة الشرق الاوسط نفسها ، ثم يضعون لها حلا كما يرون : تقدميا . الا اذا نجح الغرب ، الغرب الاميركي بالذات ، في هذا السباق ، فحل ازمة الشرق الاوسط وجيّر البترول معها لصالحه كليا عبر هذا الحل . ان هذا الغرب يريد ان يحل هذه الازمة من اجل البترول وابقاء سيطرته عليه . فهل يجد العرب ضرورة للرد على ذلك ، ومن اين يبدأ الرد ، ومن ذا الذي سيرد ؟

البداية هي في مواجهة خطة بعثرة الثروة البترولية ، ثم التوجه لنزع الملكية الخاصة لهذه الثروة ، وجعلها ملكية وطنية قومية .

هذه هي البعثرة وأبطالها في كتاب . أبطالها! فئران سمان تتلقف الثروة في حنايا انابيب البترول ، كعلق يمتص دم الشعوب وثروات تلك الشعوب، فئران انابيب غارقة في وحول البخشيش وخليط قذر من الجنس والتآمر والجاه الكاذب.

هذا « بخشيش » العالم الاسود الذي افرزه الذهب الاسود ، عالم على حقيقته في كتاب .

وهذا الكتاب كان يجب الا يصدر ، لكنه صدر وبلغة اجنبية بهدف تعميم ما فيه من اساءة الى العرب ، على العالم، من جهة ، وبهدف ابقاء العرب ـ الذين لا يقرأون لغة اجنبية ـ غافلين عن عالم هذا الكتاب من جهة ثانية .

اما وقد صدر هذا الكتاب ، بكل ما فيه من معلومات وحوادث صريحة ، تشير الى اشخاصها الفعليين بأسماء مستعارة، وبكل ما فيه من احداث ووقائع مختلقة وخيالية احيانا ، فكان لا بد من نقله الى العربية لوضع العرب كافة ، وبالذات الجماهير العربية، في صورة معركة المستقبل القريب، معركة النفط ، داخليا وخارجيا ، عربيا ـ وعربيا ـ عالميا .

سامي ذبيان

بيروت في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧

الفصل الاول

على جناح « الرولز »

كانت للمطر الهاطل على لندن نكهة احتفالية ، عندما كان العلم السعودي ـ شجرة نخيل يتقاطع عليها سيفان ـ يرفرف بطراوة على مقدمة سيارة « الرولز » . خرج سليمان من مبنى وزارة الخارجية ، سليمان حاج بن التركي ، السفير المتجول للملك فيصل ، ودخل السيارة ، وانحنى صوب الزجاج الذي يفصله عن السائق ، وضغط على زر الانترفون :

ـ سر في « الوايت هول » حتى تصل الى « ترافلغار »، ثم خذ شارع « المول » ، فتمر امام قصر بكنغهام ثم تنعطف يسارا .. وبعدها سنرى .

اتى الصوت جافا ، حاسما ، فأرسل الرجل القابع خلف المقود نظرة اندهاش عبر مرآته الصغيرة .. لم تكن هذه اللهجة معتادة ، حتى ان المرء يخال ان الذي تكلم الآن ليس هو السفير المتجول .

كان سليمان يحتفظ بلندن في قلبه . وعبر الزجاج المغسول برذاذ المطر ، كانت تتعاقب تماثيل المجد الراحل .. « سكوتلانديارد » ، وزارة الحربية ، اسود « ترافلفار » ، وباستغراب وذهول ، استشعر سليمان الحزن . هل كان كل هذا يستأهل ان يطوي صفحات حيـــاته مكافحا ضـــد انكلترا ، يفضح جواسيسها ويحبط خططهم ، ليمضغ بعـد ذلك هذه المهانة ؟ صب لنفسه كمية من « الويسكي » في طاسة فضيـــة ، لان سليمان كان يحس انه حقـــا بحاجـة للسعة سوط .

منذ لحظات ، كان يحضن بين يديه سير ويليام، صديقه القديم . ففي ذلك الشتاء ، من عام ١٩٧٣ كان سير ويليام ما يزال يشغل منصب وزير خارجية المملكة المتحدة ، وكانت السياسة العليا هوايته التي يتقنها ، وكان عـــادة يتلقى الكوارث بارستقراطية لامبالية .

ــ ويليام ، قال سليمان بانكليزية خريجي اكسفورد ، ان الامور ستكون سيئة ، ويجب على انكلترا ان تساعدنا .

نادرا ما كان مبعوث الملك فيصل فوق العادة صريحـا الى هذا الحد . فصحح الوزير وضع ربطة عنقه ذات اللون الرمادي الفضي ، والتي تنسجم باناقـــة مـع سترة حمراء رمانية ، وقال بود :

ــ وكيـف تستطيع بلادي ان تساعـدكم يا عـزيزي سليمان ؟.. لقد انقضى عهد «فيلبي» و «لورنس العرب»، ان ذهب العالم الآن بين ايديكم ، ونحن لم نعد نملـك الا الجنيه الاسترليني .

ــ في الظروف الراهنة ، يكفينـا ان تعلن حكومتـكم صداقتها لنا في الاوضاع القاسية التي نجابهها .

نظر سير ويليام اليه ببراءة مزعومة ، كتلك البراءة التي تتبدى احيانا في صور وجوه الاجداد الاقدمين :

ــ أيها الامير ، انك تدرك العلاقات الممتازة التي تربطنا مع الولايات المتحدة . ففي حـــال نشوب نزاع جديد في الشرق الاوسط ، واذا لم نكن صراحة الى جانب اعدائكم ، فلن يكون في وسعنا ان نتخذ المواقف التي تتمنونها .

أوقف سليمان بحركة منه بداية هذه الموعظة ، قائلا :

ــ ويليام ، اني اعرف ، اني اعرف كل هذا ، لكني أريد فقط ان تكونوا على علم بقرار الملك فيصل. فنيكسون قدم له وعودا ، ولم يف بها . ان جماعة « الارامكو » ، وكل هـــذه النحلات الطنانة التي صنعت عسلها في جامعة هارفرد ، تملأ الجرة السعودية بنصائحها .

قال الوزير متسائلا :

ــ انك تتحدث عن النفط اذن ؟..

ــ استطيع ان اقول لك اننا سرعان ما سنتحدث عنه .

انت تعرف قـــول الملـــك المـــأثور « لا تخلط النفـــط بالسياسة » ، وانا اقول لك ان الملك قد غير رأيه . وخلال الاشهر الآتية سيكون النفط هو الذي يضع السياسة .

ــ اذن ؟

ــ اذن ! ، ستهب زوبعة هائلة تكنس الغرب ، وحدهم أصدقاؤنا سيكون بمقدورهم النجاة منها .

ولم يكن كلام سليمان هذا تهديدا ، بقدر مـــا كان انذارا ، فتساءل الوزير قائلا :

Sample

ـ مرة اخرى ، لا استطيع ان اتبين بوضوح ما ترمي اليه ، وكيف تستطيع بلادي ان تبرهن عن صداقتها نحوكم ؟

ـ نحن بحاجة الى طائرات ، وصواريخ ، وزوارق ناسفة ورادارات ، ونحن نشتري من امريكا ومن فرنسا ومنكم .

ـ ما زلت لا ارى كيف استطيع مساعدتك ، فنحن لا نفرض حظرا على بيع السلاح ، وبمقدوركم شراء كل ما ترغبون .

ـ هذا صحيح : لكني اريد منك ان تتدخل ، وتعمل على ان يكون صديقنا كمال عبد الملك هو المفاوض الوحيد مع شركات السلاح الانكليزية . فكمال هو الرجل الذي نمحضه كامل ثقتنا ، انه الرجل الذي اثق به .

وبعد فترة صمت ، قال سير ويليام :

ـ لقد اصبح صديقك كمال نجما في الولايات المتحدة ، انه يشتري المصارف في كاليفورنيا ، ووكالات التأمين في الاوريغون ، ويغازل الالمان ايضا ، حتى لقد اصبح له موطء قدم في الروهر ، ولم تستطع انكلترا ان تجذب اهتمامه حتى الآن .

ادار الوزير ظهره ، وارسل نظرة الى مبنى وزارة الخارجية الابيض والاسود حيث تصطف سيارات « الليموزين » تلمع كالمرايا ، وتابع يقول :

ـ لكن من اين خرج كمالك عبدل ؟ . . كيف سميته ؟!

ـ عبد الملك . . عبد الملك ، ان اسمه يعني انه « عبد للملك » انه سليل عائلة كبرى في مكة ، ووالده كان طبيبا لابن سعود .

وسير ويليام ، الذي نشأ نشأة كلاسيكية : من ايتون

واوكسفورد الى مجتمع النخبة ونادي الاصلاح . كان يحضن عالم الملوك هذا ، وبشكل عام الشرق بكل مميزاته . بود موروث ، وبدون شك ، من لورنس العرب . قال لسليمان :

ـ اذا كنت قد فهمتك جيدا ، فان ربيبك هذا هو عبارة عن مسلم ليس متزمتا ؟

كانت لدى الامير حساسية ضد الاستعلاء الذي يكنه الانكليز للآخرين بشكل لا يضاهي : فقال :

ـ ليس صحيحا ان عبد الملك ليس متدينا ، فحتى رسول الاسلام نفسه لم يكن ليتمنى الفقر ، كذلك حض القرآن على جمع الثروات في هذا العالم .

ساور القلق سليمان وهو يتساءل في نفسه عما يضمره محدثه الانكليزي ، ثم قال :

ـ ان كمالا فريد في شخصيته ، نعم انه مسلم مؤمن ، لكنه منذ تفتح شبابه ، يكن حبا للغرب . ان فتيانكم ابناء حي « شيلزي » (1) فانهم يطلقون لشعرهم العنان ، ويرفلون مختالين بالاثواب الهندية الفضفاضة ، ويظنون انهم استطاعوا النفاذ الى روح الشرق ، وامتلكوا عقال المعرفة . لكن كمالا ، في عمرهم ، كان متدفقا للتحصيل والجني ، وكان يؤمن لكم ارباحا طائلة . انه ليس فقط مجرد وسيط بيننا وبينكم : انه الوسيط الافضل .

ـ وثروته ؟ هل جمعها من البترول ام من السمسرة ؟

ـ ليس لكمال علاقة بالنفط . اكرر لك انه الوسيط المفضل الذي نحتاجه في تعاملنا مع الغرب . لقد كانت

(1) « شيلزي » : احد احياء لندن الراقية .

بلادنا محارة مقدسة مغلقة ، وكان هو أول من اشرع ابوابها.

ـ لكن ما هو راي الملك فيصل به ؟

كان السؤال سمجا . لكن سليمان اجاب :

ـ ان جلالته يرغب في الانفتاح . انه بحاجة لرجل ككمال رغم الفروقات بينهما .

جلس وزير الخارجية بهدوء على كنبته تحت صورة الملكة . وسريعا ، بدون مقدمات ، طرح الرجل المجبول بالديبلوماسية ، بصراحة غير مالوفة سؤالا مفاجئا :

ـ قل لي يا سليمان ، كيف تقيم اجهزتنا الخاصة ، وخاصة سلك «ام. اي. ٥» في وزارة الخارجية ؟

ـ ان اجهزتكم بشكل عام تتمتع بسمعة جيدة . ولم يتماد سليمان اكثر من ذلك .

ـ لكن ما يزعجني احيانا ، قال سير ويليام ، اننا نضطر الى اللجوء ، الى جانب رجالنا ، الى عملاء ليسوا بالضرورة من قدماء « الايتون ».(1)

كان سليمان يمرر بظاهر يده على خده ، وهو يفكر ، ويستمع الى سير ويليام :

ـ وكان يحدث احيانا ، ان يكون من بين عملائنا غرباء يفتقدون الى الاخلاق ، ولا يترددون في ملاحقة تفاصيل الحياة الخاصة لاقرب اصدقائنا البارزين .

وامسك باضبارة واخرج منها صورة .

ـ هل تعرف هذا الشخص ؟

القى الانكليزي هذا السؤال بصوت متباطيء ، وبدا

---

(1) كلية في احد احياء لندن تابعة للخارجية البريطانية .

انه انتقل الى الهجوم . لكن لامبالاة مدروسة حمت الامير من هذه الهجمات غير المنتظرة . وقال ببرود وتعال :

ـ انني نادرا ما اهتم بالبطاقات التي يعدها البوليس . ومن ثم ، فاني لا ارى اي علاقة بين ...

ـ سوف ترى قريبا .

وامسك الوزير بسماعة احد اجهزة الهاتف الثلاثة المصفوفة امامه وقال :

ـ آنسة بانكورست ، اجلبي لي من فضلك المذكرة رقم « ٢٦٠٢ـا » حول عروض « نمور » .

ثم استدار صوب سليمان وتابع :

ـ جورج نمور هو لبناني الجنسية ، وقد تخطانا في صفقتين هائلتين .

ـ لكني ما زلت لا ارى ما شاني انا بحكاية هذا اللبناني يا سير ويليام ؟

ـ صبرا يا صديقي العزيز . في البداية قدم لنا هذا اللبناني وعودا ثم قبض « بخشيشا » كبيرا جدا ، لكنه لم يف بوعوده . ومع ذلك احتفظ لنفسه بالخشيش .

ـ لكنكم مع ذلك . لستم بطيبة الغلمان الذين يخدمون مذبح الكنيسة !

تابع سير ويليام حديثه وكانه لم يسمع تعليق سليمان :

ـ لكن المهم ، ان هذا الشخص المشبوه على علاقة متينة مع احدى كبريات شركات السلاح هنا ، ويتمتع بدعم من وزارة الحربية . لقد بنى قوته من خلال بيع بضاعتنا الى المملكة العربية السعودية . وهو الآن على وشك اتمام صفقة بقيمة ٥٠٠ مليون دولار . فماذا تقول ؟

كان الامير صادقا ، عندما ارتسمت على وجهه ابتسامة سخرية . لقد كان مستحيلا على تاجر سلاح ، ان يعقد صفقة بقيمة خمسمائة مليون دولار من خلف ظهره .

ـ لا تنس يا سير ويليام انني انا من يحتفظ بمفتاح الخزنة ، صحيح ان حكومتي تشتري . ولكن ليس من اي كان ولا من حيث كان . انا اعلم ان العالم كله أصبح يحلم « بالبترودولار » ، ولكنك ستكتشف سريعا اننا نحن ، لا نحلم .

ـ انني أقدر سمو شأنك يا سليمان ، هل تعرف قصيدة « والت ويتمان »(1) ، حيث ترك العصفور الازرق نفسه لتأكله الفئران ؟

ثم رفع الوزير رأسه وأرسل نظرة غاصت في اعماق عيون سليمان . وهنا كانت الآنسة بانكورست قد دخلت وبيدها المذكرة .

ـ اقراها ، قال الوزير .

كانت المذكرة بسيطة ودقيقة وجافة . عدة كلمات مكتوبة بلغة ادارية باردة حولتها الى حقنة من مخدر سام . وسليمان ، في بذلته الغربية ، وبرباط عنقه الرمادي ، وبالخف الذي يرتديه ، أحس بأنه موضع سخرية ، وبأنه يكاد يتحطم .

انهم يعلمون . لقد علم هذا العميل اللبناني السيء ، وأعلم الآخرين ان الامير سليمان بن التركي ، أخو زوجة

(1) والت ويتمان : شاعر اميركي اشتهر بقصيدته الرائعة « أوراق الحشائش » ١٨٥٥ .

ملك المملكة العربية السعودية ، ومبعوثه فوق العادة ، كان يضاجع امالیندا ، زوجة كمال عبد الملك رجل الاعمال السعودي ، الذي فتح امامه سوق الشرق الاسطورية . وشحب سليمان بفيض .

ـ لقد سبق وأخطرتك يا سليمان . ان عملاءنا سيئو التربية احيانا . وهذه الحادثة تعنيك وحدك ، وانا اعرف كيف أصمت ، (انها تعنيك انت ، انت وحدك) .

نهض سير ويليام ، وشيع سليمان حتى باب مكتبه المغطى بالقماش . أما الامير ، بجفونه المثقلة ، ودعه على الطريقة العربية : حانيا راسه ، ويده على صدره .

* * *

الفصل الثاني

ناووس طويل اسود ومذهب

كتابوت طويل من الحجر ، أسود ومذهب ، كانت سيارة « الرولز » تنزلق أمام قصر بكنغهام . انعطفت يسارا ثم أبطأت . وظهرت عين السائق في المرآة تترقب الاوامر . كان بعض تجعد يعلو جبهة سليمان ، أما لحيته فكانت مقصوصة على النمط السعودي ، فبدا وجهه النحيف كوجه ڤان ديك(1) .

(ان هذا يعنيك ولا يعني سواك) ! لقد جعل الامريكان من هذه المسألة كوميديا موسيقية ، اما الفرنسيون فجعلوها اغنية في الطرقات . وحده الملك فيصل فقط ، يخاطر بابقائها طي الكتمان . فالعادات والاعراف القديمة لم تنتزع منه مطلقا ظل ابتسامة . لذا يصعب ان تكون مستشاره الخاص وفي الوقت نفسه بطل لقصة الف ليلة وليلة . ما

(1) فان ديك : ممثل سينمائي .

العمل اذن ؟ هل تدفع للبناني ، ام تتخلى له عن الصفقة ، أم تبادله الشانتاج ؟ هل تستمع الى نداء العقل ، فتترك آمال وتمحو كل شيء ؟ في رأس الامير الشرقية ، حيث لا قيمة عادة للوقت ، كانت الدقائق والثواني تتخبط في جنون .

— انزلني هنا ، قال للسائق ، امام بوابة محاطة بالعشب الاخضر تحمل رقم (١٢) ساحة كاترين .

— هل أنتظر يا سيدي ؟

اتى سليمان بحركة تدل على فقدان صبره ، وقال :

— لا ضرورة لذلك . اريد منك فقط ان تكون في الموعد صباح غد ، فطائرتي تقلع في الحادية عشرة .

— ألن يذهب سيدي الى اسكتلندا ؟

لقد نسي سليمان ، كان عليه الاعتذار من نورثمبرلاند . فبنادق « البردلي » التي اعطته اياها الملكة ، ما تزال في صندوق الرولز .

— عليك باعادة بندقيتي ، فأنا مضطر للرحيل غدا . والطائرة ، كما قلت لك ، سوف تقلع في الحادية عشرة .

أدار الامير ظهره وابتعدت الرولز ، فانتظر حتى غيبتها زاوية الشارع ، ثم ابتعد هو الآخر . كان المطر قد توقف . ولندن تسبح الآن في ضوء ألوان قزحية . وراح سليمان يقرع الرصيف المقفر بخطاه ، حتى برج بلغراف سكوير ، الذي كان ينام بارستقراطية رمادية ، ثم انفتل عائدا كما هي عادته دوما ان يفعل عندما يهم بدخول قبو « ويلتون ماويس » الضيق . من قبل ، كان « الماويس » زرائب

حيوانات ، ثم حولت الى غارسونبيرات مترفة ترتادها مخلوقات المجتمع العليا .

توقف سليمان امام بيت صغير أزرق كسماء ايطاليا . وحده الباب كان اسود ، وبجانبه زجاجة الحليب كان ثمة قط يتمطى ، وجريدة « التايمز » تطل من فتحة علبة الرسائل . ادار سليمان مفتاحه في الثقب المرصع برفاهة ، وهو يحدث نفسه بانها ستكون المرة الاخيرة . وللحظة ، انحنت كتفاه تحت وطاة ثقل غير مرئي .

خطوة الى الداخل ، وسرعان ما عطرت قلبه ، سحائب عطر معروف . كانت هي ، ولكن كان هو ايضا . دفق رائحة « الفيرلين » وعبق خشب الصندل الذي كانت تشعله في محارق معدنية صغيرة ، وكان ياتي به اليها في رجعاته من الشرق . انصت الى الموسيقى الناعمة التي كانت تقود الى الغرفة ، موجة جديدة من المطر تضرب النافذة ، والليل بدا يخيم بظلامه . لم تكن لديه رغبة بالاضاءة . اماليندا تنام، رنا اليها في الظل الشاحب ، كانت عارية ، ومع ذلك كانت تضم ركبتها بين يديها المتقاطعتين ، بحياء غريب . وقف سليمان طويلا كانه يتامل تحفة خارقة . لقد كان ، خلافا لرجال بلده ، كان يفهم معنى الاحجام والانحناءات . جمال اماليندا كان يحفر فيه ما يشبه الهاوية. هذه المراة هي الاولى التي لم يحاول السيطرة عليها . وحدها هي فقط خرجت على الحق الطبيعي في الطاعة والخضوع ، لقد قلبته راسا على عقب . كان ثمة راديو ترانزستور بقرب السرير يرسل بخفوت موسيقى عتيقة من كاليفورنيا

الستينيات .

تمطت امل وقالت : « سول » ...

انساب صوتها ابحا حنونا .. ركع سليمان ووضع راسه على البطن القاسية والمشدودة . كم هي ناعمة بشرتها. راح سليمان يلامسها بجبهته ، وفي راسه الكثير من الذكريات .

والتقط سليمان التماع نظراتها كشرارة خضراء :

ــ اقترب ! قالت .

وبدات تعريه ...... كانت شفتاها تلمعان ، وسليمان، بحلقه المتشنج ، كان قد اصبح مهزوما .

السرير منخفض جدا ، ومغطى بجلد ذئب ناعم مكسو بالوبر ، استقدمه سليمان خصيصا من القوقاز . والستارة التجريدية التي انتقتها هي ، كانت تصرخ في النور المشع . تقوست اماليندا ......

غالبا ما كانا يمارسان الحب طويلا . منذ البداية، عرفا كيف ينصهران الواحد في الاخر في توافق يتجدد باستمرار . كان سليمان يمارس الحب معها دوما بقداسة اقرب الى العبادة . لكنه هذه المرة اقترب بشفتيه من اذنها وهمس « ستكون هذه المرة الاخيرة » . قالها سليمان مرارا في السابق دون ان يصدق نفسه . اما هذه المرة فكانت اشبه بتهديد احال ما يشدهما الواحد الى الاخر الى نوع من الهشاشة المحزنة .

ــ انها المرة الاخيرة ، كرر سليمان ذلك مؤكدا . وراح يتابع ممارسة الحب معها فبادلته ذلك بنهم .... ثم تراخى سليمان وراح ينسحب .

— ما بك يا « سول » ؟ انت تبكي .. ماذا يعني كل هذا ؟ ثم انتصبت وقد استشاطت غضبا ، لكن ظلت جميلة بعينيها الزمردتين .

وتحدث سليمان اليها بلغته العربية ، ففهمت كل ما قاله تقريبا لان كمالا كان قد لقنها دروسا في اللغة قبل أن تشهر اسلامها . لكن هذا كله خلق في راسها بلبلة عجيبة .

سالته : — الن تذهب الى اسكتلندا ؟

— يستحيل ذلك علي يا آمال ، يجب ان اذهب الى الرياض .

— الى زوجتك ؟ الى زوجاتك ؟ لكن ماذا اشكل انا بالنسبة اليك ؟

كانت آمال بالنسبة له رصيفا في لندن ، لم تكن صعبة المنال ، وبلاط الرصيف ، ها هو ، برهان ما يتبدى خشنا وقذرا .

حاول سليمان أن يضمها بين يديه فدفعته عنها ، كانت تريد ان تعرف ، ان تفهم .

— انا احبك يا آمال .

ثم ردد ذلك بلغته العربية : « انا احبك » !

لم يستطع اي شيء مقاومة ابن الشرق المخيف هذا . لقد كان ثمرة زواج متاخر بين اميرة قوقازية انقذت من آخر خدر تركي ، وبين امير سعودي ، كان ياخذ النساء ، يبدلهن، ثم ينساهن ، كن بالنسبة له خطى بلا اهمية على طريق الطموح والسلطة .

لكن آمال افسدت عليه اللعبة ، كانت هي التي تستعبد الرجال ، وتنصب لهم الفخاخ . تعطي نفسها لهم

لم تتمنع . ما زالت مثل هذه الالعاب القديمة تمشي على الرجال الشرقيين لعدم تعودهم عليها .

— سوف اطير غدا يا آمال ، وانت تعلمين انني لا استطيع اصطحابك . فهناك اشياء خطيرة تحتمل ، ولست واثقا من اني استطيع العودة .

كانت واثقة انه لم يقل لها كل شيء ، وكانت تريد ان تعرف .

— انك تخاف من كمال الآن . انك تخشاه لانك بحاجة اليه .

فرد سليمان بتعال :

— اني لا اخشى احدا ، كما اني انا الذي يسدي الخدمات الى زوجك ، ولكن يجب ان تفهمي ان الانكليز يملكون ملفا اعده لهم شخص عارف بحكايتنا . انه ذاك اللبناني الذي كان يجري خلفك في بيروت كولهان قذر ، انك تذكرينه . ماذا كان يدعى ؟

انها تتذكره جيدا . كان له اسم كاسم نوع من ماء الورد ، كان يدعى نمور ، جورج نمور ، كان يظن نفسه جميلا بعينيه الخضراوين ، يرقص كبرازيلي ، ويتيه كالطاووس في كل مكان . وقد اغتنم مرة رقصة « سلو » معها فراح يداعب فخذيها ويشعرها انه يقدر صعوبة ظرفها. لم تعد تذكر لماذا بدا لها كم هو كريه يومذاك .

— اذن ، انت تستسلم لشانتاج المهرب اللبناني يا سليماني المسكين . وتبرر الهروب بداعي الحفاظ على المصلحة العليا للدولة . لكن ماذا تظنني ؟ عندما التقطني كمال ، كنت أبيع السجائر في ملهى « البلاي غيرل » متنكرة

في زي ارنب صغير ؛ وصديقتي الحميمة كانت كريستين كيلر : الموس ، عشيقة بروفيمو(١) ؛ وزير الدفاع . وكانت امي تدير مصبغة تقع خلف محطة « بادنغتون » . لقد ولدت هناك ، بين المتشردين ، وقطط المزاريب ، وهذا كله لم يمنع كمالا من ان يتزوجني ويقدمني الى ملكة انكلترا ؛ وملك العربية السعودية والى المائة والستة وخمسين اميرا في بلدك . هل استوعبت الفضيحة الآن ؟

استعادت اماليندا انفاسها اللاهثة وبدت جميلة كصفعة .

ـ في بلدنا ، الموسات اقوى من الملوك . انهن قادرات على زعزعة الحكومات ، وحتى على ازاحتها . اني احبك يا سليمان ؛ ولن اتركك . ولو كان نمور مكانك لسلخت جلده ؛ واذا لم افعل هذا معك سيفعله هو حتما .

المصلحة العليا ! كانت امور كثيرة تصطرع في راس هذه اللبوة المهتاجة اكثر عقلانية من هذا الكلام الواهي عن المصلحة العليا . ارتدى سليمان ثيابه بهدوء . ولجا الى الحمام الاسود بعيدا عن اللعنات التي راحت تصبها عليه . رش على وجهه عطرا كان سائقه قد اشتراه من مخزن في بوند ستريت ؛ فلحقته اماليندا عارية بنهديها المنتصبتين وشعرها بلون الاكاجو يتهدل بحنق على كتفيها ، وجلست على كرسي الحمام متكئة بمرفقيها على فخذيها القويتين . فاستدار سليمان وامسك وجهها بين يديه حتى لاصق شفتيها بشفتيه وارسل ؛

(١) بروفيمو : وزير الدفاع البريطاني الذي قدم استقالته اثر انكشاف علاقته بكريستين كيلر .

حتى حنجرتها ، لسانه الدافيء الحنون . فاستكانت ورفعت وجهها بتفاحتيه الناتئتين ، وسالته بلهجة هادئة لكن حاسمة :

ـ حسنا يا « سول » ، ماذا قررت ؟

تشاغل سليمان عن الرد بتصحيح ربطة عنقه . وعندما التصقت به واحاطته بذراعيها ؛ فقد كل رغبة في التحرك من مكانه .

ـ قرر ! قالت .

فرد بصوت بطيء مدروس ، عريق في انكليزيته :

ـ آمال ، اني اقرر ما تقررينه . سلفا انني اقبل باي قرار تتخذينه . كل ما اطلبه منك ان تحاذري من ان تقع في مطب كبير . وتذكري هذه الامور : انني احد امراء السعودية . والملك فيصل هو صهري . وله امر اتخاذ اي قرار بالموت والحياة بحق اي كان . وكمال ، زوجك اصبح الحجر الرابح على رقعة الشطرنج التي نحرك احجارها : فهو الان ركن من اركان المملكة . وكل هذا هو مجرد قصر مبنى على الرمال سهل تداعيه . فمهما كان قرارك ؛ لا تنسي ان مصيري ومصيرك هما بين يديك . انني اعتمد عليك .

ارتدت اماليندا بهدوء قميص الحمام واقتربت منه . وكانت شفتاها المسترخيتان تلتمعان برطوبة .

ـ ضمني اليك .

اخذ فمها بفمه ؛ فصرخت من عضته .

ـ هل اوجعتك ؟

ـ ضمني اكثر .

عض بعضهما بعضا اكثر بعنف مرارا . كان ثمة شيئا

قدريا يطوف حولهما ، ويوحي اليهما بانها القبلة الاخيرة التي ستكون ذكرى مؤلمة لوقت طويل . وسحبت نفسها ، وسألته :

ـ هل تعطيني حقا « كارت بلانش » ، يا « سول » ؟

ـ لقد سبق وقلت انني اعتمد عليك . لكن تذكري جيدا ان السعودية هي مملكة السر والشرف . فاذا ما تناهت قصتنا الى اسماع الملك ، سيقضى علينا جميعا ، انت وكمال وانا ايضا .

ـ لقد فهمت . هل ستبقى هنا الليلة ؟

ـ كلا ، اعذريني ، فعلي ان اعود الى ساحة كاترين لان سائقي سيمر لياخذني الى المطار ، ثم انني انتظر مكالمة خلال الليل ، من الرياض .

ـ وهل المكالمة اهم من بقائنا معا ؟

هز سليمان راسه بتثاقل وضمها اليه ، فاغمضت عينيها . طبع قبلة على رموشها فابقت عينيها مغمضتين فترة طويلة . ثم سمعت اصطفاق الباب خلفه ، فادركت انه رحل . عندها عضت على شفتها السفلى ، كعادتها عندما تتخذ قرارا خطيرا .

تمددت اماليندا بجانب الهاتف . لطالما لجأت في الماضي الى الهاتف . وادارت القرص تطلب رقما .

ـ اريد السيد ريمون من فضلك .

قطعت الاسم وهي تلفظه « ري مون » ، على طريقة اولاد الازقة ، دون ان تضغط على الحروف ، لكن في الطرف الاخر كانوا اكثر حذرا فسألوها :

ـ بخصوص ماذا ، تريدينه ؟

ـ قل له اماليندا على الخط !

منذ سنوات لم تر ريمون . منذ زمن « البلاي غيرل » . قبل كمال ، قبل الامراء ، وقتها كان ريمون يدير صالة القمار وتركها ترحل ، لانه في رايه يجب عدم ترك الحظ يرحل . فالزواج من ميلياردير سعودي فرصة لا تاتي مرتين . وبعد كل هذه السنوات ما تزال ترن في اذنيها الجملة التي قالها لها ريمون : « امال ، اذا مست شعرة من راسك ، اتصلي بي ، لا تنسي اننا هنا . . »

بعد ربع ساعة اتصل بها ريمون سائلا :

ـ ماذا ؟ هل تواجهين متاعب ؟

ـ ليست متاعب بالضبط ، ان الامر اخطر من ذلك .

ـ تعالي لرؤيتي اذن .

وضعت قرص اسبيرين فورا في قدح ماء . وشعرت كان ملزمة تعتصر راسها بعنف . هذا ما يحصل لها في كل مرة تندفع فيها الى العمل . ودست اماليندا يدها تحت قميص الحمام وغرقت في التفكير . وعبر زجاج النافذة ، راحت تتامل سحب المطر السوداء في الخارج ، ونظرت الى ساعة يدها .

لا ريب ان سليمان يغط الان في نومه في ذلك الفندق العتيق التافه في ساحة كاترين ، حيث تضيق الجدران بصور اجداد ليس هو حفيدهم ، وكمال اين هو ؟ لا شك انه الاخر في طائرته النفاثة في مكان ما فوق الاطلانتيك ، بين موعدين ، او بين « شيكين » بثمانية اصفار . كمال ، زوجها العربي ،

البدوي الخالد ؛ تائه دوما في السماء وكأنها الامتداد الطبيعي للصحراء .

ارتدت بنطلون جينز ، فوقه قميصا قصيرة ثم نزلت الى الكاراج .

❊ ❊ ❊

في ماخور شارع اولد كومبتون ، ثمة عميل عقاري ، وثلاثة اشخاص يعملون في حقل التامين ، وكاتب عدل اقرع ، واربعة فتيان يرتدون سترات الخدم ، يحدقون بعيونهم الزائغة بالمشهد المذهل الذي يدور امامهم .

في خريف ١٩٧٣ ، كان « فونيكس الازرق » الكباريه التي تقدم اجرا الاستعراضات في لندن ، كان يديره السيد ريمون الذي حاز على حصة الاسد في صناعة الستربتيز ، بعد ان ادرك ان الشهرة والنجاح اللذين حققهما خلال عمله في منظمة فرنسا الحرة عام ١٩٤٠ ، لم يعوضاه شيئا من شبابه المفقود .

واصبح السيد ريمون واحدا من اكثر محتويات حي سوهو احتراما .

كان الكاتب العدل يجلس في الصف الامامي ؛ وقد بدات صلعته العارية بفعل الضوء الشاحب تتخذ لونا بنفسجيا ، عندما برزت فجاة « بيدجي » واطبقت بفخذيها العاريتين على عنقه ؛ واصبح الكاتب العدل كمهرج قديم شارف على الاختناق ؛ واخرج لسانه ، فبدا كجاموس يطلب الرافة . فجاة دوت من عمق الصالة صرخة حادة : « كفى » !

كان المشهد منفرا جدا بالنسبة للصبية التي ترتدي الجينز في هذا الماخور ، ولم تجد داع لتجاوز هذا الحد .

وتساءلت اماليندا : اي فكرة ادخلتها الى الصالة بدل ان تذهب الى مكتب ريمون وتنتظره هناك ؟ لكن راقصة الستربتيز افلتت طريدتها من بين فخذيها وانتصبت ، ويداها على وركيها ؛ وبطنها مشدودة الى امام ، يتناثر الزبد من زوايا فمها . كانت زقاقية ، زقاقية متفوقة متعجرفة ، كان التقزز يطل من عينيها وكأنها تنظر الى كل اوعية الزبالة في لندن ، وزمجرت :

— اجلبوا البوليس .. اطردوا هذه الى الخارج .

تناثر رشاش البصاق من بين شفتيها ، كانت تبصق غضبها كما ينبغي للفنان أن يفعل عندما يهان ؛ وفي قلبها ازدراء صاف يغلي ويفور . توقفت الموسيقى ؛ وفجاة ظهر ريمون واخذ امال بيدها .

— لا تبتئسي يا صغيرتي .

كان مخدع ريمون عبارة عن مخدع موشى بالمخمل الاحمر ، جدرانه مليئة بتذكارات تحكي تاريخ صاحبها . ابطال تظهر على اياديهم المتقاطعة الميداليات ووشم الفتيات العاريات ؛ صليب الحرب الذي حاز عليه ريمون ؛ وصورة ممهورة بتوقيع الكولونيل اميلكفاري يظهر فيها على برج آلية عسكرية في « بير حكيم » وبجانبها صورة للكولونيل نفسه ، بمفرده وهو يحيي الاميرة مارغريت في غاردن بارتي في قصر بكنغهام .

ـ انظري .

قال لها مشيرا الى صورة العائلة في احدى الزوايا . تعرفت آمل على نفسها . كانت تظهر في الصف الثاني : تماما خلف ريمون ، مسكوبة في مشد من الساتان الاسود ، وترتدي جوارب شبك ، وعلى راسها كانت القمطة ذات الاذنين ، انها تبدو كارنبة صغيرة على الطراز الذي كان سائدا حينذاك .

سالها ريمون ـ : هل تذكرين ؟

كانت اماليندا قد بدات عملها في « البلاي غيرل » ببيع السجائر . لكن ريمون سرعان ما لاحظ ثقتها بنفسها ؛ ونباهتها ونظرتها الثاقبة . تلك السنة كانت سنة الانتصارات التي حققها البيتلز (الخنافس) ، «وماري كانت» . اطالت انكلترا شعرها وتقافزت من الشبابيك كالمجنونة . وبدات الملكة تخطر بالميني جوب ، وتم اختراع جيمس بوند . كان كل شيء قد تفرقع في نفس الوقت ، من الامبراطورية الى العادات ، الى الجنيه الاسترليني ، ولندن « سويمنغ لندن » قذفت بنفسها في حمى « البوب » « والروليت » بظما مسعور الى الفسق والفجور ، وبدات ثروات تجار المخدرات واصحاب المقامر تتراكم .

في الصالون الرئيسي لـ « بلاي غيرل » ، هناك مصعد كهربائي يلبي رغبة الزبائن في ايصالهم الى اي طابق من الطوابق التسعة التي تعج « بالارنبات الصغيرة » .

ـ سوف تعملين في الطابق التاسع ، يا صغيرتي ..

كان هذا الطابق للمقامرة . وكانت لامال ، عينان منفتحتان وشعر غامق . كان والدها تركيا ، وربما كان ارمنيا : انها لا تعلم ، فهي لم تره .

ـ سوف تديرين لعبة « البلاك جاك » .

انها لعبة خاصة بالقراصنة فاقدي الوجدان ، وخلال ثلاثة دروس ، علم ريمون اللعبة لامال . وكانت الاوراق تتعاقب كل ليلة وعلى مدى سبع ساعات ، بين اصابعها المسحورة بسرعة البرق . كانت تحسب ، وتدير الورق وتربح اسرع من اي محترف محنك . كان اللاعبون يتوالبون . واحدا اثر اخر . وكانت تعمل بهدوء وهي تتمتم صلاة الشكر . وكان جمالها وهي ترسل ممشاطها لتجمع الفيش عن الطاولة : شرسا وطاغيا .

ـ انك تحققين ارباحا اكثر من الجميع !

كان ريمون لينا ، يرقب من بعيد تالق مديرة اللعب في « البلاي غيرل » بدون حسد ، كان صافيا ، يتمتع بمشاعر برجوازية عريقة .

ـ حسنا يا حبيبتي ، من الذي يزعجك ؟ هل هو كمال ؟

لم يكن ريمون قد راى السعودي ثانية . وبالرغم من ذلك فهو ما زال يتذكر المشهد ، وكانه حدث بالامس . كانت الساعة الثالثة صباحا ، وكان الرجل جاثما في كرسيه ، فهو الوحيد الذي نجا من « البلاك جاك » ، بعد ان ارتكبت امال مذبحتها وخسر الجميع . كانت عيناه مشدودتين الى

صدر بنت البستوني التي صنعت خصيصا ليخسر بها . كان يفتش عن نظراتها فلا يجد غير جفونها . وكان يتابع ، على الطاولة الخضراء ، بتلذذ يدي امال اللتين تشبهان يدي عازف موهوب عندما يلامس مفاتيح آلته . كانت لعبة تحد بينها وبينه . انها تعطي الاوراق وتاخذ المال . لم يعد لاي شيء اهمية ما عدا هذه اليد التي توزع الملوك والشباب ، هذه اليد العارية والرشيقة : حيث لا يلمع اي خاتم ، والتي سرعان ما تضعها على اوراكها أو على رقبتها . وحين لم يبق في العلبة الا عدة اوراق قليلة ، غطى كمال هذه اليد براحته ، فتلقى ولاول مرة ، كل عيون اماليندا الخضر . « هل تسمح » ؟ . ، وتركها .

وفي الليلة التالية ، انتظرته .. لقد كانا من الطينة نفسها . وعندما اصبح اللاعب الاخير الذي يجلس قبالتها نظر الى قاع عينيها ، ومن جديد اخذ يدها ، ولم يتسن لها الوقت ، فقبل ان تسحبها ، كان كمال عبد الملك ، بخفة الحاوي ، قد وضع في يدها قلادة من الزمرد .

خلطت الاوراق مرة جديدة ، وكان ريمون يراقب المشهد مفتونا ، ورقة « اص » ، ثم ملك . زرعت عينيها في عيني السعودي وقالت « بلاك جاك » ، ثم تابعت بصوت خفيض جدا « انتظرني ساوافيك الى الخارج » .

لم يكن ريمون يدخن ، انما اشعل ولاعته بحركة الية فالتمعت عيناه ، تحت اللهبة الصغيرة وسال :

ــ هل تواجهين متاعب ؟

منذ سنوات خمس ، واماليندا زوجة للسعودي ، ومن

حين لاخر ، كانت تتصل بريمون عبر الهاتف تطمئن عنه . لم تكن تريد حقا ان تنقطع عن هذا الماضي الخشن والعكر الذي ما زال ملتصقا بها .

ــ هناك رجل يزعجني .

ــ هنا ، في لندن ؟

ــ كلا ، في باريس . انه لبناني .

اغمض ريمون عينيه حتى منتصفهما كانه يفكر .

قال ــ ذلك افضل ..

ثم قام بحركة كمن يقطع عنقا ، وهو يرسل نظره اليها مستفهما .

ــ لا ، قالت ، ليس ذلك ضروريا .

ــ ماذا تريدين منه بالضبط ؟

ــ اريد ان اسجنه ، سيكون هذا كافيا .

ــ هل ما زلت تمتلكين « توبي » (١) ؟

ــ نعم ..

ضغط ريمون على زر الانترفون وقال :

ــ اخطري عليا ومارسيل بان يكونا جاهزين غدا صباحا .

ــ حسنا يا سيدي ..

مال ريمون صوب اماليندا وسالها :

ــ هل تعرفينه جيدا ، هذا اللبناني ؟

ــ انه متيم بي .

ــ رائع ..

وفي طريق عودتها الى « ويلتون ماريس » كانت

(١) « توبي » : شاحية في باريس .

اماليندا تحس بالانتعاش . لقد اعد ريمون السيناريو ولـم يبق الا تنفيذه .

وبعد ساعات قليلة اخذت سماعة الهاتف ، وللمرة الاولى منذ اربع سنوات تحدثت مع جورج نمور . .

الفصل الثالث

اللبناني يعاني من ألم في جلده

كان اللبناني متضايقا يكاد يخرج من جلده ، سيئا ، كلاعب ما زال منتشيا بارباحه بعدما غادره الحظ . ومع ذلك ، كان لخريف باريس حنان خاص يمنح اللبناني شعورا بالراحة والطمانينة .

وككل الايام ، على دقات الساعة الثالثة ، خرج مـن « شي مكسيم » واعطى البواب بخشيشا اقل مما اوحت به الحركة الباذخة التي قامت بهايده ، ثم اشار الى سائقـه ميلوش بأن يتبعه . وبينما كانت سيارة الرولز ، بلونهـا الازرق الكامد ، تدور على نفسها في منتصف المدخل لتلحق به ، كان هو يقطع شارع « الرويال » بحذر شديد .

مرارا عاد ادراجه ليعاود الارتقاء عـلى درج كنيسة المادلين . دس يده اليمنى في فتحة قميصـه ، ولامس ميدالية العذراء ، الغارقة في الشعر الكث الذي يغطي صدره ، في حين غاصت يده اليسرى في قاع جيب معطفه

الوبر ، تداعب قبضة مسدسه . كان يتمتم في نفسه :

« يا مريم العذراء ، يا والدة الرب ، ساعديني » ..

كان جورج نمور يحفظ موقع الكنائس ، كما يحفظ الاخرون مواضع ابواب النجاة في طوابق فنادق الهيلتون المرتفعة ، انه لم يستطع بعد تحديد اسباب قلقه الحقيقية ، لكن شعورا مبهما بأنه مهدد كان يمتلكه . لقد انجز اشياء كثيرة بسرعة كبيرة .. كان صغيرا جدا ، وضعيفا جدا ، فأصبح كبيرا ، وقويا جدا ، منذ عهد قريب ، كان ، عندما يدهمه الشك ، يجتاز باريس ويذهب ليصلي في الكنيسة المارونية ، في شارع « اولم » حيث يجد المسيحيون اللبنانيون انفسهم مشمولين برعاية العذراء ، وبطريرك انطاكية ، لكنه الان بات يفتقد الوقت للقيام بذلك .

ساحة المادلين كانت على بعد خطوتين من « الماكسيم » . وبالكاد تبعد ثلاثمائة متر من بيت الازياء الذي كان اول اسلحة جورج لبناء مجتمع يغص بالمخلوقات الرائعة . المادلين ، انها قلب باريس ، انها الملجأ بالنسبة للرجل المطارد .

سحق سيجار الهافان قبل ان يغمس اصبعه في جرن المياه المقدسة ، وبلا مبالاة مر امام تمثال للقديس جورج ، يكاد لا يرى ، بسبب الضوء الهزيل الذي ترسله شموع النذور ، وجثا على ركبتيه امام العذراء ، واختار اكبر الشمعات واشعلها بقداحته « الدانهيل » . وبحماس من اخذته رعدة أرتجل هذه الصلاة : « يا مريم المقدسة ، يا ام الاله ، احفظيني وخلصيني ، فأنت تعلمين جيدا ، انه لم يبق

لي غيرك ، وبدونك سوف ينالون مني ، وهذا لن يكون عادلا ولا حسنا . فأنت تعلمين جيدا انني معك ، في جانبك ، والصليبيون هم الذين زرعوا ارزنا هناك .. في لبنان .. »

انه أسترحام غريب ، خرج من فم هذا الملياردير ذي الجفون الثقيلة ، والراكع في صمت لا يعكره سوى ضوضاء باريس التي تصل اليه مخنوقة ، وخلفه ، غمرت الكنيسة رائحة العطر الذي يستعمله بعد الحلاقة ، ممتزجا بأثر لبخور محترق ، ووقف ميلوش في عمق فناء الكنيسة مكتفا يديه . وانتفض جورج مرتعشا عندما قرعت خطوات القندلفت البلاط .

من ؟ وكيف سيكون القاتل ؟ مرة اخرى ، سرد نمور في لائحة اعدائه . هل سيكون احد الناجين من بيافرا ؟ او احد الهاربين من السجون الليبية ؟ هل سيكون البوليس السري الانكليزي ام السي.اي.اي ؟ ام احد المنافسين ؟ احد الانذال او احد الغيارى ؛ ام واحد من أولئك الساقطين الذين لا يخطئون بضربتهم ؟ . كان نمور وحيدا مع نفسه ، مع ضميره ونجاحاته ، وكانت هناك الرصاصة التي اطلقت في تلك الليلة على سيارته ، وايضا ذاك التحذير المغفل الذي اتاه عبر الهاتف في صوت بارد كالثلج ، يتلو عليه بالعربية آية من القرآن عن « الثمرة التي ينبغي اقتسامها » . وعن الطعنات التي تجزى الخيانة بها . تغير لون جورج ، وظهرت فجأة دوائر زرقاء ثقيلة احاطت بعينيه . لم تكن « جوزيه » تفهم اللغة العربية ، لكنها ادركت عندما رأته يضغط بتشنج

على ميداليته . ان على جورج ان يدفع بشكل أو بآخر شيئا ما .

نظر ميلوش الواقف في فناء الكنيسة الى ساعته ، اذ لم يسبق لسيده ان تأخر في الصلاة الى هذا الحد . خرج جورج ، ومسح اولا بنظرة دائرية ساحة المادلين ، ثم نزل سلم الكنيسة الامن .

ـ اظن انه لا بأس علينا يا سيدي ، قال السائق ، وهو يفتح باب الرولز ، المزدان بنخلة أمر جورج برسمها ، تذكر بالتاج ، كفأل لجلب الحظ . واليوم ، وعى جورج هذا الخطأ في الذوق ، لكنه على الرغم من ذلك ، فقد ابقى على رمز بدايات صعوده مرسوما على كروسري سيارته الحديثة الطراز .

ففي اقل من خمس سنوات وضع جورج في جيبه الليبيين جماعة الملك ادريس ، واصحاب المصارف في لندن ، وشركات التسليح البريطانية والحكومة الفدرالية في برن ، ونصف دزينة من الملحقين العسكريين ، دون الكلام عن اولئك اللصوص الذين يظنون انهم ارتقوا الى مصاف اصحاب الصفقات الكبرى ببيعهم بنادق « الباريتا » ، او الرشيشات التشيكية في ساحات زوريخ الى مشردي العالم الثالث .

ـ دعيني اتدبر الامر يا « جوزيه » ، دعيني اتدبره ، فأنا ملك الخديعة ، ولن يفقه احد شيئا مما سأفعله ولا حتى انت .

كانت جوزيه بالنسبة لنمور هي المرأة ، كانت تمثل له ما يمثله تمثال الكومندور لدون جوان ، ضميره ورقيبه ،

ضمانته وسوره الذي يحميه في الحياة ، كان لها جمال الشقراوات الاربعينيات الفاتر قليلا ، اللواتي يمزجن نار العشق مع رقة الحنان .

تركته يتدبر الامر ، بل فتحت له ابواب الخزنة الحديدية ، لانها كانت الوحيدة التي تملك ارقامها . وكانت في صندوق رئيس بنك « الانتر اورينتال » ضمن مئات الوثائق ، واحدة مكتوبة بالعربية ، وكانت هذه الوثائق تساوي ثروة .

نام جورج ، في ذلك المساء ، وكانت انوار « بارك مونسو » تتسلل الى الداخل عبر ستارة الساتان السميكة ، كان ينام وساعته في يده ، وهي هدية من امير دبي . كانت الثانية صباحا ، وكانت جوزيه ساهرة وهذا يعني الكثير ، فلقد كانت تحب ان تنظر اليه في منتصف الليل ، عندما يكون مجردا من اية قدرة على المقاومة ، ويكون تحت رحمتها ، بشكل من الاشكال .

شربت جرعة كبيرة من الماء وتمددت ، وما ان وضعت يدها على فخذ جورج ، حتى رن جرس الهاتف بخفوت . كان مدير الفندق في اغلب الاحيان ينسى ان يصل جهاز الهاتف المركزي بالغرفة .

انزلقت جوزيه خارج السرير ، غاصت في الظلمة تسبقها يدها تتلمس الرف الرخامي .

ـ نعم ؟

كانت جوزيه تتكلم همسا . لم تكن تقول مطلقا «آلو» ، بل كانت تقول «نعم» مظهرة طبيعتها الواثقة .

ـ مطلوبة من زوريخ ! حسنا يا آنسة ، انني اصغي اليك .

كان يسري في عروق جوزيه دم بارد ، وكانت مصائب الحياة تتكسر دوما عليها دون ان تستطيع النيل منها ؛ وكان نمور الذي ارهقته برودتها ، يعيب عليها « اعصابها الفولاذية » .

قالت :

ـ شكرا لانك اعلمتني ، لكن في اية ساعة وقع ذلك ؟

لم تبالغ ، ولم تحتل ؛ لم تقل « اية ماساة هذه » أو « آمل ان لا يكون قد تألم » .

ومع هذا ، كان الخبر الذي تلقته سيغير حياة نمور وحياتها . لقد فتح امامها الموت المفاجيء لسيدها زكي يوسف، في احدى عيادات زوريخ ، آفاقا غير منتظرة .

كان مسار زكي يوسف القصير ، لكن الباهر ، احدى اساطير الشرق الحديث . فقد بدأ عمله صرافا في حانوت صغير في القدس . كان عبارة عن لوح من الخشب قائم على مسندين ، ثم اصبح له مصرف في بيروت ، دخل في الاعيب سياسية ، وادار ممالك نفطية ، وشارك بنسب مئوية ، وصفقات ، وشركات ، وحكومات مستاجرة او مشتراة . وفي انتفاضات ما بعد الحرب ، وعبر التراجعات السياسية التي اصابت المنتدبين الفرنسيين والانكليز القدماء ، كانت امبراطوريته تؤمن له من السلطة اكثر من معظم رؤساء الحكومات الموجودة ، حتى اتى اليوم الذي وسوست به

الحكومات الحانقة عليه في اذن امراء الخليج بأن يوسف ليس أكثر من تمثال جبار لكن بارجل من فخار . وسرت في الشرق كلمة سر آمرة ، وخلال اربع وعشرين ساعة ، سحب ملوك النفط الصغار ارصدتهم ، ولم يكن في وسع اي مصرف متوسط ان يواجه سحوبات مفاجئة بلغت ٢٠٠ مليون دولار . فوقع يوسف مريضا .

وفي باريس ، كانت جوزيه قد اصبحت السكرتيرة الخاصة لزكي ، سكرتيرة تجيد عدة لغات وتمتلك مؤهلات متنوعة ، وسريعة الخاطر ، صنعت خصيصا لحفظ الاسرار ، كان زكي يريدها ان تكون بالنسبة له اكثر من ذلك . لكن جورج كان نقطة ضعف جوزيه .

كان لجورج سحر سكان ضفاف البحر الابيض المتوسط، بعينيه الخضراوين وصوته الدافيء ؛ وبالاضافة لذلك ؛ كان يمتلك غريزة الاكتشاف السريع لما تستطيع النساء ان تسديه له من خدمات .

كان عمره ثمانية عشر عاما عندما استطاع بديناميكيته ان يسيطر على معظم تجار الموز في « دوالا » تلك المستعمرة اللبنانية . كان والده يرسله في مهمات عبر طرق الغابات الوعرة والخطرة ، في سيارة العائلة العتيقة التي كان يقودها دون اجازة . وكانت حياته ستستمر طويلا هكذا ، لو لم يلق ذات يوم انكليزية جميلة ، متوقفة من جراء عطل طرأ على سيارتها ، في قرية غير بعيدة جدا عن « دوالا » . كانت الانكليزية تهيم ولعا باجناس البشر الاخرى ، وبالمغامرات الافريقية ، فطلبت اليه ان يمد يد المساعدة ، فامسكها من

وركبها ورفعها، واجلسها على رفراف الشاحنة، المغطى بالغبار واخذ يتاملها : شقراء طويلة ، ترتدي الجينز ، وعلى خديها بقع تركتها الشمس . كانت جوزيه مطلقة في الثلاثين من عمرها ، وشهية . ادرك جورج على الفور انه لن يتركها تغادر لوحدها . فودعه اهله بقليل من التاثر والاسف . كانت الانكليزية تسكن في لندن وفي باريس ، فاختار جورج باريس ، ولم يكن في حياته معها مخلصا تماما . فكان ينتقل من امراة الى اخرى ، وهو يتسلق درجات السلم الاجتماعي ، وغاص في بحر من الصفقات ، حيث السباحة تعتمد على الحظ اكثر من اعتمادها على الدراسة ، وعلى نقل المعلومات الىالاخرين اكثر من التعلم ، وجوزيه بما لها من المام واسع بتقنية عالم المال دوليا ، سكنت في حياته ، يشدها اليه الطموح الهادىء الذي يشد المراة العاشقة .

عاودت جوزيه صعود السلم بسرعة ، لم يكن هناك مجال لاضاعة دقيقة واحدة . كانت دوما ترتسم كشبكة من الضوء على وجه نمور ، انحنت عليه قائلة :

ــ استيقظ !

انتصب بهلع متثائبا .

ــ ماذا بك ؟

القت جوزيه باوامرها كانها تدير احدى العمليات العسكرية ..

ــ ارتد ثيابك واخرج السيارة ..

كرر نمور بانزعاج : ــ لكن ماذا بك يا جوزيه ؟

ــ سنذهب الى البنك .

ــ في الثانية صباحا !

امسكته جوزيه وهزته بعنف .

ــ هناك لحظات في الحياة يجب علينا أن نتخذ فيها قرارات ننفذها بسرعة ، تحرك !

في قلب الليل ، كان بلاط الرخام ، يردد وقع خطواتهما في المبنى الضخم الفارغ ، حيث يوجد « الانتر ـ اورينتال » في شارع مونتان . عند دخولهما ، حيا الحارس جوزيه ، فغالبا ما كان السيد زكي يرسلها الى مكتبه في اوقات اكثر غرابة من هذه ، لتفتش له عن هذه الوثيقة او تلك . والان ، ها هما الواحد امام الاخر ، يغمسان ايديهما ، يبحثان في الوثائق .

كانت الاتفاقية مذيلة بتوقيع جنرال من القيادة العليا للجيش الليبي ، ومصادق عليها من قبل كبار المسؤولين ، وهي عبارة عن طلب موجه من حكومة طرابلس الى احدى الشركات الانكليزية بشراء مئة قاذفة .

تطلع جورج الى جوزيه بانفاس متقطعة ، ويده تضغط الى ايقونته التي تتدلى كمدالية في رقبته .

انها مطاردات تخترق السماء بسرعة « ٢ ماك »(١) . وهي افضل الطائرات الحربية الموجودة وقتها ، حاول اذن ليتصور ما هي حاجة ليبيا ، التي يهيمن عليها ال السنوسي، الى اجهزة متطورة الى هذا الحد ، بالاضافة الى انعدام وجود

---

(١) [illegible] اصطلاح لقياس السرعة ، يساوي سرعة الصوت .

طيارين لها : سلاح ، المزيد من السلاح دوما ، للحفاظ على الكرامة ! جائز ، لكن من المحتمل ايضا انه خلف مصلحة الدولة العليا ، هناك حلم بالبخشيش ، ضباط كبار يرتعون بسيارات الكاديلاك ، وفي اسرتهم تتمرغ فتيات بقمصان من الاطلس الشفاف شقراوات ، رائعات ، من لحم ودم ، ويمكن ان يكن حتى اكثر جمالا من هياكل المطاط التي تنفخ ؟ واستطاع جورج ، المعتاد على النوطات الموسيقية ، ان يقرا بين السطور القيمة الهائلة لهذا العقد الذي لم ينفذه زكي الكبير ، بعد ان وضع يده عليه . ولم يكن على جوزيه ان توضح له اكثر ، فقد صرخ :

ــ جوزيه ، هذا لا يصدق ؟

ــ آه ، لقد استيقظت اذن !

استيقظ ؟ لم يكن بقدرة جورج أن يكون أكثر يقظة من الان . ففي اقل من عشر دقائق قرأ عشر صفحات مكتوبة بخط عربي دقيق . كان يقرا كلمات الاتفاقية الاسطورية بصوت عال ، مفعم بالايمان ، تماما كما كان سيقرا الاخرون آيات دينية .

وبدات جوزيه تعمل كدماغ الكتروني . حسبت : مئة طائرة ، سعر الواحدة منها ستة ملايين دولار ، المجموع ستمائة مليون دولار ، سترتفع حسب الاتفاقية ، نسبة الكوميسيون الى ٦ر٧٪ ، وستدفع أما الى زكي او الى وكيله .

ــ جورج ، هناك خمسون مليونا من الدولارات في قبضتنا ، انها ثروة . انها لك .

استغرق جورج يتامل . كان طافحا ، مفعما بالانهيار في المكتب الكئيب لذاك الميت ، ومداليته التي لا تتركه ، ترافصت شفتيه ، عندما بدا يتمتم بالصلاة لنفس زكي .

ــ يجب علينا ان نصلي لاجله .

* * *

الفصل الرابع

الفجر يشرق على المانش

الفجر يتفتح فوق « المانش » ، وفي اقل من ساعتين سينتهي كل شيء .

اغلق جورج منفضة السجائر بجانبه ، في حين كانت الطائرة ــ التاكسي ، التي استأجرها على عجل من شركة « بونيجت » تحلق فوق « البريستول » . كانت الساعة السابعة صباحا عندما عبر تمور الضباب السميك المثقل بادخنة المدينة الانكليزية الضخمة . كان يريد ان يكون اول منتظري نائب رئيس شركة « ايسكس ميسيل ايركرافت ل. ت.د » لذا كان في سباق مع الوقت . يجب ان تتم المواجهة قبل اذاعة نشرة الاخبار ، فهو يريد ان يحاط الانكليز علما بوفاة زكي منه هو .

ــ عند ذاك ، تفسيا ، ساكون الاقوى ، سأقتحم الباب واحظى بالصفقة ، فانا الاول .

ولحسن حظ تمور ، فان سير « جيو فري ويتيرال » كان يستيقظ باكرا ، ويأكل « الكورن فلكس » فهو فارس صباحي ، لذا لم تدم فترة الانتظار طويلا .

قال : انني لا اعرفك يا سيد تمور ، لكن تصرفك بهذه السرعة والدراية يلائمني ، ويكفيني انك كنت موضع ثقة

قرأ الانكليزي الوثيقة بتمعن ، وتوقف طويلا عند تواقيع القادة الليبيين الثلاثة ، التي كانت تقارب بحجمها ثلاث حلزونات بحرية . كانت رائعة .

رفع سير جيوفري رأسه ، فالبيان التفصيلي المرفق ينص ، بشكل لا لبس فيه ، على ان يتم فورا دفع كوميسيون ٦ر٧٪ للوسيط .

ــ ارى انك لم تترك شيئا للصدف ، وابتسامة غامضة ترتسم على ثغره .

كان تمور رسم خطا احمر تحت الملحوظة التي تتعلق بالكوميسيون ، تنص على ان يتم الدفع ساعة توقيع الاتفاق ، عن طريق « فتح اعتماد لا يمكن سحبه ، مغطى وقابل للتجزئة » .

ــ كل هذا يبدو لي منطقيا ، ولكن بحق الشيطان لماذا تريده ، قابلا للتجزئة ؟

قال تمور بصدقه : انت تعلم ، عندما يكون المبلغ [illegible] ، فان هناك اناسا ينتظرون ان ينالوا بعض الهدايا .

تجاهل سير جيوفري الوخزة ، وحك حنجرته واصطنع نوبة من السعال .

ــ انني افرط في التدخين ، قال ، وهو يسحب من [illegible] سحابة زرقاء من الدخان .

امر مؤسف حقا ، فقد كان نمور سموحا لين العريكة هذا الصباح ، ولم يكن يتورع عن ادخال الاخرين في سياق لعبته كي يضمن لها النجاح . لقد جرت العادة على ذلك على كل حال . كان قد حسب في راسه المبلغ الذي سيقلل قيمة الكوميسيون . والذي لا يمكن تلافي دفعه الى مسؤولي النظام الملكي في طرابلس . ولانه كان خيال انسان شريف ؛ فقد كان من الافضل له اغتنام الفرصة : اذ ماذا يكسب المرء في مثل هذه الحالة الا مثل هذه المكاسب ؟

رماه الانكليزي بنظرة صارمة ، فهو لايجهل ان قسما من المبلغ سيعود ليتوزع على الذين زينوا الطلبية بتوقيعهم الكريم . فليبيا الملكية لم تكن فعليا ، لتحتاج الصواريخ والردارات والطائرات المقاتلة ؛ انها فقط متعطشة للبخشيش ، هذا هو قانون اللعبة . وشعر في تلك اللحظة باهمية نفسه ، لقد كان « سمسارا لبيع المعدات العسكرية » ؛ انها مهنة كباقي المهن . وكان على المرء ان يكون متشبعا بالخبث الانكليزي حتى يستطيع ان يتصنع التجاهل الى هذا الحد .

ــ وعلى كل حال ، يجب ان تعلم اننا نفضل التعامل مع مفاوضين معينين ، في هذا النوع من الصفقات يا سيد نمور .

عقد جورج حاجبيه ، وشاب جبهته ظل خفيف :

ــ انت تعرف بلا شك كمال عبد الملك ؟

ــ السعودي ؟

ــ حسنا ، لنقل انه سعودي ، لقد نفذنا صفقات بمبالغ هائلة معه ، وهو على دراية دقيقة بكل ما يدور في المملكة السعودية ويستمع اليه الامراء جيدا .

قال نمور باعصاب باردة :

ــ حسنا يا سيد جيوفري ، صحيح ان السعودي يتمتع بنفوذ كبير ، لكن اذا كنت ملما بالوضع في الشرق الاوسط ، فانك ستعرف انه ليس في مقدوره ان يتمتع بالنفوذ نفسه في ليبيا ، فعلاقات الملك فيصل ليست على ما يرام مع الملك ادريس وليبيا لا تخضع بالمرة لتاثيره . انا فقط من يستطيع ان يقدم لك المملكة الليبية على طبق من فضة .

قال نمور ذلك ، وهو يضرب براحة يده على الملف الاحمر الذي اغلقه سير جيوفري ، ثم استطرد :

ــ لكني انبهك ، ان كل شيء يجب ان يتم بسرعة ؛ انني اعرض عليك العملية وهي ما زالت ساخنة ، ومن المحتمل ان يتغير كل شيء عندما يعلم الليبيون بموت زكي .

ــ بالتاكيد ، انك على حق يا سيد نمور .

واكتسى وجه رجل « الايسكس ميسيل ايركرافت » بمسحة تضجر عندما راح يوجه الاسئلة المعتادة :

ــ حتما انك تريد ان يتم الدفع على حسابك المرقم ، هل تفضل « ليشتنشتن » ام « باهاما » ؟

ــ جنيف ، بكل بساطة ، فمصرف « الانتر ــ اورينتال » يستطيع ان يقدم الضمانة المالية لتنفيذ العملية بكل تاكيد .

ــ هل تعرف ان موت زكي لن يؤثر بشيء على مجرى العملية من حيث دفع السمسرة .

ــ ان الملحوظة المرفقة واضحة ، وهي امام عينيك .

سحب سير جيوفري باستسلام آلة صغيرة حاسبة من

جيبه . ويثوان حسب قيمة الكوميسيون .

ـ انه ٣٧ مليونا ، و ٢٥٤ الف دولار . صح ؟

ـ رد نمور ببرود : صح ..

❋ ❋ ❋

كان ميلوش بانتظاره في مطار اورلي . هبط نمور . كان منتشيا ومحملا بالسيجار والويسكي التي اشتراها من المنطقة الحرة .

ـ ماذا يا سيدي ، هل تم كل شيء ؟

ـ تقريبا ..

طق نمور اصابعه ، انه لا يريد ان « يقول فول : قبل ان يصبح في المكيول » وصلى للعذراء .

وفي الغد ، عرف نمور ، ان الانكليز قد اعتمدوه ، عندما اعلمته جنيف ، هاتفيا بتحويل المبلغ الضخم الى حسابه . لكنه بعد ثمان واربعين ساعة ، هتف من اعماقه شاكرا العناية الالهية ، عندما سمع في الراديو الخبر الذي لا يصدق : مجموعة من الضباط الليبيين ، على راسهم عقيد ثائر ، قد استلمت السلطة وطردت الملك الدمية والخائر القوى ؛ منهية بذلك عهد السنوسيين .

وبعد قليل ، احيط جورج علما بواسطة تلكس ، ان الحكومة الليبية الجديدة المضطلعة بالسلطة ، قد الغت جميع العقود التي ابرمها العهد البائد (١) .

ـ ماذا ستفعل ، سألته جوزيه بنظرة لا تخطىء ؟

(١) في الفاتح من ايلول/سبتمبر/ ١٩٦٩ قاد القذافي الثورة واستلم السلطة في ليبيا ووضع مسؤولي العهد الملكي البائد في السجن .

ـ وماذا تريدين مني ان افعل ؟

ـ لقد الغيت الصفقة ؟

ـ الصفقة ، نعم الغيت ، لكن ليس الكوميسيون ؟

ذهلت جوزيه ، هذا الرجل حتما لن يشيخ مطلقا .

ـ لكن الليبيين ، ماذا ستفعل بهم ؟

ـ الليبيون .. لم يعد هناك من ليبيين .

ضرب نمور بقبضة يده باطن كوعه معبرا بذلك عن حركة تعني : فليبلط الليبيون البحر ! وراح يحلم بصوت عال :

ـ جوزيه ، سرعان ما سيكون السعودي تحت حذائي .

رفعت جوزيه اكتافها ، فتابع جورج قائلا :

ـ اننا اغنياء يا جوزيه ..

ـ انت الغني ، قالت بخشونة .. ثم تابعت بحنان وشفقة : مسكين انت يا جورج انك تلعب بالديناميت ؟

لم يبع الانكليز بضاعتهم ، لكن نمور كان قد كسب الثروة ، واسقط في يد « الايسكس » ، فهي لا تملك اية وسيلة تمكنها من استعادة « كوميسيون » مدفوع على صفقة ملغاة . اما موقعو الطلبية فانهم في زنزاناتهم الان ، ولن يكون في استطاعتهم مطالبة اللبناني الماكر بحصصهم ، فبين ليلة وضحاها اصبح هذا اللبناني مليارديرا . وجورج البسيط والساذج ، يرجع ذلك لفاله الحسن . لكن جوزيه كانت خائفة عليه . كانت قد تعلمت من يوسف ان غلطة واحدة في هذه المهنة ، غالبا ما تؤدي الى الموت .

وعلى امتداد سنوات اربع ، رتع اللبناني ذو العينين

الخضراوين في دفء النعيم ، ويسر الحياة . ان باريس مطروحة امام قدميه ، بنسائها ومتفذلكيها وسذاجتها ومكائدها كان تمور ملك القصور وطاولات الميسر ، ويقتني سيارات « الفيراري » و « الرولز » ، كما يقتني المانيكان والنجوم . اصبح لجورج فندقه الفخم الخاص ، بين الفرش الوثير والجدران المغطاة بالاقمشة الفاخرة ، وصار يدعو الوزراء الى مائدته ، ويقيم الحفلات التي كانت تنتهي دائما بالعربدة ، ويتعانق العشاق ، على ارائكه المشبعة بعسل الجنس وروائحه التي يستنشقها جورج ، تحت انظار جوزيه الطرية المستعدة لغفران كل شيء مسبقا . صارت له علب ليلية ودار ازياء . واسهم في احد المصارف وفي عدة ترسانات حربية :

ـ غدا ، استطيع شراء برج إيفل اذا اردت .

استمعت جوزيه بذهول لهذا التشدق .

فجورج لا يعرف كيف يتصرف بالمال . انه يبخل في بخشيشه للخدم ، في حين يدين المبالغ الضخمة بدون إيصالات لاناس لا يعرفهم ، لا لشيء الا ليبهرهم بثرائه . كان يطلق نقوده امام الاخرين كالالعاب النارية ليقنع نفسه بقوته وعظمته . فلم يكن يشتري مطلقا اقل من خمسين زوجا من الاحذية ، او اقل من ست دستات من القمصان . كان يرتاد المعارض الفخمة ، محاطا بباقة المعجبات ليستشيرهن في لون ربطات عنقه . وفي كل جولاته هذه ، كان ميلوش يتبعه ، واصابعه تداعب باستهتار رزمة من الاوراق النقدية المربوطة بشريط ، فجورج يعلم ان للاوراق النقدية تاثيرا اكبر من تاثير شريط الاصفار المرصوفة على الشيك .

اصبح تمور ، الذي لم يكن يملك شيئا ، يفاخر « بالسيولة الكاملة » ، التي يعوم فيها . ففي حساباته في المصارف من المال اكثر مما في حسابات عائلة روتشيلد . واصبح يختار اللحظة غير المتوقعة ليصدر تعليماته الغريبة . فهو لا يتردد في تنفيذ اية فكرة يظن انها ترفع من شانه في نظر الاخرين . فيفاجىء كبار القوم المدعوين الى مائدته ، بان يقطع غداءه فجاة ويستدعي مدير الفندق .

ـ اتصل بمورغن ، ليشتري ثلاثة مليارات ين عند افتتاح بورصة طوكيو .. افهمت !

ينحني الرجل بطاعة ..

ـ فهمت جيدا يا سيد تمور ..

كان يفاخر دائما بثرائه ، حتى ضاقت به جوزيه مرة وحذرته قائلة :

ـ ستنتهي بابقائنا جميعا في ورطة .

فرد متبجحا :

ـ لن ينال مني احد ، لكانك قد نسيت ميلوش !

وميلوش هذا الذي يعتمد عليه تمور كثيرا ، كان قد شارك في حرب العصابات التي قادها الرئيس اليوغوسلافي تيتو ، حيث تعلم القتال وجها لوجه ، كما تعلم اسرار استخدام السلاح الابيض ، ولم يكن حينها قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره . وانتقل بعدها ، ليخدم في الفيلق الاجنبي ، حيث حاز على رتبة رقيب بعد سنوات خمس ، بفضل اتقانه استخدام الاسلحة الالية .. ثم انتقل بعدها ليعمل كحارس

خاص لـ « تريجيلو » ، وعرف مرارة الخيبة الاولى ، عندما توفي سيده ولم يورثه اي شيء ، فاضطر للعمل في كازينو لبنان . كان عليه ضمان امن وراحة سيده الكبير ، الامر الذي يتطلب القوة والديبلوماسية في نفس الوقت . فقد كان عليه ان يسوي الخلافات سواء بضربة موسى ، او بعدة كلمات لطيفة ناعمة ، حسب شخصية الخصم : كان شريرا دمويا او اميرا غنيا . ولكن لم يكن من السهل في اغلب الاحوال تمييز هذا عن ذاك .

ان جورج تمور ، باستخدامه ميلوش ، ووضعه في المركز الذي يشغله فيه ، قد عمل جيدا ؛ فمجرد وجود ميلوش كان كفيلا بابعاد غير المرغوب فيهم ؛ وكانت لهجته السلافية تضفي عليه مظهر النبلاء . وتدريجيا اصبح وجوده ضروريا بالنسبة لتمور ، الذي لم يعد قادرا على الاستغناء عنه . فواجباته لم تعد محصورة بقيادة سيارة « الرولز » ؛ بل تجاوزتها الى جوانب اخرى . فعندما يكون اللبناني بحاجة لفتاة او لعدة فتيات ؛ يذهب ميلوش لاصطيادهن ؛ فيقطع الحدود محملا بالمال ؛ ويسرع الى شقق العشيقات السابقات يخليها منهن برقة وعنف ، اذا اقتضت الضرورة ، وهن يحاولن التشبث والبقاء . وكان تعلق تمور به يؤمن له راتبا مربحا ، لان ميلوش يخوض في مسائل السلاح التفصيلية التي يتحاشاها تمور . ولكن تمور لا يريد لحارسه استقلالا ماليا كبيرا لذا فقد ادخل الى راسه هوس الروليت والباكاراه حيث كان ميلوش يخسر فيها حتى سرواله . لكنه لم يكن ليهتم كثيرا ، فهناك دوما تمور الذي يدفع عنه شبح الكارثة .

الفصل الخامس

آماليندا .. هذا غير ممكن

ـ جورجي العزيز ، ما الذي جرى؟.. لقد الرت ضجة كبيرة .

موقع فيكتور كولدشتاين ليس هامشيا في حياة جورج تمور . فهو الفنان الذي يملك مقصا ذائع الصيت في عالم الخياطة ؛ تماما كشهرة قمصان تمور السوداء المبقعة بالورد ، والمفتوحة على غابة الشعر الرمادي على صدره حيث تتارجح ايقونته . انه المال الذي جعل من فيكتور ما هو عليه ؛ لذا فهو يكن للبناني شعورا يتعدى مجرد الامتنان . وما يربط بينهما شعور اخوي ترعرع خلال مغامراتهما الليلية ، واعيادهما المشتركة ، حفلات المقامرة المشهورة ، وقضاء عطلة نهاية الاسبوع في الطائرات ذات المحركين بصحبة الفتيات الجميلات .

ـ ما الذي ينقصك ؟

ساله فيكتور مرة اخرى وهو يستعد لتقديم مجموعته

الجديدة ، وفي مرآة الصالون راى الرجلان الدفعة الاولى : باروكات زرقاء ، نظارات بمقابض من جلد لمر ، فراء الزبلين ، والالماس . وفجاة سطعت الاضواء الوهاجة التي خففت من ثرثرة الببغاوات اللواتي تتزين بتلك الروائع .

كان جورج هو الذي ابدع بوضع ديكور تلك المرايا : « فحينما ارى فتياتنا تتجولن هنا ، اشعر وكأني امتلكهن كلهن في آن واحد » .

رد فيكتور بمرح : « لطيف » .

تعارفا ، جورج وفكتور ، في ليلة صيف في نادي « السبورتنغ » في مونتي كارلو ، كانت الساعة الرابعة صباحا ، والفجر يشرق على البحر الذي لا ينظر احد اليه . وعلى طاولة اللعب ، كان آخر رباعي من اللاعبين ، يتناول شطائر الكافيار دونما شهية ، فالخبز له طعم المرورة ، في ذلك الفجر الصيفي الرمادي ، حيث كل الاشياء تفقد وجودها حتى الامل في استعادة الثروة .

— « تسعة ملايين في البانكو » .. زعق مدير اللعب المنهك في تلك الساعة ، انه لا يحسب الا بالفرنكات القديمة .

تامل اللاعبون هرم القطع المرصوفة امام جورج بعيون منهارة وجاحظة . فقبل ساعات كانت هذه نقودهم ، لكن اللبناني بقي يربح طوال السهرة بورقة ثمانية او تسعة ، وكأنه يخرجها من بين اكمامه حيث تلمع الازرار المصلوعة من الاحجار الكريمة .

— « تسعة ملايين في البانكو » .. كرر مدير اللعب

بصوت متعب لا مبال . هيا ايها السادة ، بعض النقود ، بعض النشاط . وكان جورج على اهبة ان يقول « باس » عندما اقترب شاب بقميص مزركش ومغطى بالخواتم وسلاسل العنق وقال :

— بانكو

— البانكو قائم ، قال مدير اللعب .

رفع جورج عينيه الى خصمه وتردد لحظة . لكنه ضم العلواء بقبضته تحت قميصه ، وداعب طويلا علبة التوزيع الخشبية ثم بدا يوزع الورق :

— « تسعة » : قال الشاب ذو الشعر الاحمر ، كاشفا ورقتيه . قلب جورج ورقتيه ببطء ، ثم كشف عن « ثلاثة » واتبعها مباشرة ب « ستة » .

— الى الورق . اشار المعلن ، مدير اللعب .

ولثلاث مرات ، تعادل اللبناني والشاب ذو الشعر الاحمر ، لكن في الدورة الرابعة انقلب الحظ ، تبادل الرجلان نظرة تحد محببة ، فيما اشرأبت اعناق اللاعبين الآخرين المتحلقين حول الطاولة ، بعد ان فقدوا حصتهم في هذه الثروة . كانوا خارج الدورة ، خارج الحلبة ، لكنهم ظلوا مشدودين ، بوجوههم الصفراء الى زوايا الطاولة الخضراء ، حيث تتكدس قطع البانكو الملونة . وبيد انيقة يكسوها الشعر ، اخرج جورج من العلبة الخشبية ورقة ثم ورقة ثانية ، وثالثة .

— « نفذ الورق » ! زعق الرجل الواقف جامدا . جاء

صوته في تلك الساحة الصباحية كأنه لا يعود لشخص محدد وكأنه آت من اللانهاية . « نفد الورق » .

وبوجه قاس ، قلب جورج ورقتيه : «ثلاثة» و «اثنين» المجموع خمسة ، وكان له الخيار اذن في ان يسحب مرة اخرى او ان يمتنع . تطلع الى وجه خصمه ، ولاحظ شبح ابتسامة . هل يسحب ام لا يسحب ؟ سؤال عتيق واجه القادة واللاعبين حيث وجدت اولى ساحات الحروب ، واولى الطاولات الخضراء .

خدعته الابتسامة فلم يسحب ، فخسر تسعة ملايين فرنكا . ولم تهمه الخسارة ، بقدر ما آذاه شعوره بأن الله والحظ قد تخليا عنه . احب جورج هذا التحدي ، واحب هذا الخصم الذي بدا انه يقامر بكل ما لديه ليكسب كل شيء ، صافح أحدهما الآخر كما يتصافح الملاكمون بعد احدى الجولات ، ولاحظ نمور انهما يحبان الشمبانيا نفسها التي شرباها سوية . وكانت الشمس تتوسط السماء عندما تأبط احدهما ذراع الآخر ، وسارا شريدي الليل على طول الساحل . ومنذ ذلك الصباح ارتبط نمور الثري مع ذاك الفتى اليهودي ذي الوجه المنمش التي تتدلى تحته سلاسل عتق وميداليات .

* * *

ـ ما الذي يزعجك يا برعمة حبي القديم ؟ كرر فيكتور قوله مخاطبا نمور للمرة الثالثة ، وهو يمرر بيديه على ردف جوليا التي احتلت منصة العرض لتقديم عرضها الأخير ثوب عروس .

كان جورج يتقبل هذه المداعبات من فيكتور ، لانها تشعره بالدفء . وبالمناسبة كانوا يطلقون عليه هنا لقب « السيد جورج » .

« برعم الحب » هذا ، اعطى حياته معنى التشرد الدائم ، فالنقود التي انهمرت عليه فجأة والبسته ثوب القوة ، جعلت منه متغطرسا أخرق .

كان جورج كتوما بطبعه ، فهو منذ اثني عشرة سنة يخفي عن جوزيه كل ما يتعلق بنزواته النسائية وباعماله ، وجوزيه تعرف كيف تفهم حساباته وضرباته المقامرة في لعب البوكر ، كما تعرف معنى تبجحاته وصمته .

سأله فيكتور :

ـ هل تواجهك متاعب مع جوزيه ؟

رد اللبناني ، وعيناه مشدودتان الى الجسد الملتف بالفستان المتموج الاخضر قائلا :

ـ نعم ، لدي بعض المتاعب مع جوزيه . يجب ان تدبر لي شيئا هذا المساء .

فيكتور اعتاد مثل هذه الامور ، والا لما كان جورج وقع شيكا بـ ٠٠٠،٠٠٥ دولار على حساب مؤسسة مورغان ، ولم يكن ذلك ، وقتها ، مرده حبه للفن والخياطة الراقية ولا لكي يعامل كملياردير .

ـ هل اخترت احدا ؟ سأله فيكتور .

اخذ فيكتور جورج من ذراعه ، وقاده بحركة مسرحية

الى قفص النمور ، حيث كانت دزينة ونصف من الفتيات العاريات ، يعملن على ازالة ماكياجهن امام المرايا ، ولم تلحظ اي منهن الرجل ذي معطف الوبر .

اعتاد فيكتور تقديم فتياته وكانهن لبؤات متوحشات. وكان هذا جزءا من المهنة ، فاشار بابهامه الى جوليا لتقترب: نهدان كبيران يضجان بالحيوية ، تقدمت وهي عارية، تغطي بيديها انوثتها . كانت رائعة بضفيرتيها اللتين تسقطان بتجعد جميل الى خصرها ، وينطلق من عينيها الخضراوتين الايرلنديتين شرر ثورة لا نهاية لها . استخدمها جورج منذ ايام ثلاثة ، بعدما فتنه تموج جسدها ، ولانطباع تخلقه بانها على استعداد دائم لان تلقي بقنبلة بين قدميك .

ـ يا لها من مخلوقة مدمرة . اسر فيكتور في اذن زميله . ولم تكن جوليا بالطبع تعرف من هو السيد جورج ؛ فكان على فيكتور ان يأخذها جانبا ، ويوضح ان لا خيار امامها : خمسمائة دولار ، ذلك امر يثير الاهتمام : اليس كذلك ؟

القت جوليا نظرة طويلة على جورج ، ثم تفرس بعضهما ببعض في صمت ، عبر المرآة . لم تكن هناك حاجة للتكلم او التعارف ، فهو يملك المال وهي تمتلك الشهية . كان عليها ان تقابل بواب « الريتز » في الحادية عشرة لتاخذ منه مفتاح « الغرفة ٢٧ » .

ـ لن تتكلفي ثمن الشمبانيا ، ما عليك سوى فتح علبة الكافيار ، وانت تنتظرينني .

تحدته بنظراتها الزمردية الفاتنة ، وصفعته بكلماتها :

ـ اذا لم يزعجك ذلك فاني افضل « السجق ونبيذ البوجوليه » .

وعاد « نمور » الى الصالون ، ليحتل موقعا مشرفا .

راح ذاك اللبناني يشبع عينيه : اجمل السيقان ، اجساد رشيقة مثيرة ، نهود بارزة .. وارداف مستديرة . استعرضها امامه صديقه وربيبه الخياط فيكتور كولدشتاين، مبررا المخاطرة باستثمار (٥٠٠) الف دولار في عالم الازياء .

انحنت المضيفة عليه ، ببنطلونها الجلدي الاخضر الضيق ، ومن فتحة القميص لاحظ نهدين بارزين ، وقالت : يطلبونك على التلفون يا سيد نمور .

ترك جورج الصالون المعطر ومراياه باسف وبحركة من نفد صبره .

ـ عمل ، ام فتاة ؟

اجاب نمور برفع كتفيه لغمزة فيكتور .

ـ جورج ! اتكلم معك من لندن .

واحس بذاك الصوت الاجش البعيد وكانه لحن كاد ان ينساه . اربع سنوات وهو ينتظرها لم تتصل به ، وها هي الآن .

ـ اماليندا !! هذا غير ممكن ، اجاب .

ـ جورج .. ساكون في باريس بعد ساعتين . لقد قلت لي يوما بانك ستكون لي وقت الحاجة ، انا بحاجة اليك الآن

ادهشت نمور المفاجاة وافرحته ، فاجاب ببلاهة . بان الوعد هو الوعد ؛ وبانه لا يتراجع في كلمته مطلقا .

ـ اعرف ذلك يا جورج .

ـ اعطني رقم الرحلة ، وسيذهب سائقي لانتظارك .

وبحدة جاءه الصوت من الطرف الآخر :

ـ اسمع جيدا يا صغيري جورج . يجب ان لا يعلم بذلك احد في العالم ، هل تسمعني .. لقد حجزت سيارة في مطار اورلي ، سيارة فيات ١٢٧ صفراء ، سانتظرك الساعة الثامنة ، في المنعطف بين شارع السيرك وبوليفار « غابرييل » كن هناك يا جورج ، هل تفهم كل هذا ، تعال بمفردك بدون سائق ، او شاهد ، اطلب منك هذا .

واقفلت اماليندا الهاتف ..

لم يعد اي شيء يهمه . انه يشتهيها منذ اربع سنوات، لم تكن اماليندا مثيرة وجميلة فقط ، كانت ايضا زوجة السعودي كمال عبد الملك رجل مكة ، الذي يجوب العالم بطائرته النفاثة التي حولها الى مهجع لعشيقاته .. وامام السعودي لم يكن نمور سوى هاوي ابهة ، تاجر سلاح ، فلتة من فلتات الثروة ، كان السعودي قد اقض مضجعه ، وكذلك اماليندا . فاذا استطاع مضاجعتها الآن ، فانه سيضرب عصفورين بحجر واحد ، سيكون هذا صفقة بكل معنى الكلمة ، بل اجمل صفقة في حياته .

ـ ماذا يجري ؟ سال فيكتور عندما راى لون وجهه يتغير .

تردد نمور ، فهو متكتم في اشغاله لكنه عاجز عن مسك لسانه عندما يتعلق الامر بحياته الخاصة ، مع ذلك

استطاع هذه المرة السيطرة عليه .

ـ لا شيء ، كما تعلم ، شخص يحتاج لبعض المال ، يريد رؤيتي ، ومع ذلك يجب ان اذهب ..

دخل نمور المصعد الذي تغمره الروائح التي تذكره باسماء عطور يخفق لها القلب : « ديور ، شانيل ، بالمان ، باكورابان ، عالم كامل من الاساطير ، انها اكثر اثارة من روائح البتشولي الشرقية .

ـ انتظر قليلا ، تستطيع البقاء لحظة .

شعر فيكتور باضطراب من لم يبح بكل شيء .

ـ اعذرني ، ساراك فيما بعد .

ـ لكنك طلبت جوليا .

ـ ساراك بعد جوليا .

وقبل ان يدلف الى المصعد ، باح جورج بنصف الحقيقة:

ـ فيكتور انظر الي جيدا ، امامك رجل غني ، أن ما سيحدث هذا المساء هو من الاهمية بمكان كبير ، ساخذ ثاري ، وبعدها ساصبح رجلا قويا .

ـ شيئا ، كاوناسيس ، قال فيكتور وهو يبتسم ، تلك الابتسامة التآمرية ، التي علت وجهه عندما التقيا في مونت كارلو .

ـ افضل من ذلك ، هل تعرف كمال عبد الملك السعودي ؟ بعد قليل سيكون تحت حذائي .

... عاد فيكتور الى فتياته .

* * *

كان ميلوش ينتظر في الاسفل ، مكتوف اليدين ، وعلى باب السيارة الرولز تلقت شجرة النخيل ـ السعيدة الذكر ـ آخر اضواء يوم الخميس في الثالث عشر من الشهر .

ـ لا حاجة لي بك ، قال جورج ، هذا المساء قررت ان اتمشى .

ـ لكن الا تذهب الى السفارة الانكليزية يا معلمي ؟ قال السائق .

ـ سأذهب راجلاً ..

كانت « الفيات ١٢٧ » صفراء ، وكان ليل ١٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٣ قد بدا يخيم على اغصان حديقة الشانزليزيه ، عندما وصل الملياردير اللبناني جورج نمور سيراً على قدميه ، وبدون اية ريبة الى زاوية شارع كابرييل. ومباشرة تعرف على المرأة الوحيدة التي لم يستطع شراءها ، كانت تقبع خلف المقود . اشارت اليه بالصعود ، وركزت نظراتها الخضراء في عينيه .

ـ انك لم تتغير يا صغيري جورج ، قالتها بعينين ذابلتين ، وتركت سبابتها تتحسس رسغ اللبناني . كانت ازرار الاكمام من البلاتين ، والساعة من الذهب الابيض المرصع بالاحجار البراقة .

ـ هل تسير الاعمال على ما يرام يا جورج ؟ هل ترقص جيدا كما كنت دائما ؟ اخذ يدها بحماس ورفعها الى شفتيه.

ـ هل تتذكرين بيروت ، هل تتذكرين «كاف دي روى»، مع ذلك كنت باردة ذلك المساء .

ادارت المفتاح ، وانطلقت بالسيارة الصغيرة في الشانزليزيه .

ـ هل كنت حقيقة باردة يا عزيزي جورج ؟ انني كما تعلم لم اكن حرة في حينها ، كنت لا ازال امرأة مخلصة .

لكن حدثت امور كثيرة بعد ذلك .

اوقف سيارتهما ضوء احمر في ساحة الشانزليزيه .

ـ اتعلم انه يصعب على انكليزية ان تصبح امرأة عربية؟ اللبنانيون يختلفون ، انت تفهم المقصود ، لكن مع هؤلاء الناس ، فالامور يجب ان تبقى في حدودها اذا لم يشأ الانسان وضع الحجاب .

احتضنها جورج بعينيه ، وتنورتها المرفوعة عالياً كشفت اعلى فخذيها وتساءل عما اذا كانت تلبس سروالها ، ولم يستطع منع نفسه من سؤالها .

ـ ابدا ، اجابت ، انني لا البسه حتى عندما يكون الطقس باردا. يجب ان اتنفس من كل مكان. احب ان يلمسها لكنه لم يجرؤ . بعثت آمال فيه احساسا بالشلل . صعب عليه القيام باية حركة في تلك اللحظة ، واحس بانها ستكون في غير محلها .

كانا قد وصلا قرب ساحة « الانفاليد » عندما قال لها :

ـ مع ذلك فانك تخونينه الآن ؟

وبهر عينيه شعاع الخاتم الابيض المزرق ، ذي الـ (٣٦) قيراطا عندما بدلت ذراع السرعة .

ـ لماذا تتناقش يا جورج ؟ انك تعرف كل شيء ، وانت تعلم بانني اعرف انك تعرف كل شيء .

اعتراه شيء من الشحوب ، وبدرت منه حركة تراجع، وقال :

ـ لكن الى اين نذهب ؟

ـ هل انت خائف يا جورج ؟

واعتلت شفتيها ابتسامة بريئة حارة . ثم نظرت اليه بتصميم نظرة الصياد الى طريدته :

ـ اصطحبك الى منزلي في ضاحية « توبي » ، لقد خسرنا اربعة اعوام ، ولن ابقى في باريس سوى هذه الليلة، لك هذا الليل لتمرح فيه كما تحب .

اصاب الدوار رأس اللبناني ، لم تطلب آمال منه سوى ان يأخذها بين ذراعيه في بيتها مباشرة ، وبدون لف ودوران وبدون انتظار .

ـ الا تريدين ان اصطحبك لنتعشى في مكان ما ؟

وضعت يدها بقوة على ساقيه ، فرأى وهج الـ (٣٦) قيراطا :

ـ هذا المساء يا جورج سنتعشى بمفردنا في بيتي ، فليس لدي رغبة في رؤية الناس . ظل السؤال يحيره ، اراد ان يسألها اين وصلت علاقتها بالامير سليمان ، لكنه فضل السكوت فسيفهم كل شيء فيما بعد .

ضباب خفيف يلف شارع « سوسيتي » ، وهدوء « توبي » يدخل القلب ، في نهاية البارك يتوهج بكل ضيائه فندق اماليندا الخاص . وكان مدير الفندق بكسوته وسرواله الفرنسيين ينتظرهما على اولى درجات المدخل .

ـ تستطيع الانصراف يا جوزيف ، لكن هل كل شيء جاهز ؟

ـ نعم ، فالشامبانيا اصبحت باردة ، وهناك الكبد الذي وصلنا من منطقة بريقورد .

ـ هل أشعلت النار ايضا ؟

ـ نعم يا سيدتي ، في الصالة الوردية .

بدا على اللبناني انه في حلم . لكن على كل ، ليس هو السعودي الذي علمها عادات الدوقة هذه .

كان من الصعب ان يصاب نمور بالذهول ، فعلى امتداد سنين طويلة قدم اللبنانيون الشراب للاثرياء القبليين من الكويت والخليج والحجاز ، كما قدموا لهم خدماتهم كسماسرة وصيارفة ، وخدم . كانوا يسوقون سيارات التاكسي التي يستقلونها . بالطبع ، كانوا يضاعفون السعر اربع مرات ، حالما يرون الاشباح النحلة تخفي تحت طيات عباءاتها اكداس الدولارات . وبما ان لعلم المتعة ثمنا ، فان اللبنانيين يجعلون هؤلاء الاثرياء يدفعون برضى .

لكننا الليلة لسنا في بيروت .

عبرت الانكليزية ـ ذات الاسم التركي ، زوجة السعودي ـ الى المصعد المكسو بجلد النمر ، لقد حافظ كمال على وعده ، حين اهداها هذا المنزل الانيق في عيد ميلادها الثامن والعشرين ، وقال لها بلهجة طافحة بالكرم : تستطيعين هنا ان تتدبري شؤونك الصغيرة ، فانا لن اضع قدمي هنا مطلقا .

ـ قليلا من الصبر يا جورج .

قالت آمال ، وهي بالكاد تبعد عنها فم اللبناني الغليظ وهما في المصعد .

وفي الغرفة ، لاحظ نمور سريعا ملاءات السرير الليلكية التي كانت تقليدا لطراز لويس الخامس عشر .

وكأنما حدست آمال افكاره ، فقالت : « سنتعشى

فيما بعد » ، فحاول ضمها مجددا ، لكنها صدته ؛ ومع ذلك فقد اخذت يده وضغطت بها على اسفل بطنها .

ـ تمدد جورج ، وانزع عنك ملابسك ، وانا سادخل الى الحمام .

انطرح اللبناني ؛ عاري الجذع ، ولمعت ميداليــــة العذراء من خلال الشعر الكث الذي يغطي صدره ، فيما كان ينصت الى خرخرة المــاء المطمئنة الآتيــة من الطرف الآخر للباب ، ثم راح يتمم صلاته ، كما يفعل عندما يتهيا لممارسة الحب ؛ عندما أحس فجاة الحديد البارد لفوهة مسدس يلكز صدغه .

ـ قم ايها الوسخ .

وكانت اماليندا تواصل دندنة الاغنية الشائعة «غريب في الليل» ولم يكن هناك افضل من اغنية سيناترا هــذه ، للاحتفال بما يحصل ، وشد نمور بقوة على ميداليته وغمغم :

ـ عاهرة !!

قالها وهو يفكر باماليندا ، التي توقفت عن الغناء . توهج المكان بالضوء الآتي من الجهات الاربع ، من فوق قبة السرير ، وبدا جورج مثــيرا للسخرية ، بلباســه الداخلي الازرق ، وركبة احد الرجلــين في خاصــرته ، ويداه في الاصفاد ، وهو يردد من بين اسنانه « قذرة قحباء » .

امسكته ضــربة قدم قاسية في اسفل ظهره ، كان الرجلان يمسكان راسه من الخلف ، كالملزمة ، لم ينطقــا بحرف ، واكتفيا بالعمل ، بدون نحنحة ، بدون صوت ،

كانما لم تكن لديهما سوى العضلات ، ودفعا نمور الى المصعد ، حيث ما تزال عطور اماليندا عابقة : « ليس لدي سوى ليلة واحدة يا صغيري جورج .. سنتناول عشاءنا بمفردنا » . احس جورج بحاجة لرفع كتفيه ، لكنه وجد نفســه موثقا . اغلق الرجلان خلفه الباب ، فوجد نفســه وحيدا في هذا القفص الانيق النازل بتؤدة الى اعماق لا يشتبه بها .

كان الغولان ينتظرانه في الطابق الثاني تحت الارض . تقدمه احدهما ، فيما سار الآخر خلفه كانهما آلات معدنية . دفعاه الى غرفة ، وصفقا الباب الذي كان مصفحا : كباب خزنة حديدية . وفي الغرفة المضاءة بقضيب واحد مــن النيون ، لم يكن هناك شيء آخر غير سرير كشفي ، وكرسي عليه طبق وزجاجة شمبانيا وقطعة من الكبد ورسالة . فضها جورج وقرا كلمات اماليندا :

« مساء طيب ايها المغفل المسكين ، تعلم في المرة المقبلة ان تهتم بشؤونك » .

* * *

الفصل السادس

الكولونيل ينتظر

لم يكن احد يعمل في السفارات بعد ساعة الشاي . نظر الكولونيل ديسموند الى ساعته .. حقا لقد انتظر سير ديسموند عدة مرات النساء ، اما في ما يختص بالعمل ، فان اقل تأخير يثير عنده رعدا مكتوما .

نادى سكرتيرته الآنسة مكدوغلاس ، الايكوسية ذات الخمسين عاما .

لقد تعرف اليها ايام « العلمين » حين كانت بشبابها الفض ، تعمل كممرضة تحت امرة مونتغمري ، وكان لونها الاشقر وقوامها المشوق يهزان ضباط أركان قيادة الجنرال. ولم يكن ديسموند وقتها سوى ملازم صغير يتطلع الى مستقبله .

وعندما رآها تدخل تنورتها ، هتف في سره « اسمك يا رب ، كم يمضي الوقت سريعا ؟ » لكنه كان دائما يتقن فن

كتمان مشاعره ، تمشيا مع الحكمة الانكليزية « لا تظهر مشاعرك». كان دوما يتصرف هكذا، منذ أيام كلية «أيتون».

سألها بهدوء :

ـ في اية ساعة حددت هذا الموعد يا آنسة دوغلاس ؟

ـ في العاشرة مساء ..

قطب الكولونيل فرانسيس حاجبيه وعاد وارخاهما :

ـ يعتقد هؤلاء الناس ان كل شيء مسموح لهم .

أجابته الآنسة دوغلاس ، التي طالما تجولت في الشرق بصحبة الجيش الانكليزي :

ـ انت تعرف يا سير فرنسيس ، لا أهمية للوقت عند العرب .

وضع الكولونيل جبهته على زجاج النافذة ، كان الغسق الخريفي الساحر يغمر شارع فوبور سانت هونوريه ، وثمة عدة فتيات يتمخطرن على الرصيف . كان مجرد منظرهن بهذه المشية المتثاقلة يكفي فرنسيس ديسموند لان يكفهر . ديسموند ، الكولونيل المدفعي الذي ولد في غابات نيوكاستل، ومنح أوسمة في رمال «طبرق» ، والذي كان عليه ان ينتظر بلوغه الخمسين ليعين ملحقا عسكريا في عاصمة الملذات . كل يوم ، في الساعة ذاتها ، في نفس المظاهرة كن ينصرفن من عملهن من محلات « لانفان » و « هيرميس » او من عند « فيرو » ، رائعات ، يخلفن وراءهن موجة العطر الساحر ، وذلك يكفي ليجف حلق كولونيل انكليزي ، طالما كان مقموعا بأفكار الطهر المنافقة .

استدار الكولونيل قائلا :

ـ عرب أو غير عرب ، فالموعد هو الموعد ، ثم هل اللبناني هو عربي ؟ كان هذا السؤال سيحير اي شخص ، لكن ليس للانسة مكدوغلاس لان هوايتها الاهم كانت الاطلاع على التاريخ المصري وتاريخ الفينيقيين .

ـ اللبنانيون ينحدرون من الفينيقيين ، لكن ما يجري في عروقهم هو بدون شك الدم العربي ، فمنذ زمن الصليبيين ...

وبدون ان يستمع الى تتمة هذا الخطاب ، اللائق بالمتحف البريطاني ، أدار الكولونيل بهدوء رقما في الهاتف، فخلال (٧٢) ساعةً حاول (١٧) مرة الحصول على هذا الرقم الذي يثير لديه الحنين والقشعريرة لكن بدون نتيجة .

وتابعت السكرتيرة تقول :

ـ اعتقد ان السيد جورج نمور الذي هو لبناني مسيحي كاثوليكي ، من الطائفة السريانية سيبقى رغم كل شيء عربيا . واذا كان لديه حس بأهمية الاعمال ، فانه لا يملك اي احساس بأهمية الوقت .

تلقى الكولونيل هذا الدرس بدون تذمر ، فقد سبق لهذا اللبناني وقدم له خدمات جلى ، لقد قدم له مخلوقات شبقات ساعدنه في تحمل عزوبته الباريسية .

كانت الليدي ديسموند المنهمكة في ديفونشاير بأعمالها الخيرة قد راهنت بروح عالية على ترك زوجها يقيم بمفرده في باريس : « انتفع من ذلك يا فرنسيس ، لقد تجاوزت الخمسين ، وبعد عدة سنوات ستبدو لك هذه المسرات

تافهة ، واذا جاءت هي اليك فانك ستكون قد فقدت اللذة نفسها .

لم يمض عليه وقت طويل ليعرف مقدار السخرية والتهكم في كلام زوجته المتحررة .. فلم يأخذ هذا الكلام سوى كتوقيع على بياض لتغطية حياته الباريسية... وبطريقة آلية أدار من جديد رقم الهاتف الذي امتنع عن الجواب .

تذكر السير فرنسيس ما حصل قبل شهر في مطعم مكسيم بين قناني نبيذ الجيفري ، ودوم بيرينون ، حين انتقل النقاش من الاوضاع الدولية الى السفاهات ، كان السير فرنسيس ، الذي تمزقه نزوات منتصف العمر بحاجة الى النصيحة ، ولتقديمها فتح له اللبناني دفتر عناوينه :

ـ لدي الشخص الذي تريده . اتصل به هذا المساء، واطلب جيرالدين .

وحين عاد الملحق العسكري الى مكتبه ارتجف خجلا.. كيف سمح لنفسه بقبول مثل هذه الالفة مع شخص لا أصل ولا نسب له . شخص مغرور ، مجعد الشعر ، تليق به تسمية المهرب .

طلب الآنسة مكدوغلاس ، فهي بالنسبة له ضميره ، وقال :

ـ ما رأيك بنمور هذا ؟ وبالنظرات الماكرة في عينيه الرماديتين ؟

فهمت الآنسة مكدوغلاس ما يعنيه الكولونيل .

ـ يا الهي ، أيها الكولونيل ، اذا أردنا ان نحصل على

أسواق جديدة في الشرق ، فلا يجوز لنا في ان يكون مراسنا صعبا كثيرا ، فهذه الشؤون لا يتولاها الاطفال طيبو القلب . ان مهمة الملحق العسكري لها مكانتها ، لكنها عرضة للمهانة أيضا .

وأضافت بمكر :

ـ لا ينكر انك تستطيع الخلاص من بعض هذه المهانات .

رماها بنظرة باردة متسائلا ..

ـ طبعا ! أيها على سبيل المثال ؟

وبعد أن شجعها سير الحديث ، صممت الآنسة مكدوغلاس على مواصلة كلامها ، فالتمعت عيناها الرماديتان من وراء النظارات ، وقالت :

ـ هل استطيع ان اكون صريحة ايها الكولونيل ؟

وبعد ان أكد لها انه لا يتوقع غير ذلك ، اضافت :

ـ حتما .. لا أخفي عليك ، انني اتساءل ما نفع اللبناني نمور ، وماذا ينفع كل هؤلاء الاثرياء المشبوهين الذين يحتذون جلد التمساح ويفسدون غرفتك بروائحهم الغريبة ؟ ماذا ينفعون ؟

ورأى للحظة جسدا بخصر أهيف ، وردفا ممتلئا ، ونهودا . ربما خطرت جيرالدين ، لكن السكرتيرة واصلت تحقيقها :

ـ نعم ماذا ينفع هؤلاء ؟ لرمي النقود من النافذة : لماذا لا تتعامل مع جنتلمانية ، زملائك الملحقين العسكريين ، تعامل حكومة مع حكومة ؟

لكن الكولونيل لا يكن لزملائه في السفارات الشرقية الا القليل من الاحترام ، اما الحكومات فسؤال السكرتيرة (كي) لا يخلو من المنطق ، وهذه فرصة مؤاتية لتلقينها درسا ، فلكل دوره .

ـ آسف يا (كي) ، فبعد كل هذه السنوات معي في قدس الاقداس ، توجهين مثل هذا السؤال الساذج ؟ ان اعمالنا مع الشرق تصل الى مبالغ طائلة كبيرة جدا ، ولا يمكن التعامل فيها الا من خلال مسيرة معقدة بشكل لا يصدق ، ولا بد من وقود لدوران العجلة ولهذا لوقود اسم ..

ـ بخشيش ، قالت السكرتيرة بحيوية ..

ـ نعم يا آنسة ، فكل شيء يفسره البخشيش كما تقولين ، كل شيء ، بما في ذلك الحرب والسلام . هل تعتقدين ان ليبيا بحاجة ، (وشدد بقوة على كلمة حاجة) لطائراتنا المئة المطاردة ، عندما هبط نمور في بريستول مع طلبية الشراء ؟ هل تعتقدين ان امير ابو ظبي بحاجة لطائرات الميراج لحماية أرض لا تتجاوز سعتها مجموعة طوابعي ؟ تلك الطائرات التي يشتريها بالدزينات من الفرنسيين ، وبعشرة ملايين دولار للواحدة ؟

ـ اذا كان يشتريها ، فهو برغم كل شيء بحاجة لها .. قالت !

ـ يا مسكينتي ، انك تثقلين علي . عندما يقترح الليبيون شراء طائراتنا فان كل ما يملكونه من طيارين هو ستة ، هل يعني هذا شيئا لك ؟ ضعي في رأسك أن الهدف

الوحيد لمعظم السياسيين في الشرق حين يوقعون العقـود الضخمة ، هو تبرير خروج المبالغ الكبيرة التي بين أيديهم . ويكفيهم ان يكسبوا الحسم ـ وهنا تتعقد اللعبة ـ فتحقق حفنة من الامراء وكبار المسؤولين المزيد من الثراء الـذي يضمن لهم مستقبلهم المـالي ، بسبب عـدم الاستقرار السياسي .

انصتت (كي) بانتباه ، وفجأة بدا لها رئيسها جميلا ، فقد اعطته عدته الوردية لونا خاصا .

ـ هل تفهمين الآن يا عزيزتي (كي) ماذا ينفعنا نمور ؟ ماذا ينفع هؤلاء الوسطاء ، الذين بدونهم سنكون عاجزين عن بيع بضائعنا الثمينة للحكومات التي لا تحتاجها حقيقة .

اعتقدت الآنسة مكدوغلاس ،انها تحلم ، اذ لم يحدث ان تصرف معها الكولونيل بهذا الشكل منذ ثلاثين عامـا . وتذكرت بالطبع بأن فرنسيس خاطبها ب « عزيزتي كي » عندما كانا تحت نيران « العلمين » فقط .

واصل حديثه وكأنه يكلم نفسه :

ـ نعم ، بدونهم لن يتحقق شيء . انهم هم الذين يتابعون القضية ، فلهم اراؤهم النافذة . انهم يحسبـون انهم ينظمون ، ويرتبون الاوضاع ، ويوزعون القومسيونات، ويقبضون ويتقاسمون . انهم يقومون بعمل حقير لا يستطيع ملحق عسكري انجازه . واحيانا لهم من القوة اكثر ممـا للحكومات نفسها . هل تعرفين شيئا يا « عزيزتي كي » عن كمال عبد الملك ، السعودي ؟ انه أقوى من فيصل ، أقوى من

نيكسون . انه الارفع سمعة والاكبر في مجال الاعمال . انه يعمل فقط مع الاميركان ، اما نحن فلدينا نمور .

وهنا قالت السكرتيرة :

ـ اللبناني دائما مفيد . اللبنانيون موجودون في كل مكان . انهم يعرفون كيف يستفيدون من الفرص . انهم أظرف من الآخرين .

ـ كآبائهم الفينيقيين كما يبدو لي .

ـ كنت سأقول ذلك !

لبنانيون أم سعوديون . المهم ، من هو الاقوى في المعركة العنيفة لغزو السوق العربي ؟ أهو عميل لندن ام رجل الاميركان ؟ ان هذا الرهان يكفي لتبرير تناول الغداء في (مكسيم) مع اللبناني الذي لا يتكلم الانكليزية بالتأكيد بلهجة اوكسفورد .

ومع ذلك فلديه سيارة رولز .

وهكذا وبدون تردد ، أدار السير فرانسيس ديسموند، الملحق العسكري لصاحبة الجلالة ، رقم جيرالدين .

ان لها سيقان جميلة ، ونهودا عارمة ، وجلدا ناعما ، وعشرين عاما فقط ، ولكنها عشرون عاما من الخبرة . فهي ماكرة ورقيقة ، ولها كل ما يمكنها ان تجعل ابن الخمسين يتعذب ويستسلم لوحده ؟

نمور ؟ قالت عنه جيرالدين « انه مثل عمي . يقدم لي الهدايا ويشتري الفساتين ويسدي الي بالنصائح . انـه رائع . لكن انت ، فالامر يختلف ، انك تثيرني ، فالرغبـة

تتملكني فور رؤيتك » .

أي ملحق عسكري ، أصبح صدغاه رماديتين ، يندفع مختارا لتصديق هذه الكلمات .

استطاعت جيرالدين ، بمؤخرتها المدورة ، المحشورة في بنطال الجينز الضيق ، ان تسحب فرنسيس من المقاهي الفخمة الى غرف الفنادق . لقد دخنا الماريجوانا، وشربا نبيذ البوجوليه ، ومارسا الحب تحت سقيفة . دام هذا العيد اسبوعا بكامله ، وترك بصماته تحت عيني الملحق العسكري دوائر ممتعة . بعدها اختفت جيرالدين ، هاتفها لم يعد يرد .. نمور ، نمور وحده الذي يستطيع ايجادها . الكولونيل بحاجة الى نمور .

– يا آنسة مكدوغلاس . ان هذه القضية على جانب عظيم من الاهمية . ابحثي لي عنه . سيؤمن لنا العسل السعودي . هناك ٨٠٠ مليون دولار تحت المفتاح ، لا يحق لنا ان نتجاهلها . اجلبي لي هذا اللبناني ، وبالقوة اذا اقتضى الامر .

فتحت الآنسة مكدوغلاس عينيها . هل فقد الكولونيل رشده ؟

– بالقوة ؟؟ لكننا لم نعد في العلمين .

قالت ببرود ، وبقي الكولونيل صامتا وهو يتلقى الدوش .

– هذا صحيح ، قال مطأطئا رأسه ، لكن أين نحن بالمناسبة ؟

كان كلام مكدوغلاس كسكين ، لقد أعاد فتح جرح

الامبراطورية الذي لم يلتئم بعد . فقبل اقل من نصف قرن كان لورنس يسيطر على الاردن ، وكان فيليبي يسيطر على السعودية العربية . لكن من يمسك زمام الامور في العام ١٩٧٣ ؟ رجال النفط ، مهندسو « الارامكو » الشاحبون ، اميركيون بلا قلب يضعون الشرق في أدمغتهم الالكترونية ، وينقلون نمطهم الغربي ، بيوتهم الجاهزة المكيفة ، وحشائشهم البلاستيكية ، والبفتاك المجلد الى قلب الصحراء السعودية .

وبقفزة حيوية ، تحدى ديسموند سكرتيرته ، كما لو كان يتحدى اميركا نفسها .

– سأدفع كل ما يجب ، ولمن يجب ، ولن ينال الاميركيون هذه الصفقة . كانت الصفقة كبيرة ، تشييد شبكة دفاع جوي في العربية السعودية ، أقوى من كل ما شيد في الشرق الاوسط ، أجهزة رادار وقواعد اطلاق ودبابات مجهزة بالصواريخ ، دفعة هائلة من الدولارات بالنسبة لانكلترا .

قالت السكرتيرة بتهكم ..

– الاميركيون يملكون مع ذلك أوراقا رابحة .

وقامت ، وهي تظن انها ستضعف معنوياته ، فسلمته النسخة الباريسية لصحيفة « هيرالدتريبيون » ، وعلى احدى صفحاتها ، كانت صورة كمال السعودي ، رجل ملايين الدولارات بشاربيه الرفيعتين ، وهو يضحك بطريقة هوليودية . العقال الاسود ، والكوفية التقليدية تسرح على

وجهه الممتلىء الوسيم . وفي المقال يدور الكلام عـــن ان المياردير السعودي (رجل الرياض) يستعد لتمويل فيلم ضخم حول عملاق بلاده : عبد العزيز بن سعود .

ــ هذا هو الشخص الذي كلمتني عنه ؟

ــ نعم يا آنسة مكدوغلاس ، انه هو ، فاذا كان الآن يقوم بالاعمال السينمائية ، والصحف لا تنتهي من الكلام عنـــه، فأنا أؤكد لك بأنه سيتحطم . انه الوقت المناسب بالنسبة لنا. جدي لي اللبناني ، فالامر في غاية الاهمية .

ادار مرة اخرى ، وهو يحدث سكرتيرته ، رقم تلفون جيرالدين ، وكلمات اللبناني ما زالت تتردد في أذنه .

(قريبا سأجلب الخيرات من الرياض . ان الامـير رشيد هو صديقي . انه يبغض كمالا ، ولكن بما انه يستند الى بعض القبائل البدوية المعادية للعرش ، فان فيصل يحسب له حسابا . ان رشيد هو مقامر كبير . فقـد خسـر ابان الصيف الماضي ستة ملايين دولار ، في ليلة واحدة في نادي سبورتنغ ، في مونت كارلو ، ان له ثأرا يسعى لاخذه .. أتدركين ما اقصد ؟) .

وبدون ان يعتمد الطريق التسلسلي ، طلب السـير فرنسيس مقابلة عاجلة مع مسؤول في وزارة الحربية . فقد حصل لجورج نمور ، الذي يعمل كغطاء لرشيد (أحد اخوان الملك المئة والاربعة والستين) عربونا عن قومسيون يصـل الى ٥٠٠٠٠٠ جنيه ، حتى ولو حـــول المبلغ بالجنيـــه الاسترليني ، فانه يبقى يشكل قيمة جيدة .

كان الكولونيل ينظر الى دليل مواعيده . لقد كان على نمور ان يحضـر في السادسة والنصف . صحيح انه لم يطلب من كل اللبنانيين ان يضبطوا ساعاتهم على « بيغ بن »، لكن هناك نصف مليون من الجنيهات ! أليس لذلك قيمة ؟

ــ انها تقـارب الثامنة ، هـل علي ان اذكرك بأنهـم ينتظرونك في « الترافلرز » ؟

ما زال هاتف جيرالدين عـلى صمته . وعلى الكولونيل ان يذهب الى «الترافلرز» و «الكانستا» ايضا . وضع مفكرته في الخـزنة ، وتنـاول قفازيـه ، والتفت صوب الآنسـة مكدوغلاس قائلا :

ــ أتريدين معرفة شعوري ! اظن ان الرجل قد تعرض لحادث ما .

* * *

الفصل السابع
طائرة السبت

تعرت جوليا فور وصولها ، لقد جاءت قبل الموعد بقليل الى هذا الجو الدافىء ، ليتاح لها بعض الوقت ان تنتشي لوحدها ، مع جسدها الذي تعكس المرايا صوره المثيرة والمتعددة . رنت جوليا الى جسدها ، وتركت يدها تسرح على حلمات ثدييها ، وتداعب بطنها في نفس الوقت ، وفي عينيها يلتمع بريق الشهوة الاخضر . كان أسفها الاكبر ، وهي تعرض مجموعات الازياء، ان لا يكون في مقدورها الجلوس بين النظارة لتتأمل نفسها وهي تتمايل بزي اثر آخر . كان هناك في رجة ردفيها ، وفي بضاضة مؤخرتها ، وفي التوتر المتوثب لنهديها ، ثمة شيء كهربائي يجأر ، تحسه في أعمق أعماقها . وتشتهي للحظة لو انها تستطيع ان تدركه بعيونها، كانت تلك الايرلندية نرسيسية الى حد الجنون . تستسلم أحيانا لمداعبات الآخرين ، رجالا كانوا ام نساء ، وهي تحس انها قربان تضحية قديم . كانت تغمض عينيها عندما يداعبها

أحد ، تغمضهما لتنسى انها ليست وحدها مع نفسها . وكانت جوليا قد أتت على ثلاثة ارباع قنينة نبيذ «البوجوليه»، التي لا تتناسب ومقام السويت الفخم ذي الرقم (٢٧) في فندق « الريتز » .

تسربت اضواء ساحة « الفاندوم » من خلال النافذة المفتوحة مواربة ، مع الاصوات الخافتة في هذه الساعة ، عندما تنام باريس . تمددت ، وذهبت بيدها على ساقيها تتحسسهما بأناملها ، واستندت على مرفقها وهي تقلب صفحات مجلة « البلاي بوي » . وفي هذا الجو الدافىء تناولت كأسا أخرى من « البوجوليه » ، بينما كانت الدقائق تنساب والساعات تمضي .

لم تتوقع ان اللبناني قد لا يوافيها في الموعد المحدد وما الذي يزعجها اذا اتى ، ام لم يأت ؟ بالطبع هناك الـ ٥٠٠ دولار ، ما يعادل راتبها الشهري ، وسيكون هذا مفيدا بالتأكيد . رغم انها ستتحمل ذاك اللبناني ، برائحته ، وشعر صدره ، وبرعمة حبه ، كما يقول فيكتور . اما هي، جوليا ، فلن يشبع رغباتها الا عمال الموانىء ، او سائقو الشاحنات الاشاوس ذوو الوشم ، الذين تفوح منهم رائحة العرق وجبنة « الكامبير » ، اما « النعومة الشرقية » فهذا قليل بالنسبة لها .

كانت جوليا تعرف فتاة على عكسها تماما . فكانت ، عندما يصل الامراء يناديها بواب فندق جورج الخامس ، حيث كانت تتكرر المسرحية نفسها : تبدأ بالتعري على طريقة « الكريزي هورس » ، والعين الوهاجة تتركز على حمالة

الجوارب ، التي يفكون مطاطتها بالابهام والسبابة ، وهم يضحكون ثم يمدون ايديهم ، فتهرب وتلجأ الى الدوش وهي تطلق صيحاتها الصغيرة . وسرعان ما يصلون اليها ، في يدهم قبضة من الصابون . كانوا على ما يبدو ، سادة نظيفين سريعين وكرماء .

لقد ذهبت دلفين في احدى عطل نهاية الاسبوع الى الكويت ، اخذوها مع فتاة اخرى واقلعوا من مطار « البورجيه » في طائرة « ميستير ٢٠ » حولت الى غرفة نوم بمغسلة فخمة وبمرشة ترش عطر الليمون . في الخزانة كان ثمة ثوب عربي ، وحجاب ينبغي وضعه عند النزول . خافت دلفين في المرة الاولى ، فهي تعرف متى تذهب ، لكن من اين لها أن تعرف متى تعود ؟ لكن كل شيء سار كترتيب نوطة موسيقية . الذهاب فجر السبت والعودة فجر الاثنين، والبدل ثلاثة آلاف دولار ، يدفع نصفها عند بدء الرحلة ، والنصف الآخر عند العودة .

وأصبحت طائرة « الميستير » السبتية تؤمن خدمة منتظمة ولم يحدث ان وقعت اية حادثة اختطاف . لقد أصبحت قصة عتيقة، تجارة البيضاوات، ففي يومنا الحالي، فان شهوات العالم اصبحت مبرمجة على الآلات الالكترونية . واذا صدف وكان الامير تعبا في نهاية الاسبوع ، كما يحدث معظم الاحيان ، كما تقول دلفين ، فاننا نقضي الوقت في المسبح ، بانتظار استيقاظه ، ونعود الى باريس باللون البرونزي الجديد . هكذا كان الوضع دائما .

تمطت جوليا بنهديها العاريين ، وتثاءبت وهي تتطلع

الى ساعتها ، فهو مع ذلك ، له الجرأة بأن يتأخر . لكنها لن ترتدي ثيابها بأي حال فملاءات السرير كانت بيضاء وناعمة، لماذا لا تبثها نجواها ؟ .

❊ ❊ ❊

الفصل الثامن
جورج نمور لا يعود

يقوم فندق جورج نمور الخاص بين اوراق شجر بارك مونسو ، حيث يأتي ويغيب يوميا ضجيج الحياة ، كما يتعاقب المد والجزر .

وفي الثالثة صباحا ، يكتسب سكون الليل ، في هذا الركن من باريس ، وقعا ثقيلا عندما يفيق المرء من نومه ، او عندما يدفع الباب عائدا الى بيته .

استفاقت جوزيه للمرة الثالثة ، وكانت قد اعتادت ان تمد يدها الى النصف الآخر الفارغ من الفراش . اما نمور ، بكل مواعيده ، وحفلاته واعياده ، وحلقات مغامراته ونقاشاته الليلية المملة عند « ريجين » ، حيث تنساب الشامبانيا بين أصابعه ، وبسهراته الملتهبة التي تعج بالمعجبات ، نمور هذا ، كان من النادر ان يعود قبل الفجر ، لكنه مع ذلك كان يعود ..

منذ ١٢ عاما ، لم ينم نمور مرة ، قبل ان يختلق عذرا

أو يخطرها بتأخره . كانت هذه طريقته في التعبير عن حبه لجوزيه، شيء من الخوف او ما يماثله، ربما يعود الى طفولته .

لكن في ليلة ١٣ ــ ١٤ ايلول (سبتمبر) لم تعرف جوزيه النوم . كانت تعرف أن بامكانها استدعاء الشرطة فورا . انها لا تعلم شيئا . لكنها تحس انها تعرف كل شيء . فقررت أن تفكر ببرود .

ذهبت الى مكتب جورج الفخم والمزين بأثاث من طراز لويس الخامس عشر . كانت هناك سجادة صغيرة تغطي الموكيت البنية ، وعلى الحائط خلف المكتب ، لوحة على قماش ثمين تمثل الصليبيين . ربما كانت من مخازن غوبلان للاثاث كما يعتقد جورج . وفي زاوية المكتبة ، كان ثمة تمثال للعذراء ، وهي تحمل بين ذراعيها المفتوحتين صورة لجورج نمور بكامل هيئته . وكانت جوزيه ، في كل مرة ترى فيها هذه الصورة ، لا تستطيع ان تمنع الابتسامة عن شفتيها .

فتحت الادراج ، وقع بين يديها البوم للصور . انه البوم مسراتهم ، مونت كارلو ، دوفيل سان موريتز ، كابري ، صورة ثريات هنديات بثياب بيضاء ، موقع عليها بالعربية . صور الجنرالات الافارقة ، تغطيهم اوسمتهم ، صورة لجورج ، وهو يلتمع بزيت يفي وهج الشمس ، خلف مقود سيارته الريفا . لم يخطر مرة ببال جوزيه من قبل ان تشاهد هذه الصور ، انها امرأة خلقت للعمل ، ولا تعنيها ذكريات الماضي .

سقطت صورة من الالبوم ، كنذير شؤم ، تماما كما تسقط ورقة آس البستوني ، خلال لعبة مقامرة . انها

تمثل مشهدا في نيويورك ، أخذ قبل خمس سنوات في « والدروف » ــ وكأنه حدث بالامس . كانت جوزيه ، في الصورة ، الى جانب جورج تدغدغ أذنه بفمها وتقول له :

ــ انك ارعن ... انك لم تتجاوز السبعة عشر عاما ؟

ولم يكن ليفهم شيئا ، بعجرفته وانطلاق نشوته . كان يمص سيكار الهافان بين أصدقائه . وكان هؤلاء مثلــــه ، وبالاخص اثنان منهما . سليمان ، الذي يلقبونه بالتركي ، قوي ومتميز ، وقريب للملك العربية السعودية . والآخر ، يسمونه « الكينغ سايز » ، ليس لانه كبير الحجم وقوي بل لانه الاغنى ، غني بشكل لا يقارن ، ولا يعرف أحد حقيقة من أين جاءت ثروته . وكيف جمعها .

ــ لماذا قلت لي انني كنت ارعن ؟

ــ لانه من البله ان تحاول هذا وسط اناس لهم عشرة أضعاف ثروتك . لقد أصبح من العسير اصلاحك .

ــ أربع وثلاثون وحدة ، انها شيء له اهميته ، أليس كذلك ؟ خصوصا عندما نتوصل الى جمعها من حيث جمعتها انا .. انا لا اضع ملكا في جيبي يا عزيزتي ، هذا كل ما لدي فقط .

و « الوحدة » ، تعني في قاموس جورج مليونا من الدولارات .

ببلاهة ضرب على جبهته وقال لها :

ــ انا اعرف ماذا افعل .. هذا العالم هو ناد ليس الا ،

والدخول اليه لا يتحقق بالتظاهر بالتواضع .

وخلاف ذلك ، لم تحبه جوزيه كثيرا . الخــــــدم الامريكيون ، الخــانعون كالفرنسيين بجــواربهم الحريريــة البيضاء وأحذيتهم الانيقة ، يقدمون الكافيار ، ويد كمــال تنزلق تحت الطاولة بين فخذيها ، يد حارة نشطة . لــم تستطع جوزيه ان تمنع نفسها من ان تضغط ركبتيها . وعند خروجهما قالت لجورج « انه لمتطفل اميرك هــذا لم يتوقف عن مداعبتي اثناء العشاء » .

فرح جورج لذلك وقال :

ــ هذا يبرهن على انك تعجبينهم ، تعرفين ان مراسهم صعب كثيرا . ولا يحبون اية مقاومة ، آمل ان تكوني عرفت كيف تتصرفين .

وبعصبية أجابت جوزيه :

ــ نعم عرفت كيف أتصرف كما تقول . لقد اردت معرفة ماذا يوجد تحت ردائه ! كان حارا جدا !

لم يتسن لها الوقت لتتم كلامها ، اذ انهالت عليهــــا الصفعات في ذلك المساء ، يا له من برهان على الحب . كم كانت طيبة ، وخصوصا فيما بعد عندما ارتمى فوقهـــا ، وهمـــا خارجين في أحـــد ممرات « السنترال بارك » ثـم ضاجعها في السيارة كما حدث في لقائهما الاول .

مع ذلك تملكتها الرغبة في اليوم التالي لرؤية كمال ، ربما كان هذا فضول النساء ، وكانت الحاجة ، وربمـــا لتبرهن عن سطوتها . اتصلت « بالبلازا » كانت شـــقة

السعودي معلقة فوق الاشجار الضخمة « للسنترال بارك ». وما كادت تدخل حتى رأت مؤخرته أولا ، كانت مدهونة بزيت جونسون بيبي الذي يلمع بين يدي المدلكة النحيفة المرتدية رداء الممرضات .

تساءلت جوزيه في سرها ، عما تفعله هنا ، فالاحداث تجاوزت فهمها ، ها هي وقد فغر فمها ، لا تأتي بحركة وهي ترى المشهد .

ــ شامبانيا ؟ سألها السعودي ..

لماذا جاءت الى هنا ؟ ربما لتحصل على شيء ترويه لجورج . لتوقظ احساسه . فيضربها ثم يملكها كما فعل بالامس . ليتوقف عن ايلائها كل هذا الاحترام .

وعندما استدار كمال عبد الملك ، تحت الاصابع المرهفة البارعة لخريجة معهد التدليك الطبي « ببروكلين » ، كانت جوزيه قد اختفت .

* * *

ان اختطاف جورج نمور يوم الخميس ١٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٣ كان يمكن ان يهز الحكومة الفرنسية ، ويحتل صفحات الجرائد الاولى ، لكن المسألة مرت بدون ضجة ..

وفي دائرة المخابرات العامة كان المفوض (راتيه) ، المكلف بمراقبة الاجانب ، جازما في كلامه .

ــ انهم الليبيون ..

لكن معاون مدير المخابرات العامة اظهر تحفظا اكثر .

ولم يكن البوليس الفرنسي ، في كل الاحوال ، يريد اثارة قضية جديدة كقضية « بن بركة » .

ــ هل لديك البرهان ؟

ــ قبل خمس سنوات ، حقق نمور لحساب الانكليز ، صفقة كبيرة مع الحكومة الليبية . في حينه قبض كامل قيمة العمولة : ثروة بكاملها . وفي البلدان العربية لا ينسى الناس بسرعة .

لكن معاون مدير المخابرات قال : أن معظم المسؤولين الليبيين الذين كانوا يحكمون في حينه ، اصبحوا الآن في السجن .

ــ في كل الاحوال هذه المسألة تخص (دي. اس. تي D.S.T.) .

ــ آسف ..؟

كان المفوض « راتيه » قد زار بارك مانسو . واحب عيني جوزيه البنفسجيتين ، أحب مظهرها وهدوءها . واخبرته جوزيه عن التهديدات والمكالمات التلفونية المجهولة المصدر .

ــ سيدتي ، اذا أردت العثور عليه ، فما عليك الا ان تتحركي . بعكس ذلك ، ستحفظ القضية اتفهمين معنى ذلك ؟

رفعت السكرتيرة السابقة لزكي يوسف وجهها ، فهي ليست من النوع الذي يتخلى بسهولة عن اهدافه .

واضاف « راتيه » بعد ذلك ، وهو يشعر بالضيق :

ــ اعذريني ان اقول بأن جثة السيد نمور غالية الثمن .

الجثة !!! انها لم تفكر بهذا ابدا .

ـ يجب العثور على الجثة ، أكد المفوض ، قبـــل المطالبة بالارث . نظرت جوزيه بازدراء الى المفوض وقالت بصوت بارد :

ـ لا تقلق يا سيد راتيه فنحن لم نكن متزوجين .

وفي القسم الجنائي للنيابة العـامة ، فتـح تحقيـق لـ (حبس غير شرعي واحتجاز لشخص) . واما عائلة نمور فقد اعلنت انها ستمنح مليوني دولار لكل من يعثر على المفقود حيا او ميتا . وهذا المبلغ لم يكن يمثل شيئا ، امام المبالغ الضخمة المحجوزة في جنيف ، والتي لا يستطيع اي شخص ان يتسلمها سواه .

لم يثر هذا العرض اي رد فعل ، فلم يكن اي شخص في عالم الصفقات هذا مستعدا للخروج من خندقه . من أجل مليار بائس من الفرنكات القديمة .

* *

الفصل التاسع

الامبرة « مها » وزوجها التركي

كان للاميرة مها مؤخرة جميلة بضة . وفخذان لـم ـسبهما الترهل ، رغم بلوغها الاربعين عاما ، ورغم ما تأكله ـن الحلوى باللوز والفستق والصنوبر التي تلتهمها بشكل الي ، بغية نسيان شيخوختها .

ـ أتؤمنين بالحرب ، يا سمو الاميرة ؟

سألت « تانيا » المدلكة اللبنانية الاميرة ذلك ، وهي ـرك ببراعة بزيت الياسمين منطقة عجزيها ، التي تكتظ ـعة كيلوغرامات من الشحم . فمنذ ان دخلت في خدمة الكات ، والحقت بالاميرة مها تضاءل ندم « تانيا » عـــلى ـدومها واقامتها في البلاد السعودية بعيدا عن دور السينما ـوادي بيروت . لم يكن ابوها الارثوذكسي ، الكاثوليكي ، راضـيا على تركها مهنتهـا في التدليـك الطبي في شـــارع الحمراء ، بحجة الذهاب وتجربة حظها لدى الامراء . لكن « ـا » كانت قد بلغت سن الرشد . في ذلك اليوم البعيد،

قال لها الشاب كمال عبد الملك ، الطالب السعودي الـــذي يدرس في جامعة القاهرة ، بعد ان ضاجعها في فنــــدق « السان جورج » في بيروت :

ـ أنت لست جميلة جدا ، لكن لديك ثروة في أطراف أصابعك .

ويجب القول بأنه كانت لها يد سحرية لم تحصل على الكثير من العلم ، لكن لمساتها العطرية كانت قادرة ان تنفث الحياة في العجينة البشرية ، وان تطحن الرجل والمرأة في لذة ونشوة ، تصل الى أبعد اطراف الجسد كعظم الكتــف والعرقوب ، وتجعلهمـــا يلبيـــان دورهمـــا في سمفونيـــة الاحاسيس . منذ ذلك الوقت كان كمال عبد الملك لاعبا بارعا. وفي الثانية والعشرين من عمره ، كانت له روح ضالعة في المخاطرات . ففي الرياض وبالقرب من خزان المياه ، الذي يعتبر العصب الوحيد في المدينة ، وقد بناه المهندســـون الالمان على شكل نباتات الفطر ، بنى كمال لـ « تانيا » المعهد الاول للتجميل في العربية السعودية . فقبل ذلك بعام ، كان قد صدر مرسوم ملكي باقفال صالون الحلاقة الوحيد للنساء، وذلك اثر اكتشاف أحد الامراء ان احدى زوجاتــه كانت تستخدم ، بالتعاون مع الحلاق ، بابا خلفيا لملاقاة عشيقها ، خلال ثلاث ساعات كانت تدعي انهـــا كانت تقضيهـــا في الصالون .

بينما كان عمل « تانيا » الذي كانت تقبض عليه (١٨٠) دولارا لكل (٨٠) دقيقة ، فوق كل الشبهات كانت الاميرات تقضين أوقاتهن بين هذه الايادي الساحرة ، ويخرجن مــن

صالونها اكثر حيوية واستعدادا للمداعبات . بل أكثر تقبلا للافكار الجديدة .

ـ الحرب يا عزيزتي « تانيا » . أمر متوقع ، قالــت الاميرة بلا مبالاة ، وهي تعلك ، وبطرف لسانها قذفت من فمها السكر الذي يغطي قطعة (الحلقوم) .

ـ اي : صرخت الاميرة بعد ان ضغطت « تانيا » عـلى اخر عصب قطني . فهذه كانت أصعب لحظة ، ولكنها أفضل لحظة ، بل وأكثر اللحظات حسما ، وحول هذا الامر ، تتفق جميع الاميرات فمنذ بعض الوقت وازواجهن يعودون فجرا متعبين ولا يلمسوهن مطلقا . في ايلول ١٩٧٣ ، كان لديهم شيء آخر يشغلهم تماما غير زوجاتهم . فمصاعب العمــل الاداري واليومي ، يجعل الكثير منهم راضين بالتخلي ، كما فعل الملك ، عن الامتياز الذي يمنحه لهم الشرع بالتــزوج من أربع .

ـ لا بد ان الامير سليمان مشغول في هذه الايام ، الا يهمل سموك قليلا ؟

وتحت وطأة السؤال اهتزت «مها» ، واحست «تانيا» تحت اصابعها انتعاش الرغبة الخفيف ، الذي يغطي كل مقدمة ذراع زبونتها . وبدون ان تقصد « تانيا » أصابت مرماها بدقة .

ـ الامير مسافر : أجابت «مها» لتضع حدا للحديث. ولا أعرف متى سيعود .

والحقيقة . انها لا تعرف شيئا مطلقا على الـدوام ،

فكل الاميرات ، سواء كانت ابنته ، او شقيقة الملك ، محكوم عليهن بأكل قطعة الحلوى ، ونتف حواجبهن والثرثرة مع بقية الاميرات اللاتي يأكلن ايضا « القشطة » المخفوقة ، بينما هن محرومات غالبا من العلاقات الجنسية . هذه المخلوقات اللواتي لا يفقهن الحب الكافي يعزين انفسهن بقراءة قصص الحب المصرية ، او بشراء سيول الالماس والفساتين من دور الازياء الراقية في باريس وبيروت وكلها امور تمكنهن من الثرثرة بنزق عدائي في صالونات الرياض .

في البداية ترددت « تانيا » في استغلال فرصتها ، خصوصا وهي بحضور لحم ملكي . لكنها لاحظت سريعا ان الزوجات الخائفات في بلاطات العربية السعودية ، لم يكن منيعات لحظة تدع المدلكة يدها تنزلق هنا وهناك على جسد الاميرة . هذه اللحظة كان السادة في بيروت يسمونها لحظة « الانزلاق » .

كانت الاميرات تنتظر الانزلاق برغبة متحرقة ، لا يمكن اطلاقا الشك فيها ، فتسارع ضربات قلوبهن وتنتفخ شرايين أعناقهن . أغمضت الاميرة «مها» عينيها ، وراحت في نشوة بعيدة !

لم تكن الاميرة من جيل الحريم . ولم تعرف مطلقا جلسات الغزل الجماعية التي كانت في القرن التاسع عشر، مجال اللهو الوحيد المسموح به للنساء في عهد العثمانيين من تركيا حتى أقاصي أكثر المناطق تخلفا في اليمن .

وبدون أوهام حول المشاعر الحقيقية لسليمان ابن تركي فقد حاولت ان تلعب معه في البداية لعبة الحياة

الزوجية . المداعبة باليدين ، الفراش ، القبلات الطويلة على الفم ، السفر الى امريكا واوروبا ، حيث كانت فخورة بالتجول الى جانبه بوجه سافر ، مدركة احيانا التأثير الذي تعكسه لدى الرجال الآخرين ، نظراتها المتوحشة المعبرة عن الثورة وغالبا عن الحزن الدفين . واخيرا سئمت هذه الرحلات ، حيث ان سليمان كان يأخذ كامل حريته في قاعات القصور والكابريهات ، ويدخل في نقاشات ليلية طويلة مع الغربيين الذين يحركون ايديهم ، ويطلبون المزيد من الويسكي ، بينما تمضي هي الساعات الطويلة تلك في غرفتها في فندق « كلاريدج » اللندني او « والدورف » النيويوركي ، في حين يمضي سليمان وقته هكذا ، أو يتابع الشؤون التي لا تفهم منها شيئا ، رغم الدم الذي يجري في عروقها . وبالمناسبة فهي تقدر تكتم زوجها الذي فضل ابعادها عن دسائس البلاط ، أو المفاوضات اليائسة التي يجريها مع الوزراء الاجانب والسفراء الذين لا ترى فيهم سوى سياسيين فظين او موظفين بدون شهامة . لهذا تخلت عن مرافقة سليمان في تنقلاته . فالانتظار أهون عليها من السفر الدائم مع زوجها . لم تعد تسأل حتى عندما يطول غيابه . فهو سفير متجول غائب ، يجوب العالم ، وحاضر بالضرورة لخوض المغامرات . انها تحمل مفاتيح المملكة ، وتعتقد ان المطامع المجنونة لابن تركي تربطه بها مدى الحياة لذلك فهي لم تعد تبالي من هذه الناحية . وعندما غادرت الاميرة ذلك المساء معهد « تانيا » ، شعرت بكامل نشاطها وحيويتها ، معطرة [illegible] . واسفت فجأة لعدم وجود من تمنحه نفسها . وتساءلت اذا كان سليمان سيعود ، فهو قد سافر منذ وقت

طويل . وقبل ان تخرج سوت من وضع الحجاب ، الذي يظهر روعة عينيها ويرسم جمال انفها .

* * *

للمرة الاولى ، تتقيد الطائرة التي تقوم بالرحلة (٦٠٦) الآتية من لندن عن طريق القاهرة ، لاول مرة تتقيد بموعدها المحدد . فقد كانت الساعة تشير الى الثانية عشرة وخمس دقائق ، عندما حطت طائرة « البوينغ » السعودية بلونيها الاخضر والابيض في مطار الرياض .

أغمض سليمان عينيه يتقي وهج الاضواء القوية ، وأحس بعدم الارتياح وهو غارق في بذلته الداكنة ذات الخطوط الرفيعة . كان يبدو وكأنه يخرج من قصر « بكنغهام » ، أو من « داوننغ ستريت » ، وهو يهبط سلم الدرجة الاولى قبل الآخرين ، تتأرجح مظلته المطوية على ذراعه ، وكان ذلك يبدو مضحكا .

كان سليمان معتادا ان يستبدل ملابسه في الطائرة ، بعد ان يغلق باب غرفة الحمام ، يضع عباءته وكوفيته البيضاء ويمشط طويلا لحيته الناعمة . اما في هذه السفرة المضنية ، فان مشاغل اخرى صرفته عن ذلك . لقد طوى ليله متوترا ، يقلب الامر بكل وجوهه : هل عليه ان يبادر ؟ هل يجب التحدث الى الملك فيصل ؟

برغم اعتياد سليمان الطويل على البساط الاحمر ، والمعاملة المتميزة التي يخص بها الامراء ، فقد بقي لا يستسيغ هذه الامور ، وتجاهل تحيات كبار المسؤولين الذين خفوا

لاستقباله ، ودلف في سيارة الكاديلاك حيث كانت تنتظره مع رئيس المراسم قرب الطائرة .

ـ ان صاحب الجلالة يامل رؤيتك في أسرع وقت ممكن .

أتاه صوت رئيس المراسم ناعما ومقلقا ، في حين بدا وجهه الغارق بين ثنيات كوفيته خلف نظارته السوداء خاليا من اي تعبير . كان عطر آمال ما زال في أنف سليمان . ماذا يعرف الملك عن ذلك ؟ هل علم بهذه السرعة ؟

ـ رد سليمان بلهجته العربية قائلا : على كل سأذهب لاستبدل ملابسي قبل ذلك .

ـ جلالته يجب ان يراكم فورا بعد الصلاة . واعتقد انه سيستبقيكم للعشاء .

كان قصر سليمان عبارة عن مكعب أبيض تحف به الجنائن ، لا يتميز بشيء ، اذا ما رؤي من الخارج ، عن البيوت الاخرى لبورجوازيي العاصمة . وصالوناته ، ذات البلاط المرمري ، تتابع بنسق عربي كلاسيكي ، ويرتبط بعضها ببعض بقبب لها شكل القلب المقطوع ، كتلك التي نراها في المساجد .

وكان سليمان في كل مرة يعاود دخول السراي ، يحاول الهرب والذهاب بعيدا . لقد التصقت به اوروبا الى الابد . فكيف يمكنه وهو الذي صنع حديقة سرية ، من رسوم ولوحات جلبها من « الكازاردوسيفي » ، ومن المتاحف الفلورنسية ، ومن « امستردام » ومن « طليطلة » ومن

« موريتزوس » في « لاهاي » ومن « برادو » في « مدريد »، كيف يمكنه تحمل هذا الفراغ ؟ هذا الغياب الكلي عن غمزات العيون ، والايماءات ، والصور ؟ كيف يمكنه تقبل هذه الصورة اليتيمة المعلقة فوق المكتب المبتذل ، التي تمثل قطيعا في الربيع محاطا بالرعاة ؟ في البدء ، كان الغثيان يدهمه ، اما فيما بعد ، بعد ان دخل أجواء العائلة المالكة ، فسرعان ما فهم ، ان التعلق بامراة غير مسلمة امر أهون من ان تكن بعض التقدير للفن الغربي . قطعا ، ليست دماء سعودية تلك التي تسري في عروق الامير سليمان « ومع ذلك فانه يواصل تنعمه بهذه الامتيازات التي أحالت حياته الى نوع من البساط السحري . كانت تأخذه روح الفكاهة الغربية ، فيقول احيانا ممازحا « ان الامير هو زوج الاميرة، انه لاعب ماهر في «البولو»(١) باعتراف الارجنتينيين انفسهم . ومخيف في رحلات الصيد ، وعنوانه معروف من كل لاعبي « الغولف » على امتداد ايرلندا واسكوتلندا ، لا يهزم في « البوكر » كما في أية لعبة مقامرة أخرى ، يتجاوز عمر الشريف في « البريدج » ، عضو في أكثر النوادي خصوصية في اوروبا ، من « الوايتس » في لندن ، الى « الجوكي » في باريس الى « التونتي وان » في نيويورك ، و « النسر » في جستاد .. انه أيضا عضو يتمتع بكامل حقوق الالتزام في جمعيات الاخوان المسلمين المحافظة جدا ، كجمعية « اتباع عبد الوهاب » .

---

(١) لعبة رياضية تمارس على متون الخيل بمضارب طويلة وكرة خشبية .

في شبابه ، جمع سليمان عدة دبلومات ، فقد حاز على الماجستير في كلية الاعمال في « هارفرد » ، بعد أن كان قد حصل على دكتوراه في الشريعة الاسلامية من الازهر، أكبر الجامعات العربية في القاهرة .

وذات يوم ، قال له فيصل ، قبل أن يصبح ملكا :

ـ سليمان ! يجب ان يكون بجانبي رجل يجمع بين الثقافتين ، ثقافة المشركين وثقافتنا ، رجل يتكلم لغتهم دون ان ينسى لغة الرسول . ولا يوجد غيرك يا سليمان .

وقتذاك كانت العربية السعودية غارقة في النسيان والفساد ، حينما قاد فيصل انقلابا أخرج السعودية من ظلمات القرون الوسطى ، ورفع سليمان الى مرتبته الحالية وزوجه من أخته . هذه الاشياء تحدث في الشرق بعيدا عن الحب .

كانت أم سليمان أميرة شركسية تنتمي الى حريم الباب العالي ، عندما انهارت الامبراطورية العثمانية وهي حامل بسليمان . وتفرق الحريم ، وكان عمر الشركسية (٤٠) عاما، فلجأت الى بغداد حيث تزوجها أحد ابناء اخ ابن سعود ، واعترف بأبوته للطفل الصغير ذي العينين الزرقاوين .

* * *

ـ ابراهيم !

تردد صوت سليمان في القبب الرنانة .

وعلى السجادة ، كان ابراهيم نائما كالقطة . ركله سليمان في مؤخرته بلطف ليوقظه ، وبارتباك نهض الخادم

معتذرا وهو يفرك عينيه .

ـ سيدي .. سيدي .. سيدي المحبوب .. أنت هنا وانا نائم ، ليباركك الله وليغفر لي !

تلك كانت عادة سليمان ، كلما عاد من اوروبا ، يستعجل ابراهيم وكذلك يكون في عجالة غريبة من أمره ، وتثقله هموم غريبة .

ـ هلم اسرع ، يجب ان استبدل ملابسي . يجب أن اذهب للبلاط . قل للاميرة ان جلالته ينتظرني ، وسأراها غدا ..

يرتبط جناح الامير سليمان بجناح الاميرة مها ، بممر صيق لم يعبره منذ سنتين على الاقل ، رغم ان ذلك لم يمنعهما من العيش سوية بتفهم جيد . وفي السراي ، التي تعرف مها كل دهاليزها ، طالما واجهت مها زوجها الذي كانت تعرف مطامحه . عرفت كيف تحذره من هذا الاخ او ابن العم او ذاك ، من صهر أو من أخ بعيد ، من اولئك الذين كانوا يتضايقون من الامتيازات العظيمة التي يتمتع بها هذا الغريب الذي يسمونه بالتركي ..

ـ يا سمو الامير . ان سموها تقول بأن الامير رشيد يرجو مقابلتك ، لقد نقل ذلك أمين سر سليمان ، الذي يضع الكوفية بمربعاتها الحمراء والبيضاء التي يرتديها الرجال في الشرق .

ـ قل له انني لم أرجع بعد .

ـ ألا تخشى سموك ان يكون الامير قد عرف بعودتك ؟

ـ وليعرف .. هذا محتمل . لكن لا شيء يرغمني على ان اعلمه انا !

وبنظرات متعبة قال أمين السر :

ـ انت تعلم ان الملك قد قابل الامير عدة مرات مؤخرا.

ان ردود فعل سليمان التركي كانت مستوحاة من اعتياده على دسائس رشيد الذي يعمل كتلك الصراصير التي أصبحت جزءا من الديكور . اغمض التركي عينيه وتساءل عما تفعله آمال في هذه اللحظة بالذات ؟

* * *

الفصل العاشر

لقاء مع فيصل

لقد قذف بالزهر ، ولا أحد يعرف ماذا سيحدث ؟
ملايين الرجال في لندن ، نيويورك ، باريس او طوكيو ، يسرعون كالعادة في سياراتهم ، اغنياء أقوياء منتشين واثقين من أنفسهم ، تغطيهم بوالص التأمين ، مصنعين حتى اعماق قلوبهم ، حتى اطراف اظافرهم ، لكنهم لا يعرفون شيئا عما سيجري . لم يروا بعد الهوة السحيقة التي ستنفتح تحت أقدامهم . لم يفهموا بعد ان ثأرا عظيما يتم التحضير لـه ، ثأر الرجال المسربلين ببدلات الاشباح ، ثأر رجال المشرق .

وكانت العربية السعودية ، من البحـر الاحمر الى سواحل الخليج العربي المترامية بطراوة ، تتوهج بلفحات أواخر الصيف الحارة .

* * *

عندما تعدت « كاديلاك » سليمان حواجز القصـر الملكي الجديد ، بدا وكأنه شيئا لم يتبدل . التحية مـن الحراس النعسين انفسهم ، أشجار الجميز نفسها . اشجار الكالبتوس ، روائح الياسمين والمسك كلها نفسها . والنباتات

الخضراء ونافورات الماء التي تذكرنا أنها احتاجت الى ربع قرن لتتحول من نار الصحراء الى ما هي عليه الآن . كلهـا كانت نفسها .

بدا سليمان ضخما بعباءته المراسيمية ، وهو يرفع بحركة متكبرة الغطاء النازل على وجهه . دخل بخطوة واثقة الى القاعة المخملية الفخمة ، حيث يبعث الهواء المكيف بردا غير عادي . توجه الى قاعة العرش ، لم يعكر الصمت الرهيب سوى وشوشات تجمعات صغيرة من الرجال كانت تنتظـر بلباسها الابيض ساعة الاقتراب من الملك .

احس سليمان برجفة .

ماذا يجمعه بهؤلاء البـــدو الذين اصبحوا يجالسون الامراء . الكتبة والاداريون ملوك الصحراء الذين سيعودون بعد قليل الى خيامهم .

انهم من كل مكان . من حدود اليمن المحرقة . مـن جبال السعودية المخضوضرة من هضبات الحجـاز . مـن الساحل الشرقي .. وحتى من الربع الخالي .

قبل أقل من ٢٤ ساعة كان في لندن .

تقدم سليمان ووقف أمام فيصل ..

لامس بشفتيه الكتف الايمن ، ثم الكتف الايسر الذي ضمه اليه .

كان الملك وقورا . الصوفية بادية في عينيه الحارقتين المتوجهتين نحو السماء ، بينما يلتوي أنفه بحزن مؤثر لامور الارض ، وكأنه يستنشقها باضطرار متقزز .

كانت يده اليمنى تمسك بسبحة من الاحجار السوداء .

وفي أكمام سليمان ، كانت تلتمع ماستان . وكـان رداؤه اللندني الصنع ، من الحرير العاجي ، يدل على اناقة دنيوية اين منها عباءة الملك البنية البسيطة ؟ ولكن الحمد لله ، فالملك فيصل لم يكن يلتفت لهذه التفاصيل .

ـ أذن يا حضرة السفير ؟

لم يكن هذا التبجيل اعتياديا . رفع سليمان عينيه . اجلسه فيصل قريبا منه على مقعد قاس قليلا . ادار أشرف السوداني القهوة في فنجان البرسلان الصغير ، تلك القهوة المرة المعطرة بالهال . لم يكن سليمان ، ولاول مرة ، في راحة تامة .

قال سليمان :

ـ ليس لدينا شيء كثير ننتظره من الانكليز .

كان صمت فيصل معروفا ، يعرف كيف يستمع ويأخذ وقته ، اما اليوم فهو الذي سيتكلم .

ـ يا حضرة السفير ، يجب أن لا تستغرب أكثر مني من لامبالاة الانكليز . ان لامبالاة الامريكان ليست أقل من ذلك . الحقيقة يجب ان لا ننتظر شيئا من احـد . كنـت دائما تستضعف بعض الشيء حكومة لندن ، اما هي استطيع ان أؤكد لك ، بأنها لا تستضعفك اطلاقا .

تلقى سليمان الضربة بدون بادرة اعتراض . اذ ان فيصل كان يعرف كل شيء دائما وبشكل عجيب ، وفجـأة رمى الملك صهره بنظرة ثاقبة وقال بحرارة مفاجئة :

ـ سليمان ، اني اتسامح كثيرا ، خلافا لما تعتقده ، بالنسبة لشؤون الحياة الخاصة . فان كنت امنع نفسي

منها ، فهذا لا يعني انني احكم عليها وادينها عند الآخرين . لا اود سوى اعلامك بأننا ندخل في مرحلة تحتم ان تخدم هذه الالعاب مخططاتنا وليس العكس .

كان فيصل مدهشا دائما ، فرغم حياته المثاليـة البسيطة ، كان يجد الاعذار للآخرين . وكانت لديه رغبة خاصة لان تكون حياة سليمان مريحة ، وذلك لثقافتـه الشاملة : اكسفورد والقرآن ، نيتشه وانزيو ولمقدرته في تبديل ثقافته وبقائه كما هو .

كان سليمان يعرف بعض اوجه مخطط فيصل . فالملك المسن يريد ان يكون موحد كلمة الاسلام وزعيمه الـروحي فحين يقول : « أريد الصلاة في القدس قبل ان اموت » فهو لا يوضح سوى جانبا من افكاره ، فاسرائيل تشكل بالتأكيد الهدف والمخرج الاقوى للوحدة العربية . ولكن ما يشغلـه حقيقة هو ليس اسرائيل فقط ، فاسرائيل لم تهدد اسس الامبراطورية السعودية في اي وقت . بالعكس ، ان مطامح اخرى منافسة لمطامحه تنهض عبر الشرق ، وهي مطـامح يمكنها في يوم ما ان تنازع ورثته للرمال ، الموروثة ايضا عن عبد العزيز بن سعود .

كان لفيصل جلساء كثيرون . اشقاء وانصاف اشقاء ، لم يكن يحبهم جميعا ، لكنه كان يحب سليمان . انه يحب الوحدة خلال وجبات الطعام او بعد الصلاة . كان ذا طبيعة متكتمة ، ومع هذا فقد كان يقطع قراءته للقرآن ليبـوح لصهره بالافكار التي توصل اليها في تأملاته ووحدانيته :

ـ جاءت اللحظة يا سليمان لايقاظ العرب ، كل العرب .

يجب ان تكون هذه النهضة ، حية ، يجب ، ولمرة واحدة الارتفاع بالعرب فوق نظراتهم القدرية .

لم يستطع السفير ابعاد نظراته عن هذا الوجه الذي حفرته التجاعيد ، المعبر عن المعاناة اكثر منه عن الثقة .

ــ ان مهمتنا عظيمة ، ولكي نتخلص من وصاية الغرب الطويلة ، يجب ان نحصل على اسلحة الغرب ، يجب ان نشتري مصائدهم وان لا نقع فيها . نحتاج الى طائرات وصواريخ ورادارات ومعامل ومهندسين وطيارين . نحتاج الى التكنيك والعلم ، ويجب أن نحصل على كل ذلك ، بدون ان نفقد انفسنا ، وان نتخلى عن رفضنا للانهيار المعنوي والروحي ، الذي نراه يضغط بكابوسه الاسود على حضارات التقدم . ان اللحظة قد حلت يا سليمان .

لم يطرح التركي الاسئلة ، فهو لا يعرف بعد ما قرره الملك ، لكنه صار يعتقد ان ثمة قرارا خطيرا لا رجعة عنه .

في الاسبوع الماضي ، ترك فيصل البلاط وذهب الى الصحراء في نجد . قضى وحيدا ثلاث ليال في الخيمة . ينام على الارض ، ويلتحف بغطاء بسيط كبدوي تماما . فمنذ ان اصبح الحاكم المطلق للسعودية منذ تسع سنوات ، وهو يمارس هذه العادة . ففي الصحراء تحت النجوم ، بعيدا عن ضغوط المستشارية ، وطفيليي القصر . كان يفكر بالشؤون العامة . والآن بدا فيصل يكشف اوراقه ، الواحدة تلو الاخرى . لقد اختار سليمان ليشهد أولا على خططه . لانه يعتقد بواقعيته .

ــ اننا بلد شاب وقديم . (٤١) عاما بالضبط مضت

بعد ان وجد والدي المملكة . في الرابعة والعشرين كنت وزيرا الخارجية . لقد تنقلت في العالم بالقدر الذي تنقلت به انت تقريبا يا سليمان ، وانني مثلك اقدر ماهية الطريق الذي امامنا ، للخروج من حالة القرون الوسطى ، كما انني اعلم بأي تطور متسرع . اننا بحاجة للغرب ، لكنني اعلم بأن وجودنا وكل مزايانا الجوهرية ستندثر ، اذا ما القينا انفسنا دون حذر في القرن العشرين . ولن يبقى شيء من هذه المملكة ، حيث لا يوجد شيء ، سوى التقرب من الله والاخلاص اكثر من الآخرين لاحكام الرسول (صلعم). يجب ان نتقدم ولكن بحذر . يجب ان تبقى السعودية ارض العطش، محمية بطبيعتها ذاتها عن ترف العصر ، ويجب أن لا يكون للاجانب من رغبة فيها بعد انهاء مهمتهم الا الهرب . لا تنس انهم يسمونني الفيصل ، فيصل العرب .

هزت سليمان ، الذي لم يكن هو نفسه عربيا ، موجة حرارة . انه يحب فيصل ، يحب نظراته الكئيبة ولحيته السمراء الرمادية ، وعقاله الذهبي المزدوج المقصب .

ــ لست اسير الاوهام ، فانا اعرف الامراء اشقائي ، واعرف حقاراتهم . اعرف ان الويسكي يفيض في الليل في قصورهم ، اعرف عربداتهم وخياناتهم ورغبتهم في الترف وحبهم للفائدة . اعلم انني اضاعف مسراتهم اذا منعتهم . لكن هذا غير مهم . فالمهم هو الملاحظة جيدا بين صخور التعصب الاعمى لدى المؤمنين ، وفلسفة العلماء المتاخرة ، وانانية القبائل الشديدة ، وقلة صبر الضباط المصريين . لم يمض على منع الرق في هذا البلد سوى (١٢) عاما ، وستة

أعوام على موافقتي ادخال التلفزيون . اذن أنت ترى جيدا انه لا يمكن السير سريعا جدا . لا بد من وقت طويل طويل . ان الاجانب المرسلين الى هنا يحسون بالندم ، والعزلة عن عاداتهم ونسائهم وكحولهم ، ويستعجلون العودة الى ديارهم، التي ما ان يصلوها حتى يشعروا بهذا الشيء الغريب المجهول ، الذي هو مصدر قوتنا وسر وجودنا .

الصوت يتصاعد في المدينة ، يتردد من منارة لاخرى، انه صوت المؤذن . ويسقط الليل الحالك على « المزار » ، وتحمل نسمة دافئة الى نوافذ البلاط رائحة نبات تين الفرعون . نهض سليمان لينصرف ، لكن فيصل اشار عليه بالبقاء وقال له :

— سأحتاج اليك .

أخذ التركي مكانه مجددا .

— في الايام المقبلة سنضرب ضربتنا . أنت تعلم خيرا من غيرك انني رفضت دائما ، ورغم نصائح كل المحيطين بي ، او نصائح بعض الاميركيين ، رفضت استخدام البترول. ان البترول هو هبة العناية الالهية . فهو ليس بسلاح ، ولكنني اليوم لا أملك خيارا آخر .

وفجأة قدر سليمان ضخامة ما يخططه الملك .

— هل تفكر بالمقاطعة ؟

— نعم كبداية ، ان كل العرب سيقفون الى جانبي .

— هل تعتقد ان الاميركيين سيسمحون لنا ان نقوم بذلك ؟

— هم ايضا لن يملكوا الخيار . واذا حاولوا التدخل، فالقرار الذي سنضعه حيز التنفيذ هو نسف كل منشآتنا خلال دقائق .

وصار صوت فيصل قاسيا .

— سننسف كل شيء اذا لزم الامر . سنخسر كل شيء . سنعود الى الصحراء لكننا سننقذ شرف العرب .

في الصيف الماضي ذهب الملك الى واشنطن ، وتكلم في التلفزيون الاميركي ، وللمرة الاولى أثار مسألة التهديد النفطي . قابل نيكسون ، ووعده نيكسون بكبح جماح الاسرائيليين .

— نيكسون سخر مني واطاع الصهاينة .

اليوم يغوص في الفضيحة ، وانا استطيع مساعدته، الا ان اعمل شيئا من اجله . وبعد ثلاثة اسابيع ، سيحارب المصريون والسوريون لطرد اليهود من الاراضي المغتصبة . لن نحارب معهم ، لكننا بطائراتنا ونفطنا واموالنا سنكون معهم .

كان واجب سليمان البحث عن الحلفاء في اوروبا الغربية وغيرها . كان عليه ان يرفع بأسرع ما يمكن القدرة العسكرية للعربية السعودية .

— احتاج لاحدث ما هو موجود . كيف حال صديقك كمال عبد الملك وكيف اعماله ؟ نطق فيصل اسم كمال بطرف شفتيه ، فهو يأخذ عليه حياته الخاصة ، ملذاته وبذخه وقماره ونسائه وطرقه الاميركية وثروته الضخمة وتواطؤه مع بعض الامراء بالدم والذين جعلهم شركاءه .

— اعتقد ان كمال عبد الملك يمر بمصاعب ، الاميركان

يؤخرون الامور . لكنه الوحيد القادر على مساندتك. الوحيد الذي يعرف كيف يكسب ثقتهم المطلقة .

— الوحيد حقا .. أتعتقد ذلك ؟

قالها فيصل بسخرية معينة ، فهو يملك بين يديه أوراقا اخرى .

— نعم الوحيد ، كرر سليمان مشددا . فهو منذ عشرين عاما يتعامل مع اميركا وله معارف في كل مكان . ونفوذه مثير . لا اعتقد اننا نستطيع الاعتماد على غيره كما الاعتماد عليه .

لم يصر الملك ، فهو يعرف قيمة الآخرين ، قيمة الوسطاء العفنين ، المحترفين في الشرق من السوريين واللبنانيين . فأصل كمال معروف على الاقل : فاسد ، وربما يسيطر عليه الشيطان بدون شك ، ولكن مهما يكن ، فكمال عبد الملك ابن مكة رغم كل شيء .

— كمال عبد الملك هو ألمع رعاياك ، وما فعله لجلالتك منذ العام ١٩٦٧ يستحق الاحترام والتقدير .

ضم الملك سبحته بين راحتيه وقال بروح مرحة :

— وما عمله لنفسه ، ليس بالشيء البسيط .

كان بامكان فيصل ان يوحي بأن سليمان ذاته ، قد وجد أيضا حسابه في المعاملات الضخمة لرجل الاعمال السعودي . لكن الحكمة الموروثة لاجداده البدو ، وتعلمه بأن فن معرفة الرجال هو أيضا في تركهم يجهلون ما تعرفه عنهم .

عاد التركي فقال :

— اعطه توقيعا على بياض . فلا يوجد شخص افضل من كمال عبد الملك يستطيع ان يحصل من الاميركان على ما يريده . فهو الاكثر تأثيرا على البنتاغون ووزارة الخارجية ، في طيران كاليفورنيا ، ولدى وويستروب ، في كل مكان .

لم يستغرب الملك ، فقوائم مجهزي السلاح الاميريكي صارت مالوفة لديه . ورغم استسلامه لمشيئة الله ، الا انه يقدر التكنولوجيا ونجاحاتها . فمنذ وقت لم تعد السعودية ترضى بالتلويح بالسيوف . ففيصل ، الذي يرى صعود نفوذ شاه ايران في الشمال ، ويخشى في الجنوب من العدوى الشيوعية من جانب ثوار اليمن ، غارق الى الاعماق في سباق التسلح . وهذا أمر مرتبط بشرفه ورجولته التي لا يملك لوصفها سوى كلمة واحدة « المروءة » .

— وماذا عن الفرنسيين ؟ « سأل فيصل » ، ان لعبنا ورقة الفرنسيين فان الاميركان سيستفيقون .

— انني أعرف مودة جلالتكم للفرنسيين .

— نحن مدينون لديغول . ثم ، ألا يقال بأن الفرنسيين متقدمون اليوم في مسائل التجهيزات العسكرية ؟

— ان الفرنسيين لا يثيرون اية مشكلة . لكن هذا النوع من المسائل لا يثار بين حكومة وحكومة ، فالقطيعة ستكون فاضحة اذا حدث سوء تفاهم ما .

انخفض جفن الملك ، شارة للقبول والتعب . ماذا يعرف ؟ فقبل يوم اختطف ، في قلب باريس ، اللبناني نمور احد عملاء الامير رشيد . هذه الحوادث المختلفة تعقد الامور بدل أن تحلها .

لم تشجع نظرات الملك الغامضة سليمان على التقدم أكثر في طريق الفرضيات .

فكر سليمان بأن بين المحيطين بجلالته ، هؤلاء المتخاصمين والامراء ، يمكن للخيانة ان تحفر مجراها كما ينحفر خط الحياة بيد الانسان . ان معظم الوزراء وكبار المسؤولين كانوا من الاطفال ، اعترف بهم ابن سعود كأشقاء او نصف اشقاء لجلالته ، وانهم نالوا عن طريق رابطة الدم تلك الامتيازات التي تسمح لهم اليوم بممارسة جزء من السلطة ، سواء خارج البلاد او داخلها . لكن ايا منهم لم يكن له من يد على العوائد النفطية ، عدا رئيس السلالة الذي يوزع حسب رغبته . في حين يسمح لهم ، ذلك الجزء من السلطة الذي يحتفظون به ، بتوجيه مجموعة كبيرة من المريدين المؤتمنين والوسطاء الذين يعرفون كيف يمارسون شكرهم وولاءهم .

هل كان فيصل يعلم كم من الدسائس كانت تحاك وتخطط وراء ظهره ، وبأنه كان بدون ان يدري حامي هذه الالعاب ؟ ربما كان يعلم ، وربما كان ايضا يفضل ، باسم المصلحة العامة ترك الرجال يدبرون شؤونهم بطرقهم الخاصة .

ان كلمة الخيانة ترن تحت قباب البلاط ، حيث ينحل في ظلال فوانيس الليل ، دخان البخور الازرق المتصاعد . لن يبوح الملك فيصل بأكثر مما قال .

نظر الى صهره نظرات متسامحة هادئة ، واكتفى بأن جدد له ضمنا ثقته .

هذه الحكايات ، هي من اختصاصك يا حضرة السمو . ان ما يهم منذ الآن وصاعدا ، بالنسبة للسعودية ، هو تنويع صداقاتها . اننا ندخل مرحلة جديدة في حياتنا ، اوروبا ، حيث لا نستطيع الاعتماد بعد ذلك على الولايات المتحدة . لهذا يجب عمل كل شيء منذ الآن لنضمن دعم اوروبا . وقبل كل شيء دعم الفرنسيين .

حل الليل منذ عدة ساعات ، وهز صوت المؤذن المنارات منذ فترة . قام الرجال بوضوئهم الاخير ، وسجدوا المرة الخامسة في اليوم ، وهم يلصقون جباههم الى الارض باتجاه الكعبة ، في هذه الساعة كانت تهز سماء الرياض اسماء الالهة الجديدة : سايمنز ، تويوتا ، مرسيدس ، واسماء اخرى تكتب بأحرف من نار تحديها للمسلمين .

ابتعدت « كاديلاك » السفير المتجول عن البلاط ، الذي يحيط اروقته ونوافذه النقوش العربية المضاءة بآلاف المصابيح البيضاء والحمراء ، في حين هزت نسمة دافئة العلم الاخضر الذي يتقاطع فيه السيفان معبرين عن عزة وباس السلالة .

* * *

الفصل الحادي عشر

في خطى ابيه

تصاعد من مصباح الزيت عمود دخان رفيع ، ومع هذا فقد كان السقف قليل الاتساخ .

ورغم أن الضوء لم يكن ساطعا ، الا انه كان كافيا للدكتور سمير عبد الملك لكي يقرأ ، دون استعمال نظارته ، الصحف التي ترده من نيويورك بعد اسابيع من صدورها .

منذ ثلاثين عاما وهو مشترك في مجلة « لانسيت » وفي « المجلة الطبية البريطانية » فهو يفضل المجلات العلمية والطبية على الغرق في خضم صحف الاحداث اليومية .

تراقصت على الحائط ظلال ثلاثة ، واحد كبير واثنان صغيران . كان الوقت يتجاوز الثالثة صباحا بقليل ، بدأ الفجر يتشكل والشمس ستستيقظ بعد قليل .

– الله اكبر الله اكبر
اشهد ان لا اله الا الله
وان محمدا رسول الله .

ردد صوت الدكتور عبد الملك الجهوري ، أربع مرات ، اولاده لازمة الاذان الاولى ، فرددا وراءه بهمس كما يستجيب صدى الجدول الواهي لهدير السيل . كانا يريدان لو يتركان للنوم مرة اخرى : كان على الدكتور ، كالعادة ، ان يسحبهما من السرير ، وهما يغطان في نومهما العميق ، وهذا ما كان يحز دوما في قلبه . ولكن كيف له أن يواجه الملك غدا ، اذا لم يكن قد ادى الصلاة ، ودفع اولاده لاداء الصلوات الخمس ؟

توضا عبد الملك ، الذي كان يبلغ الثالثة عشرة من عمره - بمفرده ، اما كمال ، الذي أكمل لتوه التاسعة ، فكان [illegible] يتخشب ، كقط كبير تكسوه اهداب طويلة سوداء ، وهو يمرغ رأسه في وسادته . فكان على والده ان يمسح له يديه بقطعة اسفنج مبللة ماء دافىء ، ويدفعه الى المضمضة واستنشاق الماء بمنخريه ، ثم يمرر اصابعه المبلولة في شعره واذنيه ، ثم بين ابهام قدمه واصابعهما الصغيرة .

سجد الجميع واضعين جباههم على الارض ، في المنزل العائلي العتيق . لم يكونوا بحاجة الى بوصلة لتحديد اتجاه مكة . فهم في مكة ذاتها . فبيت آل الملك معلق على صخرة تشرف على الصحن الشريف . واذ ما الصق الاولاد عيونهم على الزجاج السميك ، الذي يمرر ضوء النهار ضعيفا الى الداخل ، امكنهم ان يميزوا « الكعبة المقدسة » .

فبخلاف ٥٠٠ مليون مسلم في العالم . لم يكن على عبدالله وكمال ، عند الصلاة ، ان يفتشا عن اتجاه الكعبة المقدسة . كان هناك ، على محط اليد خلف الحائط ، خلف

الستارة الحريرية التي طرزت عليها امهما آيات من القرآن.

انهما يعرفان ، عن ظهر قلب ، المكان الذي وقف عنده ابراهيم وهو يفتش عن الارض الموعودة ، تاركا ابنه اسماعيل على صخرة كانت ، في حينها ، بيضاء وبعد الفين من السنين ، حين اكتشفها محمد (صلعم) ، كانت قد اصبحت سوداء « سوداء بسبب جرائم البشرية » .

على مدى ستة قرون ، جعلت شعوب الصحراء الوثنية من الكعبة معبدا ، تقدم فيه قرابينها البربرية ، فيها قتلوا جمالهم ومواشيهم وحتى أطفالهم ، يقدمونها ضحايا للالهة الثلاثمئة لدياناتهم الوحشية . وحدهن البنات الصغيرات كن يبعدن عن أن يكن قربانا مقدسا . فهن منذ ولادتهن يشكلن مصدرا لمتاعب لا نهاية لها . لذلك ، فمصيرهن كان الوأد(1) .

نمت حول الكعبة مدينة ، وأية مدينة ؟ غابة من المقطورات تأتي من اليمن ، من مصر ، من ايران ، من فلسطين ، فتقاطع طرق الذهب والبخور والحرير في هذه البيوت المقطورة التي يسكنها الجمال واللصوص والمشردون.

كانت مكة تتمرغ في الفجور والثراء . في العبودية والدسائس عندما جاء محمد (صلعم) ذي الاصل القرشي ، وتزوج وهو في الخامسة والعشرين خديجة (رضي الله عنها) الارملة الغنية . وفي غار ذات يوم ، ظهر له جبريل .

ان قصة رسول الله محمد (صلعم) تثير كمال دائما .

(1) دفنهن وهن احياء .

انها ترسل في عينيه نارا .

— كان الرسول (صلعم) غنيا ، اليس كذلك ، اذن هذا امر جيد ، ان يكون الانسان غنيا ؟

سؤال محير : فالدكتور عبد الملك ، الذي مد له الملك ابن سعود جسرا من ذهب لمعالجة أمراض الروماتيزم ، وكان يحصي امعاءه كل يوم ، لا يبصق على متاع الدنيا . لقد جاب امريكا في وقت كانت الرأسمالية والسماء في صداقة حميمة . كانت جدران كاليفورنيا تردد أن الايمان يجزي العطاء ، او « ان المسيح يضمن الارباح » .

لكن الاسلام يرسم صورة اخرى للرسول (صلعم) .

— غني ام لا (اجاب الدكتور) فهذا ليس بالامر المهم ، لقد رأيت الحجاج ، انهم يلبسون جميعا الثوب غير المخاط الذي يذهبون به ليقبلوا الحجر الاسود ، أو يذهبون به الى القبر .

— الاغنياء ايضا ؟

— نعم بالتأكيد ، الاغنياء ايضا .

— والملك ؟.

— والملك كالآخرين . فالشمس تحرق العالم ، الناس ورمال الصحراء وتسلع عيون البدو وعيون الامراء بالطريقة نفسها . اذن ان يصبح الانسان غنيا ليس بالشيء الجيد ولا بالشيء السيء ، ان المهم ليس هنا .

دخلت الريح الدافئة من خلال النافذة لتداعب النار وتلاعب بالظلال . ففي هذا المحيط من الصخور والاحجار بدأت القبب والمنارات بالتورد . تعالى صوت مؤذن الفجر

الاجش ، تواكبه العصافير . ان النهار سيطلع قريبا على مكة .

ارتعش ضوء المصباح ، هل سينطفىء ؟

اغفى كمال على كتف ابيه . ان له أهدابا سوداء طويلة وخدودا ممتلئة . ولم تكن ممارسة الشعائر الدينية هي أكثر ما يستهويه .

استغل السكوت بين فريضتين ، ووضع فمه على اذن الدكتور :

— هل صحيح ان الكهرباء ستصل قريبا ؟ واذا وصلت سنكون أول من تصله في مكة ، أليس كذلك ؟

كان الذي يتكلم هو حقا ابن أبيه . فالدكتور ايضا كان دوما يريد ان يكون الاول . أول دكتور للعربية السعودية . اول من استقبل غير المؤمنين ، وسافر الى بلادهم . بل وحصل مرة ان رقص في لوس انجلوس مع الفنانة الكبيرة ، في حينها ، جون كروفورد .

في عام ١٩٤٨ ، وقبل الحج بقليل . عاد الدكتور من اميركا . . نزل في جدة ، الميناء الكبير على البحر الاحمر . من السفينة الاميركية ، لاحظ الناس انزال شيء معلق برافعة ضخمة . شيء ضخم ، بدا شكله المكسو بأغطية غريبة . وفي المساء على بعد (٧٠) كيلومترا من الميناء ، تكلف برجوازيو مكة . وتحملوا عناء الوقوف امام بيوتهم ، لرؤية سيارة الليموزين الطويلة طول كاديلاك الملك . ووراء المقود كان سمير عبد الملك يبتسم ، وهو يهز لحيته الصغيرة ويحرك يده تحية . كانت سيارته الاولى من نوعها في السعودية . كبيرة ، مغطاة بالكروم ، بعجلاتها البيضاء وزجاجها المعتم ، ومراوح التهوية الاربع وجهاز الراديو في لوحة القيادة

[illegible] بأعلى صوته .

ان عودة مؤمن ما كانت لتثير العجب بهذا الشكل ؟ الى نجد ، وهو يجوب رمال مكة بهذه السيارة الضخمة ، التي خرجت لتوها من جحيم المصانع الاميركية . لقد تجرأ [illegible] المسن على ذلك . تجرأ على سماع الراديو والتقاط الصور ، والتحدث بالفرنسية والاتصال هاتفيا بلندن . انه هو الذي تجرأ أيضا على فتح بطن العملاق عبد العزيز ، الذي ستستأصل له الزائدة . ان الذي فتح هذه البطن ، اية ابواب لا تفتح له ؟

انحنى على كمال وداعب له خده .

— تستطيع ان تكون الاول دائما ، اذا كان فضولك [illegible] أكثر من الآخرين .

بدا السراج ينفث دخانا مزعجا .

— ليس المهم أن تكون الاول او الوحيد الذي تصله الكهرباء بل المهم هو ان تصل الكهرباء الى الآخرين ايضا . الى سرعان ما سيكون لدي في المستشفى آلة لتوليد الكهرباء . طلبتها من اميركا . سأطلب آلة جديدة أخرى لكي تستطيع انارة الجامع الكبير .

— اذن سنستطيع تمييز مكة من بعيد جدا . حتى في الليل ؟

— حتما . وعندما سيصل الحجاج عن طريق الجبل ، سوف يهتزون لذلك .

— وكذلك الله ؟

— لا يا كمال ، لن يستطيع النور أن يدهش الله ، لأن الله هو ذاته النور . .

الفصل الثاني عشر

الكهرباء تدخل مكة

هبت عاصفة من الرمل فكنست الازقة والاسواق والاسطح ، ونفذت من خلال الابواب الى الخياشيم وقاع الاذن . مشى كمال وامامه أحمد ، العبد الذي جلب من اليمن ، وهما يشدان القماط على وجهيهما ، يتقيان به الزوبعة الهوجاء . وعندما توقفا لحظة يستردان انفاسهما ، لسعتهما حبات الرمل كخردق بنادق الصيد ، وتكسرت تحت اسنانهما وجففت بلعوميهما . كان ثمة حمار يخبط امامهما كالمجنون ، مذعورا من الزوابع الهوجاء الصاعدة من الجنوب .

ـ أحمد !

ـ لا تفتح فمك ، فسرعان ما ستختنق .

ـ لم أعد أبصر شيئا

ـ اتبعني ، سنصل ..

يا لها من فكرة لاختيار هذا اليوم بالذات للذهاب الى

الدار . فمنذ الصباح أطبقت السماء ، صفراء ، ثقيلة ، على المدينة كبساط هائل من الرمل . حاول احمد ان يمانع ، لكن كمالا كان أقوى منه ، فهو يريد ان يرى جبريل . لم يشجعه على ذلك أحد حتى ولا أخته الكبرى سميرة . فكمال واسع الخيال .

ـ اذن ، فانك لم تر الملاك ؟

سأله الدكتور عبد الملك ذلك مازحا ! لكن كمالا ، وله من العمر عشر سنوات ، كان يضع لمشاريعه الطفولية حلولا سهلة . لقد خذلته ، فراح يفتش عن بديل في الارض .

ـ ما الذي يسعدك يا كمال ؟

وعندما رأى الدكتور عبد الملك العجوز صورة ابنه على الصفحات الاولى في الجرائد الاميركية ، خيل اليه ، بعد الاربعين عاما . انه يسمع مرة اخرى جواب ابنه الغريب : « اريد ان ارى مليونيرا » .

احتفظ الدكتور عبد الملك ببرود اعصابه وقال :

ـ لدي انطباع بأنك لم تحفظ القرآن جيدا ، ويقولون لي انك لا تثابر على دراستك . ثابر عليها وانا اعدك بأنك سترى مليونيرا .

ووضع كمال على الصراط المستقيم ، فقد عهد به الى الدكتور في الشريعة الشيخ محمد القوم ، الذي ينتمي الى جماعة العلماء القوية . ففي ذلك الزمن كانت تلك الجماعة هي القانون ، « شرطتها تجوب الاسواق والكرابيج في يدها تسهر على احترام التقاليد ، وهي التي كانت تتولى قطع ايدي

اللصوص ورجم الزانيات » .

لم يكن العلماء يريدون ان يسمعوا اي كلام عن الهاتف او الراديو ، فكل ذلك رجس من عمل الشيطان ، لقد قاوموا بكل جبروتهم الجرثومة الخفية التي يبثها الاجانب في المجتمع العربي ، وبعضهم كان ما يزال يصر على ان الارض مسطحة. اما شيخ القوم فكانت افكاره أكثر سماحة بعد العملية الجراحية التي أجراها له الدكتور عبد الملك ، وانقذ حياته بها ، ومن حينها أصبح يكن للدكتور نوعا من عبادة بلا حدود ، ويتغاضى عن الاعيبه العصرية وافكاره المجنونة التي كان يجلبها معه اثر كل سفرة يقوم بها للغرب .

— هل تعلم يا كمال ان اربعمائة مليون مسلم يصلون في وقت واحد ؟ اربعمائة مليون يؤمنون باله واحد ، ويتجهون خمس مرات في اليوم صوب مدينتنا ، سواء أكانوا في اندونيسيا ام في اعماق أفريقيا ، ويدخرون أحيانا كل ما يجنونه ليأتوا مرة واحدة على الاقل الى هنا ، يلمسون الحجر الاسود ؟

سأل كمال :

— وهل يدفعون الاموال ليحضروا الى هنا ؟

— بالطبع ، فهم يدفعون بدل دخولهم الى الملك ، الذي يضمن في المقابل نظافة الاماكن المقدسة وصيانتها .

— اذن ، فالملك يحقق أرباحا ؟

فيفرك العالم لحيته حائرا ..

— ان افكارك سخيفة يا صغيري، فالملك لا يسعى لجمع الارباح لنفسه ، ان بلادنا فقيرة ، ويجب بذل المال لحفر

الارض للوصول الى الماء ، ولجلب الفاكهة والخضار ، من الخارج لاطعام السكان ، كما يجب ان تبقى مكة جديرة بالنبي الذي انجبته .

— وهذا يتعلق بالنقود أليس كذلك ؟ وهل يحتاج الله النقود ايضا ؟

— ان الله ليس بحاجة لشيء ، فكما انه النور فهو الروح أيضا . انه هو الذي يرشد الناس ويحييهم ويقرر ساعة موتهم .

— وهل يعبده كل سكان الارض ؟

اجاب الشيخ محمد القوم ، وفي رأسه ، ما زالت مارجة ، المعلومات التي تلقاها في جامعة الازهر في القاهرة:

— للاسف ، فلا يحترم كل الناس خالقهم ، وعلى هؤلاء جميعا يجب ان نشهر الحرب المقدسة : الجهاد . لكن يجب اولا ان نخوض الجهاد الاكبر ، الحرب المقدسة ضد ذواتنا ونفوسنا يا كمال ..

* * *

كان القصر الملكي في مكة أقل فخامة من قصر الرياض، انه كان ناصع البياض ويضم دزينة من الصالونات يرتبط بعضها ببعض بممرات مائلة ، حيث تنتشر العطور دائما ، وكان الحراس السود يحرسون الابواب برماح كبيرة تلمع رؤوسها المستديرة كالذهب . وكانوا يضحكون ملء اشداقهم عندما يبدأ كمال والامراء الصغار — تركي وابقيق وطلال وفهد — لعبة الحرب المقدسة وهم يصرخون . مرة

واحدة فقط شاهد كمال الملك عن قرب ، كان طوله يقارب المترين وبين اصابعه تتراقص سبحة ، احجارها من الماس الاسود ، اخذ الملك كمالا من ابطيه ورفعه عاليا فوق راسه ، بحيث احس ابن الدكتور عبد الملك بانه يطير .

وفي اثناء احدى الحروب ، ذهب « ابقيق » ، اصغر ابناء اخ ابن سعود الكثر ، عند بيت عبد الملك ليتغدى مع كمال لوحدهما ، وكان الصبيان شغوفين بنوع من جبنة الماعز ، ينثران عليها بعض الاعشاب وياكلانها باردة . كان ابقيق يزيد كمالا بعام واحد ، نظر اليه بعينين دهشتين متراقصتين قائلا :

ـ انك تشبه صقرنا .

كانت غرفة كمال شبيهة الى حد بعيد بغرفة الراهب ، يغطيها البياض والنور ، بالكاد يستطيع ان يتسلل اليها عبر الفتحة الصغيرة ، وكان الصمت الحار يلفح البيت باكمله وانغمس كمال وابقيق بلعب محبب ، دونما وعي منهما لطبيعته ، وبالذات كمال الذي كان اصغر من ابقيق سنا . ان جو الصحراء يدفع لمثل هذا النوع من المزاح .

وفجاة هزت ضجة كبيرة ارجاء المنزل الفارغ .

ثم نزل كمال السلم بسرعة وتوقف للحظة خلف الباب الذي تهزه ضربات الاقدام الهائجة ثم فتحه ليرى احمد المسكين .

ـ كمال انقذني !
كان شرطي ، تابع للعلماء ، يمسكه من ذراعه .
ـ سيقطع يدي ..
وبلهجة سلطوية مدهشة توجه كمال للشرطي قائلا :
ـ دعه وشانه ، انه يخصنا .
ـ فاجاته في السوق وهو متلبس بسرقة المانغا .

ـ لقد ارتكب خطا ولا شك ، قال كمال ، لكن هذه اليد التي ستقطعها تساوي اكثر من قبضة من حبات المانغا . ال ... ما هي قيمة المانغا التي كان يسرقها برايك ؟

فتح الشرطي فمه ببله .

ـ لا تذهب ، قال كمال ، لدي شيء لك .

ذهب وعاد بعد قليل ، يحمل اغلى شيء في العالم بالنسبة له ، انه الترانزستور الذي جلبه له والده من امريكا . ادار المفتاح ، فانطلق صوت ام كلثوم يصدح . اطلق الشرطي سراح احمد واختطف الراديو .

ـ كمال ، انك سيدي ، ليرعاك الله ، شكرا ، شكرا .

ركع السارق يقبل اقدام الصبي الذي حقق انتصاره الاول ، واكتشف في نفس الوقت احدى طرق السيطرة على الاخرين . طلب كمال من عبد الله ان يرسل له الرجل المكلف بوشم قطعان القصر .

ـ اوشم اسمي على يد هذا الرجل . فهي ملكي ، ويجب ان لا ينسى ذلك ابدا !

❋ ❋ ❋

بر الدكتور عبد الملك بوعده . ففي صباح أحد الايام المنعشة ، أخذ كمالا من يده وأجلسه قربه على مقعد سيارة « الناش » ، وساقها لوقت طويل مثيرا خلفه عاصفة من الغبار . ثم توجه نحو سهل عرفات ، حيث يأتي الحجاج مرة كل عام ينصبون خيامهم في وقت التجمع الكبير الذي لم يحن موعده بعد .

سأل كمال :

ـ الى اين نذهب ؟

ـ عند المليونير

ـ هل تعرفه ؟

ـ لست فقط اعرفه ، بل هناك شيء سأطلبه منه .

ـ ماذا ستطلب منه ؟

ـ ان يشتري دزينة من المولدات الكهربائية . اريد اضاءة المسجد الكبير قبل موسم الحج .

ـ هل تعتقد انه سيوافق ؟

ـ سيوافق بالتأكيد ، اذا استطعت طرح الموضوع بشكل جيد ..

لم يكن الشيخ مصطفى بن جاهر يختلف عن بدو السهل الآخرين . كانت خيمته أضخم وأفخم من بقية الخيام ، ومغطاة بنسيج سميك من القطن الممتاز . اشار الدكتور باصبعه الى السجادة الناعمة الملمس المرمية على الرمال وقال لكمال :

ـ انها عجمية ، من شيراز ..

كان الشيخ مصطفى يستنشق دخان نرجيلته بعمق ، ملقيا برأسه الى الخلف وعيناه مغلقتان .

سأل كمال :

ـ ماذا يفعل ؟

ـ انه يدخن ؟

ـ أليس هذا ممنوعا ؟

ـ يحدث أحيانا أن يمارس المرء اشياء ممنوعة يا كمال .

ـ حتى عندما يكون مليونيرا ؟

ـ خصوصا عندما يكون مليونيرا !

تصاعدت رائحة خروف يشوى على الفحم عند المدخل ، وفيه جملان كانا يستلقيان ، يطويان اطرافهما تحتهما ، ويمضغان على قطعة من العظم الصفراء مشفريهما العجوزين الرغويين . وقفا عندما عبر الزائران العتبة ، يتقدمهما عبد السوداني عاري القدمين .

هتف الشيخ مصطفى بن جاهر ..

ـ يا له من شرف عظيم ، يا له من اكرام .

كان قبل ذلك منهمكا في الحديث عن جمليه ، فتقدم مادا يديه فيما انزلقت خفاه على السجادة السميكة بدون صوت .

ـ السلام عليكم .

نظر الرجلان بعضهما بعضا ، لكن لقصر الدكتور عبد الملك ، فانه كان عليه ان يقف على أطراف اصابعه ليتلقى يدي المليونير ، في حين بدا الجملان وكأنهما يتغامزان .

ـ اذن ، هذا وريثك يا دكتور . هل سيكون طبيبا هو الآخر ؟

ـ العلم عند الله .. وحده .

صب السوداني في الفناجين الصغيرة القهوة المرة بالهال ، فشرب كمال فنجانه دفعة واحدة ، ورفض ان ياكل شيئا من الكاتو مع العسل .

ـ الست جائعا يا كمال ، وانت الذي تلتهم الاكل عادة ؟

دخل رجل قصير القامة قاسي الملامح ، الى الخيمة ، وعيناه المحمرتان تشيران الى انه كان يبكي ، وبدا ، رغم عباءته البيضاء وساعته المرصعة بالالماس ، بمظهر كريه منفر .

ـ عثمان ، زوج ابنتي فاطمة .

كان صوت المليونير ناعما ، وحركاته رخوة .

ـ رايت قبل قليل كسوة الكعبة الجديدة التي حاكوها لنا في القاهرة . انها قوية فليفرس حجاجنا اظافرهم فيها ما شاؤوا ، فهي لن تتمزق .

ولم يضحك احد لهذه الدعابة ، فاطلق عثمان ضحكة شاهقة فيما هز الشيخ فنجانه يمنة ويسرة حسب العادة ، وبدا السوداني يصب له رشفات لا تنتهي من القهوة .

وصل الشيخ الى فنجانه السادس ، عندما دخل الدكتور في الموضوع ..

ـ لقد حققت اشياء ضخمة يا مصطفى ، ان قوافلك تجوب الصحارى وثروتك هائلة ، وانت تستحقها ، لكني ارجو منك ان تفكر في المستقبل .

استمع كمال باذنين مفتوحتين ، ولمعت سن كبيرة من الذهب في فم المليونير .

ـ اطلاقا ، يا شيخ مصطفى ، ان النفط بايدي الامريكان ، وسيبقى كذلك مدة طويلة ، وحتى لو اغتنى بلدنا ، واثرينا نحن معه ، فان النفط سيبقى دوما شأن من شؤون الدولة بل انني افكر احيانا كالملك بان النفط شيء آثم وسخ لن يدوم طويلا .

ـ اذن تريد ان تكلمني عن الماء ؟

ـ الماء ! اية سعادة ؟ لكن دوما يجب الذهاب بعيدا للتفتيش عن الماء ، وهذا لم تنبسط اسارير مصطفى له ، فماذا لم يقترح بعد ؟

ـ اريد ان اشاركك في كهربة مكة . يجب ان تنير مدينة الاسلام ، يجب ان لا نبقى متخلفين عن القاهرة ودمشق . بل لقد قيل لي ان عمان نفسها وصلها النور .

لكن ، من اين ستاتي الارباح ، من الشعر ؟ وقبل ان يعمل المليونير فكره ، تنحنح !

ـ اعتقد ان فكرتك شيطانية يا دكتور . فلكي ننعم بالكهرباء ، علينا ان نسمح للاجانب المشركين بدخول المدينة المقدسة .. هل فكرت بهذا ؟

ـ بالتاكيد يا شيخ مصطفى . لا يلزمني اكثر من ثلاثة من رجالنا لكي نوصل الكهرباء ، تعال الى زيارتي في المستشفى ، لدي هناك آلة تعمل على النفط ، وتولد الكهرباء . وعندما يكون لدينا عدة آلات من نفس النوع ،

وبقوة اكبر ، فاننا سنقضي على مكة برمتها . سنكون رواد في هذا المجال .

ــ رواد ؟

قالها الدكتور بالانكليزية ليثير اهتمام الشيخ ، الذي ترك فجاة نرجيلته وقال :

ــ هذا يعني باننا سنكون اول من يصنع شيئا جديدا للبلاد ، اذا لم نقم به نحن فسيقوم به آخرون وربما بعض الاجانب . . لا ، لقد قضينا وقتا طويلا للتخلص من الانكليز .

قالها ذاك القرصان المسن بحماس ، وهو الذي كان يقطع الطريق على القوافل الانكليزية .

ــ الكهرباء هي البداية . بعدها ، يمكن ان تحصل على المعامل ، ستورد الآلات وستبني المنازل ، وتشق الطرقات للسيارات ، وستصنع السيارات لتمشي على الطرقات .

ــ الا تخشى ايها الطبيب ، ان يعاود الاجانب اقحام انوفهم في شؤوننا بسبب هذه الافكار التي تجيش في راسك ؟

بدا كمال يحلم . لقد سبق له ان راى الفارقة باسمالهم وهنودا بسواريهم ، واتراكا بلحاهم الطويلة واذرعهم المليئة بسوارات الذهب . كان هؤلاء من الحجاج ، اما الاجانب فانهم يقطنون كوكبا آخر . ملابسهم غريبة ، وسيقان نسائهم عارية ، انهم يشبهون انكليزية السفارة الحلوة التي رافقت ، ذات يوم ، زوجها لزيارة الملك . لكن كيف للمرء ان يكون مليونيرا ويخشى الاجانب ؟

مرة اخرى التمعت السن المذهبة في فم مصطفى عندما قال :

ــ انك رجلي ايها الطبيب . قل لي ماذا يلزمك لاستقدام الآلة هذه .

نهض البعيران بعسر ، عندما غادر الدكتور عبد الملك وابنه خيمة المليونير . وفي سيارة « الناش » احس كمال بالفرح .

ــ يبدو ان المليونير يكن لك الاحترام ، هل هو اقل ثراء منك ؟

ابتسم الدكتور بلحيته :

ــ نعم ، لاني رجل علم . في السابق كان اصحاب الملايين يحترمون السحرة ، اما اليوم فانهم يحترمون الطبيب .

ــ اذن ، من السهل ان يصبح المرء مليونيرا .

ــ نعم ولا ، الشيخ مصطفى ، على سبيل المثال ، لديه القوافل التي تعمل لمصلحته وتنقل عبر الصحراء القطن والذهب والبخور .

ــ والسلاح ؟

ــ طبعا ، والسلاح ايضا ، لكن هذا يتناقض لان المخاطرة تتزايد .

ــ وما هي المخاطرة ؟

ــ هي ان تكون على استعداد للخسارة قليلا مقابل [illegible] . واحيانا تخسر كثيرا وتربح قليلا . . وهذا هي اذا المغامرة .

في كانون الاول (ديسمبر) من العام التالي ، أصيب الحجاج ، الذين وصلوا من جدة ، بصاعقة نزلت بقلوبهم ، بعد ان رأوا المصابيح الملونة المزدانة بالنقوش العربية ، تضيء هامة الجامع الكبير ومأذنته .

كانت النوافذ بالدزينات تلمع فوق المدينة المقدسة كما لو انها تحترق ، او انها تنافس النجوم في هذا الليل الازرق. لقد تطلب الامر أكثر من سنة لبناء أول محطة كهربائية في مكة ، كما تطلب ذلك الاستعانة بالمهندسين الاجانب ، حيث بقي معظمهم على ابواب مكة ، وكان البعض الآخر يدخلها لوضع الترتيبات النهائية ، منتهكا بذلك تحريم دخول مكة المكرمة وهو أمر قائم منذ الف سنة .

قال أحد العلماء :

ـ لينذر المهندسون بعدم الدخول .

قبل ستة مهندسين ، أربعة المان وانكليزيان، الصفقة، لكن كانوا يضطرون احيانا لمخالفة الاتفاق بداعي الضرورة كان عليهم دخول المدينة . ومقابل هذه التضحية الصغيرة كانوا يتقاضون بدلات ضخمة .

الفصل الثالث عشر
عالم التراكتورات

عب الاميركي الجالس في بار شيبرد كأس «البوربون» السادس ، كان عريض المنكبين ، رمادي الشعر ، كثيفه ، يضرب بيده الكبيرة بعنف على البار وهو يتكلم .

ـ كلكم حمير. أمضيتم ١٨ شهرا تسوحون وتصرفون الدولارات ، ولم يذهب أحد منكم ليدس أنفه هناك . هل تعتقدون انني ادفع لكم لتصوير ابا الهول وملاعبة المومياءات ؟ انكم أسوأ من الحمير. هناك تجري الامور، هناك، اتسمعونني ؟؟

أشار الاميركي بسبابته نحو زجاجات الشراب المصفوفة بعناية فوق رأس « البارمن » . هناك ، ماذا يوجد ؟ النيل، الاهرامات ، الصحراء ، وبعد الصحراء صحراء أخرى ، لكنها لم تكتشف بعد .

ـ أقول لكم ، واكرر ان النيل جميل ، وكذلك غادات سميراميس ، لكن اذا أردتم البيع ، اذا أردتم سبر اغوار

الشرق الاوسط ، فان هذا يجب ان يجري في الجانب الآخر من البحر الاحمر مفهوم ؟

استمع الآخرون بذهول ، كانوا متشابهين عندما ينظر اليهم من الخلف ، ويرتدون ملابس جاهزة من محلات « بروكس » في شارع ماديسون ، هيئتهم محترمة ، واكتافهم متسعة ومناكبهم رياضية . لكن يجب ان لا يطلب منهم اشياء كثيرة ..

لقد قضوا ثمانية عشر شهرا وهم يمارسون الانتظار في اروقة أكثر الوزارات كسلا في العالم ، والسباحة ، في نهر الادارة الخانق ، وكأن المماليك لا زالوا يعششون فيها ، لا لشيء الا لوضع عدة مئات من الفلاحين فوق التراكتورات خاصة في عهد الرئيس عبد الناصر ، ومد بعض جيوش البلاد العربية بشاحنات « جنرال اميركان موتورز كارز » ، كان هذا بالنسبة لاميركي العام ١٩٥٨ يشكل برهانا على كبر قلوبهم التي تقبل بالتضحيات .

فجأة أحس اشلي ، الاكبر سنا ، بالضجر ، كان قد خدم في مونت كاسينو ، واحتفظ بجسم رياضي غير مملوء ، وبأكتاف متحركة .

ابتلع كأسه دفعة واحدة . وقال :

ـ هل تسمع يا ارشيبالد ، لقد ذهبت أنا الى هناك ، اما أنت فتأتينا طائرا من ديترويت . وكما قلت ، فان ضفاف النيل جميلة حقا ، ولكن في الطرف الآخر ، فالنغمة لا تختلف كثيرا . خلال اسابيع ثلاثة ، انتظرت طويلا في جدة

والرياض ، شربت البيبسي كولا ، وهرولت وراء الاشباح . انا وزعت ٧٦ رسالة مكتوبة بالعربية ، واتيت على صندوق امتلأ من بطاقات الزيارة ، لكن كان الامر دائما يبتديء « بالسلام عليكم » وينتهي بـ « غدا الموعد » . ان تراكتوراتك لا يهم البدو كثيرا ، افتح في ديترويت فرعا لبيع الجمال الايطالية ، فعندها من الممكن .. لا أحد يعرف .

اطفأ كمال سيجارته ، كان يقبع في الظل وهو يتابع المشهد دون ان يتحرك ، واستدار الاميركي ، لكنه لم يلمح هذا الرجل ذا البذلة الكتانية الذي يحمل شاربا خجولا ويطلب وهو خافض العينين ، كأسا من عصير الليمون الحامض .

اخذت الدهشة كمالا ، فالاميركي ذو الشعر الرمادي ، يشبه بشكل غريب الشيخ مصطفى ، مليونير مكة ، ان له نفس القامة ، نفس الفك المربع ، وله ايضا سن ذهبي في زاوية فمه . ثمة احساس قاس واضح دهم كمالا في اعماقه . وهمس بالعربية :

ـ ابقيق ، لقد وقعنا على قضية مهمة .

كان ابقيق يحتفظ بنظرات طيور الصحراء الفزعة ، كان يحب كمالا ويطيعه ، وخلال السنوات الاربع التي مرت عليهما في مدرسة « فيكتوريا » في الاسكندرية ، كانا يسيران وايدي بعضهما على كتف بعض ، كما يفعل كل الطلبة العرب . لم يتركا بعضهما بعضا لحظة . وفي جامعة القاهرة، درس ابقيق الشريعة الاسلامية ، فيما اختار كمال دراسة الاقتصاد والامور المالية .

ـ ابقيق ، تدبر امرك ، اني بحاجة الى اسم هذا الرجل .

ـ أيهم ؟

ـ الاميركي ، الذي يتكلم عاليا .

انسل ابقيق خارج البار بخفيه اللذين كأنهما صنعا خصيصا لينزلق بهما على السجاد الملون الذي يكسو أرض القاعات المرمرية . وبين الاعمدة العالية ، كانت تدور المراوح المثلثة الريشات ، الموروثة من العهد الاستعماري . انها ساعة الوشوشات والتناجي . هنا ، لا كوفيات ولا عباءات، ان المصريين هم عرب لكن بلباس مدني . ثمة موظف مصري يتناقش مع كولونيل سوفياتي وامرأة عجوز تشبه اغاثا كريستي تعيش اجواء كوكب آخر وتقرأ كتاب « السر الحقيقي لتوت غنج أمون » .

كان ذلك في عهد الرئيس عبد الناصر ، وفي العام ١٩٥٦ ، عندما رمت المدافع الفرنسية والانكليزيه قنابلها على بور سعيد ، وكانت نيران الثورة قد أحرقت أصنام الماضي ، لكن مع هذا لم يغير شيئا في فندق « الشيبرد » الذي رمم بعد الحريق ، بمرمره وخشب الاكاجو ، وعطره الانكليزي الجذاب المريح . وامام النوافذ لاتني الزوارق ، بأشرعتها المفتوحة ، تنزلق في أجمل انهار العالم .

اقترب « ابقيق » ببرودة من حاجز الخشب المزخرف حيث ينتصب بواب قديم ، وقال :

ـ حبيب ، احتاج لمساعدتك !

قال ذلك ، ودس في يده رزمة من الاوراق النقدية ، كانت له يدان ماهرتان في فن البخشيش . انه فن الامراء .

ـ بماذا استطيع ان اخدمك يا صاحب السمو ؟

ان بواب « الشيبرد » رأى عن كثب كيف يسير التاريخ المعاصر ، اذ لا شيء يثير اهتمامه ، بعد رحيل الرئيس عبد الناصر ، فقط هناك أمراء العربية السعودية ، لذلك فقد سمح لابقيق بطاقة البوليس الخاصة بالاميركي « ارشيبالد وايت » . واعطاه اياها مع الابتسامة ، هو الآخر كانت له سن من ذهب .

ـ ماذا ؟ قال كمال ، رغم انه لا يبالي بشيء عادة !

ـ اقرأ

كان الاميركي مستمرا في كلامه :

ـ أيها السادة ، اني اعطيكم شهرا واحدا . «اوكي» ، مفهوم !؟

سجل كمال في مفكرته الجلدية اسم «ارشيبالد وايت»، نائب رئيس جنرال موتورز كارز ، ٤٩ عاما ، يسكن في ديترويت ، متزوج ، يسافر بدون اطفاله ، وصل الاثنين في ٢٦ حزيران (يونيه) ١٩٥٨ ، المغادرة المرتقبة في ٧ تموز (يوليو) .

ـ ابقيق ، أحزم حقائبك ، وسأحضر انا حقائبي . يجب ان نكون بعد ثلاثة ايام في جدة .

ـ لكن ماذا حل بك ؟ بالكاد انتهى الفصل الدراسي ؟

ـ لقد انتهى على كل حال ، وانت تعلم انني يجب ان ابدا في هارفرد في شهر تشرين الاول ، ولن انتظر حتى ذلك الوقت لاذهب .

ـ ووالدك ؟

— سيوافق . آمل أن تكون قد فهمت يا ابقيق . هناك اشياء ضخمة تنتظرنا .

كان طلاب معهد فيكتوريا يتكلمون الانكليزية ، بل انهم لا يتكلمون أية لغة اخرى . لكن كمالا لم يكن معتادا على اللهجة الاميركية . وضع يده على يد ابقيق :

— اسمع . .

استعاد رجل « الكاسينو » عادته السيئة . كان يدير ظهره عندما كور قبضة يده وضرب البار بها بعنف .

— لقد وبختنا يا سيدي ، حسنا ، هذا حقك ، لكن هل تقدر ذلك الذي عملناه هنا في مصر ؟ في بلد يحكمه عبد الناصر ، ويتواجد فيه الخبراء السوفيات ، وسكانه جماهير فقيرة ؟ هل تقدر هذا كله ؟

احمر وجه « ارشيبالد » ، وبدت ملامحه كملامح « الشريف » ، عندما يصوب الى مرماه .

— الروس ؟ لا ابالي بهم ، ان بضاعتهم رديئة .

ولم يتراجع اشلي امام انفجار العاصفة .

— لكن هذا لا يلغي انهم شيدوا سد اسوان .

كان اشلي لا يخلو من جسارة . كان يقامر بكل شيء. فأما يحظى بترقية ، او يوضع على باب الخروج . الترقية او الحقيبة . كان اشلي مقامرا ، اما الآخرون فكانوا يعدون النقاط بأفواه فاغرة .

— لا اطلب منك ان تبني السدود . ما أريده هو ان تبيع الشاحنات . اذا كانت مصر ليس لديها مال ، فان

السعودية لديها الكثير ، وهناك لن تجد الروسي امامك . ان السعوديين لديهم النفط ولديهم الدولارات ، وسيكون لديهم الكثير فالكثير . اذن تدبروا امركم ، واعلموا ما يجب عمله . تعلموا العربية . . تهالكوا على أقدامهم .

خيم صمت كصمت الجوامع ، ثم امسك نائب مدير « الجنرال اميركان موتورز كارز » اشلي في قبة سترته ، ونظر الى اعماق عينيه وقال له بقوة « السعودية لك يا بني أعطيتك اياها وانتظر العقود . انه دورك في اللعب » .

* * *

قال الدكتور عبد الملك لولده :

— آثار التعب بادية عليك ، لا بد انك اجهدت نفسك بالعمل في القاهرة .

ولم يكن مظهر « ابقيق » افضل ، فقد استغل الشابان هبوط طائرتهما في بيروت ليطلقا لنفسيهما الحرية .

وكان لابقيق حساب في « بنك صباغ » ، وهو الذي تولى الدفع للفتاتين اللبنانيتين اللتين اصطادهما في الثالثة صباحا من أحد مواخير شارع الحمراء .

قال الدكتور بحدة :

— على كل ، كان عليكما ان ترتديا ملابسكما .

لقد نسي كمال وابقيق ان يضعا عباءتيهما قبل ترك الطائرة ، فظهرا لوهلة، بربطات عنقيهما المعقودة بشكل سيء، أشبه ما يكونان بعابثين لبنانيين . وكان عليهما ان يبدلا ثيابهما في غرفة استأجرها الدكتور في فندق « الكاندرا »

القريب من مطار جدة . وفي سيارة « الناش » التي نقلتهما الى مكة ، كان كمال يتحرق للاختلاء بوالده .

ــ لماذا عدت باكرا ؟

خفض ابقيق رأسه بينما اجاب كمال بشجاعة بأنه يريد الذهاب الى اميركا ، دون مزيد من الانتظار وقال :

ــ أريد القيام بالاعمال .

ــ مدرسة « الهارفرد بزنس » هي مدرسة جيدة ، انها الافضل بالنسبة لدراسة الاعمال .

ــ اذا أردت أن أبيع ألف تراكتور و ٥٠٠ شاحنة حالا هل تساعدني ؟

ــ سأساعدك يا بني ؟

كان على كمال قبل السفر ان يتزود بالنصائح . كان عليه ان يزور المليونير ، وان يستقبل في البلاط الملكي من قبل مستشار التجارة في الخارجية ، وان يهون على أمه واخته سميرة ، وان يواجه الرأي القاسي لبروفسوره العالم الذي قال له :

ــ ستذهب الى بلاد المشركين .. حماك الله ؟

ــ وقبل ان يقلع في طائرة .T.W.A ، سلم الدكتور عبد الملك ابنه ظرفين مغلقين .

ــ ستفتحهما عندما تحلق .

استطاع الدكتور كبح دموعه لحظة اقلاع الطائـرة ، واستمر ينتظر طويلا ، وينظر الى اضوائها وهي تغطس في الليل . ثم تلبدت الصور واختلطت .

* * *

في المغلف الاول وجد كمال شيكا بعشرة آلاف دولار ، مسحوبا على بنك « تشيز مانهاتن » في نيويورك ، ووجد سطرين مكتوبين باللغة العربية ، من اليمين الى الشمال ، سطران لم يكونا آية من آيات القرآن ، ولا كانا حتى نصيحة وانما مجرد أفق حياة :

« بعشرة آلاف دولار ، تستطيع ان تشتري سيارة الكاديلاك . أو اسهما في «جنـرال موتورز» ، تستطيـع ان تعيش عاما كاملا ، او ان تلهو ليلة واحدة في لاس فيغاس ، ان قرارك سيقرر مستقبلك » .

فتح الظرف الثاني ، فوجده يضم رسالة توصيـة مكتوبة بالانكليزية على ورقة تحمـل الشـعار السعودي ، وممهورة بتوقيع الامير « طفلق » ، وزير التجارة الخارجية ، يعلم فيها « ارشيبالد وايت » نائب رئيس « جنرال اميركان موتورز » ، أن كمال عبد الملك مخول من قبل الحكومـة السعودية بشراء السيارات والمعدات الزراعية والعسكرية بمبلغ لا يتجاوز الـ ٥٠٠ مليون دولار ، ومع الرسالة عـدة طلبات شراء. واحس كمال وهو يغلق الرسالة بلفحات موجات الأمل الحارة .

لم يستطع ان ينزع عينيه عن المضيفة ، كان ساقاها بجوارب نايلون ، تحت بذلتهـا القصيرة يبـدوان كأنهمـا يرقصان باليه بين المسافرين ، كان عطرها الخفيف يهز كمالا في كل مرة تمر بقربه ، فهو آت من بلاد تخبأ فيها النساء، كان مدرا ، فاحتفظ بعباءته التي هي بلون الرمل فـوق ركبتيه ، وداخله ارتعاش عندما انحنت المضيفة عليه لتسأله

بصوتها الناعم المدروس . الصوت الارضي جدا لمضيفات الدرجة الاولى :

ـ هل تريد شمبانيا ..

كانت هذه هي المرة الاولى التي يطرح عليه هذا السؤال المريب بهذا الحنان الكبير ، لم تكن سوى المرة الاولى ، لكن السؤال من وقتها، ظل يطرح على السعودي في كل حياته التي قضاها مفتشا عن الغرب . السؤال عينه : « شمبانيا » ؟

لم يكن هذا مجرد تأدب : كان كلمة مرور ؟

الفصل الرابع عشر
كيم يشتري السلاح

في السابعة صباحا ، عندما تبدأ خيوط الادخنة الاولى ترسم زخارفها في سماء بحيرة « ايريه » ، كانت « فرانكا تريشور » تصل دائما الاولى من بين سكرتيرات مكتب ديترويت ، كانت من أصل الماني ، ممشوقة القوام ، نشطة ، شقراء الشعر قصيرته ، متماسكة القد ، انفها دقيق ، لا تستطيع ان تتخيلها الا ومضرب التنس تحت أبطها ، كانت تصلح لان تكون « موديلا » لتنسخ عنه ميداليات الالعاب الاولمبية .

لكنها اليوم لم تكن الاولى، فقد رات في غرفة الانتظار، التي كان عليها أن تمر بها لتصل الى مكتبها ، شابا اسمر ذا شعر مصفوف ، فحيته سائلة :

ـ هاي ، هل أنت على موعد ؟

استهوت عينيه ، حيث تلتمع شعلة سوداء تحت الاهداب الطويلة ، واعتراها ، وهي التي تتعشق الرجولة ،

ما يعتري الصياد امام طريدته . ولم يكن هـذا الاحساس على ما يبدو مشتركا .

ـ ليس لدي موعد ، ولهذا السبب أتيت مبكرا . اني أرغب بمقابلة مستر وايت .

ـ هل تعرف نائب الرئيس ؟

وبالذهنية العربية التي تتقن المداورة قال :

ـ اعتقد انه سيسر كثيرا عندما يراني من جديد .

كان يتكلم الانكليزية بطلاقة . ويا لها من ابتسامة ، التمعت وسطها اسنانه ببياضها الناصع تحت شاربه الاسود الذي يغطي بالكاد شفتيه البارزتين . لم تر فرانكا شخصـا بهذه الوسامة الا بالتلفزيون . انها ابتسامة الليل . مم يجب ان تخاف ؟ انها السابعة صباحا ، وهي سكرتيرة اميركية لم يكن قلبها ليستسلم خارج ساعات الدوام .. قالت :

ـ لم يصل الرئيس بعد ، هل تتفضل بملء هـذه البطاقة ؟

لم تأخذها الدهشة ، وهي تقرأ اسمه عندما كان يكتبه كمال عبد الملك . فقد بدا اسما روسيا . كانت فرانكا ترى احيانا الروس ، في هذه الفترة ، في مكاتب شركة « جنرال موتورز » لكنها لم تكن تتخيل ان هناك روسيا بهذا الجمال. ولم يكتب كمال في هامش « هدف الزيارة » سوى كلمـة واحدة « اعمال » .

كان « ارشيبالد وايت » يأخـذ لنفسه ٧٥ دقيقـة كل صباح ، قبل أن يبدأ باستقبال زواره لتصفح صحيفـة

« الوول ستريت » ، ولالقاء النظرات على الاخبار المالية في صحيفة « نيويورك تايمز » ثم يطلب كأسا كبيرا من عصير الريفون ، ويفتح النوافذ على مصاريعها حيث تسلل منها ، في الطابق الثلاثين ، أصوات المصانع الممتزجة بأصـوات الرافعات وبضجيج الشاحنات .

وكان ارشيبالد يلقي نظرة على ساعته . فاذا وجد انه ما زال لديه فترة قصيرة من الوقت ، قبل استدعاء هيئـة اركانه ، يفتح جارورا مليئا بكرات الغولف . ويضع عـلى الموكيت الخضراء ـ خضراء أكثر من اعشاب « كليفلاند » ، حيث ملعبه المفضل ـ قطعة من « الباكليت » مربوطة بلمبة حمراء ، وعلم صغير مغروس في فتحة صغيرة ، يفترض انها الثقب في الملعب . كان يخلع حذاءه ويمسك مضربا من الالومينيوم اهداه إياه البطل نيكلوس ، ويضرب الكرة التي تتدحرج باتجاه الثقب الاول ، فاذا اصابه فان اللمبة الحمراء تضاء ، وفي كل مرة كانت اللمبة تضيء ، كان يغمر ارشيبالد سرور مفعم يرطب مزاجه .

كان لفرانكا حظ الدخول في اللحظة التي اضـاءت فيها اللمبة مرتين متواليتين . وقدمت للمستر وايت بطاقة الزائر ، دون أن تبدي أية دهشة من رؤية سيدها ، وهو في جواربه والمضرب بيده ، فقد اعتادت ذلك .

ـ كمال عبد الملك ، ماذا يعني هذا ؟

حقا ، لم يكن اهالي شمال الولايات المتحدة عنصريين . فهم ، في أواخر القرن المنصرم ، اضطروا لشن الحرب على اهالي الجنوب ليبرهنوا انهم ليسوا كذلك ؟ لكن هذا لم يمنع،

في « كليفلاند » ، وفي ملعب الغولف بالذات ، من تحريم دخول اليهود . كانت هناك دائما اسماء علم لا تطرب لها اذن ارشيبالد وايت الذي يتحدر من عائلة كبيرة في بوسطن اعتبرت الصناعة شأنها .

وحتى لا تبقى فرانكا ساكتة قالت :

ـ انه روسي بلا شك ..

رفع وايت عينيه صوب السماء . واضافت السكرتيرة:

ـ على كل ، انه يبدو بمظهر حسن .

كان نائب رئيس « الجنرال موتورز كارز » ، عندما تأخذه الحيرة في أمر ما ، فانه يسأل نفسه عما كان سيفعله مكانه العجوز روكفلر رئيس شركة « ستاندرد اويل » ، وملك كليفلاند ، ومثله الاعلى . كان هذا العبقري ، بلا شك ، سيستقبل هذا الغريب ، سيما ، وان اللمبة ما زالت مضاءة ، وارشيبالد ما زال فرحا . قال :

ـ ادخليه ..

مد ارشيبالد يده بتقدير ، والابتسامة الواسعة تعلو وجهه . فقد اعجبته البذلة ذات اللون الفاتح ، والمحرمة الصغيرة التي يضعها كمال في جيب سترته العلوي. لم يستطع كمال بسبب سطوع الضوء الآتي من الخارج عبر النافذة المفتوحة ، ان يتبين الوجه الذي رآه قبل ثلاثة اسابيع في بار « شيبرد » بالقاهرة . لكن ما ان فتح ارشيبالد فمه ، حتى تعرف كمال فورا على نبرة الاميركي القاسية .

ـ ماذا تبيع ايها الشاب ؟

كان أي شخص آخر ، أقل قدرة ، سيفقد رباطة جأشه ، لكن كمالا ، أخذته رعشة كتلك التي تتملك الصقر الفتى ، عندما يرفع عن عينيه الغطاء . أجاب :

ـ انا لا ابيع شيئا .. انا أشتري .

نظر ارشيبالد في عيني زائره . انه لم ير من قبل عيونا أكثر سوادا ، وهو ، خلال رحلته الافريقية الاخيرة ، لم يحدث ان تطلع في عيون قريبة الى هذا الحد . وتطلع الى ساعته بشيء من الانزعاج ليفهم كمالا انه لا وقت لديه يضيعه ، ثم جلس بجانبه . وراح يشعل غليونه وعينه نصف مفتوحة ، فرأى كمال التماع المعدن الذهبي في زاوية فم المستر وايت . اخفض كمال عينيه ، فرأى جوارب نائب رئيس « جنرال موتورز » ، وتحت طاولة المكتب رأى حذاء بمقاس غير معتاد ، لا يقارن بأي حذاء رآه على عتبة المسجد.

ـ لكن ماذا تريد ان تشتري مني ؟ ماذا تعتقد اني ابيع؟

سأل ارشيبالد وهو يحاول ان يكون بشوشا . لكنه لم يستطع ان يمنع نفسه من النظر مجددا الى ساعته .

رد كمال بسؤال كان يعرف انه سيصعق محدثه

ـ ألم تكن في القاهرة في الشهر الماضي ؟

ـ نعم كنت هناك .

ـ ألم تشرب ستة كؤوس من البوربون في بار فندق « شيبرد » ؟

ـ هذا ممكن جدا ؟

ـ هل انت مسرور من ممثليكم في مصر والشرق الذين لا يأتون بحركة مفيدة ؟

سحب أرشيبالد نفسا من غليونه .

ـ ألم تظهر رغبتك في تنشيط اعمالك مع العربية السعودية ؟ الا تبيع الشاحنات ، والقاطرات النصفية ، والسيارات ، والآلات الزراعية وقطع غيار الدبابات ؟

أطلق نائب الرئيس كمية كبيرة من الدخان الازرق الى السقف :

ـ حسنا . ان معلوماتك ليست سيئة اطلاقا .

سحب كمال من جيبه ، وهو مسرور من الاثر الذي أحدثه مغلفا طويلا مفتوحا . لكن ما زال الختم الشمعي عليه، يعلوه الشعار السعودي : سيفان ونخلة .

ـ نعم ؟ سأل وايت وهو محتفظ بهدوئه .

ـ انها طلبية أسلحة لبلادي . لقد انتدبني الديوان الملكي لامثله تجاهكم .

اخترع ارشيبالد لنفسه قاعدة ليحفظ الاسماء الصعبة ، حتى لو لم يسمعها سوى مرة واحدة . وقال :

ـ يا سيد كمال عبد الملك ، هل تسمح لي ان اناديك كمالا ، وانت نادني ارشي ، هل نستطيع ان نتناول العشاء سوية هذا المساء ؟

وبدا على مستر وايت انه غرق في لجة افكاره ثم رفع رأسه وقال :

ـ كل شيء يسير حسنا .. سأسميك كيم ، كفتى الغابة الصغير . فالى هذا المساء يا كيم .

الفصل الخامس عشر
لندن معك على الخط يا سيد عبد الملك

ـ السيد عبد الملك ؟ معك لندن على الخط .

صدح صوت عاملة السنترال الاميركية ، كأنها تؤدي مسرحية غنائية في برودواي .

ـ آمال ؟

ـ كلا يا سيدي . لقد ذهبت المدام امس .

انزلقت الشفرة على حنجرة السعودي ، فاتحة طرقا صغيرة ، وسط رغوة الصابون . كان مصطفى عادة يحلق ذقن سيده مرتين يوميا ، وكانت تبرز من فتحة عباءته كرافاتته الصفراء المنطقة بالاحمر .

ـ متى ستعود ؟

ـ لم تترك اي خبر .

لم يستطع السعودي اخفاء قلقه تماما .

انزلقت الشفرة قليلا تحت شحمة الاذن ، فأحس

مصطفى بهزة خفيفة في طرف شفرتـــه . لقد كان دومـــا حساسا لاي ارتعاش داخلي صغير يصيب سيده ، من يوم ان اعتقه كمال من عبوديته في السودان . مصطفى ، مسلم من افريقيا ، يتقن العربية ، طوله متر وتسعون سنتمتـــرا ، وعندما لا يكون مشغولا بحلاقة ذقن سيده فأنه يعمل كحارس شخصي له . اغمض كمال عينيه ، وكان الانزعاج واضحـا عليه ، رغم صعوبة قراءة احاسيسه .

ـ اين عبدو ؟

ـ انه يدلك الفتيات .

فتح السعودي احدى عينيه .

ـ ارسله لي سريعا فور انتهائه ، بالمناسبة اين الفتيات ؟

توقفت الشفرة برهة !

ـ اظن انهن في الرقم ١٣ يا سيدي .

ـ هل يعلمن اننا سنذهب غدا ؟

القى السعودي رأسه على مسند الكرسي القلاب الرخو الذي صنع حسب تصميم وضعه هو ، وكان ملحقا ضروريا لحياته اليومية . لقد وضع مقعدا من هذا النوع في كل بيت من بيوته الاثنين والعشرين ، حيث يجد نفسه دوما في نفس الديكور في اية قارة يكون . وفيما عدا بعض الاختلافات الثانوية ، ففي كل مكان كان هناك نفس الاثاث من طـراز لويس الخامس عشر ، بيسين السباحة نفسه وهو يأخـــذ شكل القلب ، المغطس نفسه والحنفيات نفسها وهي تشبه صفارات الانـذار ، الفيـديو سكوب نفسـها ، وهـي هائلة معلقة كلوحة في مواجهة السرير الذي تعلوه القبـــة

نفسها . وفي الكاراج تنام نفس الكاديلاك التي يغيرها كـل عام . وهي مجهزة بآلة هـاتف وانترفون داخلي وتلفزيون صغير وعلى لوحتها كتب « ك.م » ، احرف اسمـه الاولى ، يتبعها رقم ما من ١ الى ٢٢ ، بالطبع فأن السيارة التـــي تحمل الرقم «ك.م.١ » كانت دوما في مسقط رأسه ، مكة ، وهكذا كان لكمال الاحساس المطمئن بأنه يهيمن على الزمان والمكان .

اما طائرته « البوينغ » التي حولت الى قصر طائر ، فانها تعضد من شعوره بأن لا شيء في الارض يمكن ان يقف بوجه هذه الرغبة الجامحة بالحضور في كل مكان ، وهـذا ما اكده عندما قال ان الطائرة هي كبيته الحقيقي الوحيد .

دائما كان رد فعـل مصطفى بطيئا هكذا ، رغـم ان المفاجأة قد مزقت صوته .

ـ نعم ، اعلم الجميع بذلك .

رش مصطفى سيده بالعطر ، الذي تم شراؤه قديما من شارع بوند بناء على طلب امابندا التي لم تكن زوجة وفية تماما عندما اشترت نفس العطر لسليمان ايضا . ثم لف مصطفى وجه كمال بمنشفة دافئة ومعطرة بزهر الليمون .

في مطلع ايلول سبتمبر ، كانت سماء لوس انجلوس مغطاة بظلال صفراء غير معتادة في هذا الفصل ، وتلمـع شجرات جوز الهند في « بولفار سنسيت » بهياكلها الرخوة بفعل حرارة الشمس القوية . لذا كان يجب الابتعاد الى حدود « سانتا مونيكا » للعثور على شيء من البرودة .

اختار كمال هضبة « البل اير » في تلال « بيفرلي » بعيدا عن نجوم هوليوود ، وبسبب الاشجار الاستوائية التي تشكل سورا اخضر كانت تلك التلة تحتمي من لفح الحرارة .

وقد اقيم ، حول المنزل ، ١٣ بنغلو (١) مكيفة منتشرة على ستة هكتارات من الحشيش الاخضر ، ترتبط فيما بينها بخط هاتفي وتلفزيون داخلي ، وتفصل بينها جدران من الخضرة ، بحيث يستطيع المدعوون ، او افراد الحاشية رؤية بعضهم بعضا او تحاشي ذلك . حسبما يشتهون .

اطل عبد الله ، الذين يسمونه عبدو ، برأسه ، كان له وجه دائري وابتسامة حاضرة باستمرار ، ومستعد ابدا لاداء ما يطلب منه ، وهذا يبعث الراحة عند سيده ، حتى عندما تسير الامور سيئة .

كانت اصابع عبدو مفاتيح فقرات عمود كمال الفقري ، من اسفل ظهره حتى عنقه ، لكن عبدو لم يدلك سيده فقط ، بل كان يهتم ايضا بالفتيات . وعن طريق علاقاته الشخصية ، في كل العواصم ، مع الوكالات المتخصصة كان يضمن وصولا منتظما لافضل الفتيات المانيكان عارضات الازياء ،والمومسات اللواتي غالبا ما كان كمال يقدمهن الى ملوك التجارة والصناعة ورؤساء الدول ، والامراء ، مقابل حصوله على العقود الضخمة . ولم يكن عمل عبدو مريحا دائما ، فسواء كان في كاراكاس ام في الخرطوم ، او حتى في الكاريبي ، فانه كان عليه دوما ان يرفه عن الفتيات ، عندما يكون معلمه مشغولا بأعماله . وبما انهن كن دوما يأتين من باريس او من

(١) منزل في طابق واحد يقام في الريف او على شاطىء البحر .

فرانكفورت ، فأنهن كن جميلات ، لكن بيضاوات كالثلج ، من هنا كان عليه ان يسهر على اكسابهن اللون البرونزي دون ان يتعرضن للصداع او لضربة شمس ، او ان يقعن فريسة الضجر .

كل هذا كان من مهمات المدلك الذي كان يمتلك ، بالاضافة لاصابعه الفنية ، خلقا رضيا . فكان من واجبه ايضا ان يدس في فراشه هؤلاء المخلوقات قبل ان يرسلهن الى سيده او الى ضيوفه . حتى اذا اتى بهن اليه ، يكون السعودي على ثقة من حالتهن الصحية ، على ثقة من مقدرتهن على اشباع هذه الرغبة الخاصة او تلك ، او من امتلاكهن لهذه المؤهلات او تلك كان عبدو مقلا في كلامه ، ولكن لانه لبناني فان معرفته الغريزية بالمتطلبات لدى الشرقيين تتيح له اعطاء سيده تشخيصات دقيقة وسريعة . وكان راتبه الشهري ، البالغ ثلاثة الاف من الدولارات ، يشده منذ اعوام طويلة برباط لاينفصم الى كمال .

عندما اقترب منه السعودي ، حافي القدمين ، بدون ابتسام ، فهم عبدو على الفور ان ثمة شيئا ما على غير ما يرام.

ـ هل ادلك كليتيك ، ظهرك ام بطنك ؟

اتي كمال بحركة سلبية ، انها طريقة بهلوانية رجل تسبق الاخرى ، والذراعان يتأرجحان من طرفي العباءة الشفافة التي تصطفق على عجزته . كان يمشي وحوله غيمة من العطور . انتبه عبدو ان ظفر ابهام قدم السعودي كان طويلا جدا كما ان الاظافر الاخرى لم تكن مطلية .

ـ ألم تحضر ماغي ، لقد طلبتها لثلاث ساعات ؟

لم تكن اللحظة ملائمة ، فقد سأل كمال مـا اذا كانت الفتيات جاهزات ، ورد عبدو بتواضع .

ـ انهن جاهزات لك

ظهر تضجر كمال في خطوط قلصت ملامح وجهه .

ـ لم اسألك اذا كن جاهزات للمضاجعة ، انت تـرى جيدا ان هناك شيئا آخر يقلقني هل هن حاضرات للسفر ؟

ـ للسفر ؟ لكننا لم نكد نصل !

وابتسم السعودي بأسترخاء امام غمزات عبدو المضحكة

ـ دعك من الوصول ، سنذهب قبل الموعد . يجب ان اقلع في المساء ، وعليك اخطار الطيار .

ـ اين سنذهب ؟ ماذا اقول له ؟

ـ قل له ان يكون مستعدا للاقلاع . امـا الوجهـة ؟ فسنرى فيما بعد .

ـ لكن الشكليات ، ومخطط الرحلة ، وكل هذه القصص انت تعرف جيدا «بارينه». لم يكن السعودي يغضب ابدا، عندما يعاكس ، بل يدور على عقبه ويذهب . وفهم عبدو ان عليه ان يتدبر امره وكالعادة نقل التعليمات المحدودة التي دائما مـا تتغير في اللحظات الاخيرة . اختار اكثر الاحتمـالات ورودا وقال للطيار : « الاقلاع عند منتصف الليل ، بأتجاه بيروت » .

اعتاد القائد « بارنيه » ومساعده على هذه المخططات التي تنفذ ثم تمزق في اللحظة الاخيرة ، ولكن مع الراتـب المضاعف الذي يتقاضاه ، فانه لا يعلق كبير اهمية على هذه المسائل . ودار الرادار بسرعة في رأس عبدو عندما فتح باب الـ ١٣ ولم يكن هناك شيء محدد حول هذا الرحيـل

المفاجىء . صفق يديه بفرح وقال :

ـ هيا يا صغيراتي ، عليكن بحزم الحقائب .

ـ الحقائب ؟

لم تكن الفرنسيتان الجميلتان قد زارتا السوق بعد ، كانتا ما تزالان تحلمان بهوليوود . فقبل ثلاثة ايام استدعين الى شارع فوش . وقال لهما السعودي وهو يرتدي روبـا حريريا : « سوف اصطحبكن الى السعودية . ستتعرفـان هناك على الامير » . لم تسألا اي امير ؟ كانت السعوديـة بالنسبة للفتيات اللواتي يستدعين بالهاتف عام ١٩٧٣ مسألة كافية ، نوع من « الدورادو » ، حيـث يعدن يوم الاثنـين بحصيلة ٣ آلاف دولار بعد رحلة في الجو .

هناك يأكل الرجال كثيرا ، او يكونون تعبين او احيانا يكونون في فترة راحة ولهذا كانوا يريدون ان تبقى الفتيات تحت ايديهم ، وتحت ابصارهم ، لكن ان يأتين الى كاليفورنيا ليغطسن رؤوسهن في حوض سباحـة لـه شكل قلب ، ويكتسين بهدوء اللون البرونزي دون ان يشاهدا احدا مـن نجوم السينما ، او حتى ملامح الامير ، فذلك لم يكن يحصل في كل يوم . تبادلت « كريستيل » و « غابي » نظرات لها معناها : هل سيدفعون اجرتنا ؟ فأجابهن عبدو ، بلهجته البيروتية ، ويداه ممدودتان كقائد الاوركسترا لحظة تحدد المقطع :

ـ ان حصصكن محفوظة يا صغيراتي .

سألت غابي :

ـ وماذا عن الامير ؟

– ستريانه دون شك ، لكني لا اعتقد اننا سنذهب مباشرة الى الرياض . كان عبدو تعبا هو الاخر ، لهذا شعر بالحاجة لاخذ حريته بالكلام ، خصوصا انه لا يخشى منهن شيئا فقال :

– بالتأكيد ، أن ذلك حصل بسبب تلك الحقيرة .

سألتنا في آن واحد :

– اية حقيرة ..

– اماليندا ، زوجته . قال عبدو بضجر ..

– آه .. اذن تريده ان يرجع – قالت غابي – انها من ذلك النوع الذي يلاحق دائما اذن .

خفض عبدو كتفيه وقال :

– لم تصبن المرمى يا عزيزاتي . ان اماليندا اسوأ من ذلك ، انه يحتقرها ، ومع هذا فهي تقوده من طرف انفه ، انها خطرة وقادرة على كل شيء ..

– خطرة ؟ لكن بالنسبة لمن ؟ لقد قلت لنا ان معلمك اقوى من اي شيء .

تراجع عبدو الى الخلف قدر المستطاع .

– لكن انتما تعلمان قصص القلب !

– في كل الاحوال لا علاقة لنا بكل هذا ، قالت غابي ، انها زوجته وهذا شأنه .

* * *

الفصل السادس عشر

غارق في الغضب والعطور

كانت ليون التايلاندية ، تبدأ بمهاجمة كمال من قدميه دائما . تبدأ بطليه بزيت « جونسون بيبي اويل » ، ثم بدلكه طويلا بيديها الرطبتين المقوستين ، وكانت تتوصل احيانا الى ملامسة مؤخرة السعودي بشفتيها ، اثناء بحثها تحت عباءته عن المواضع الاكثر حساسية . وكان التدليك بالنسبة لها متصلا بطقوس شهوانية تؤديها بضمير هادىء يداخله الحنو مثلما يداخله الشبق .

– كيم – كيمي ، تعرى يا حبيبي ، واطرد هذه الطيور الرديئة ، هذه العناكب التي تأكلك وتجلب لك الشر . انا سفيرتك ليون . انا عبدتك ، انني احتضنك وارتشفك . اطلب مني ما تشاء ، وتستطيع ان تفعل بي ما تشاء . انا اسألك العفو عن كل المساوىء التي فعلتها بك النساء . انا انتمي اليك بالجسد، انا احبكَ، ولا انتظر شيئا منك ، لا

شيء سوى منحي الحق في أن اسند عنقي على بطنك اللين ، الحار .

وكانت تتكلم الانكليزية مكسرة ، وكانت نوعا من « حمامة انكليزية » ، تدخل في قلب السعودي كغناء رتيب . وبعد المداعبات الودية ، والاصابع التي تدخل حيثما كان ، واللسان المجنون والكلمات البذيئة ، والارتعاشات الخلاعية ، انتهى كمال الى الاعتقاد بأنها تحبه ، وكان على حق . وكان «كيمونها» فستانها الياباني الفضفاض ، وهو دون حزام ، يمس كفليها، بينما كانت أصابعها الرشيقة تشد على بطنه وتحت بطنه ، بهياج متقد ، دون جدوى . كان منشغل الفكر والقلب ، بزوجته « اماليندا » ، وبماذا تفعله تلك النمرة في تلك الآونة .

– وصل السيد ياسين .

اعلن البنغلو رقم ٧ – حيث امانة السر ومقسم التلفون – عن وصول بيل ياسين ، عميل كمال المفضل في الولايات المتحدة ، والمحتك بالـ «سي آي اي» والبنتاغون ، والذي على علاقة بالامراء والعالم بخفايا العالم العربي . انه فضولي ذو مزاج ، اما بالنسبة لكمال ، فهو رجل ذو اياد بيضاء ، كما انه رجل ثقة .

– كلا ، ابقي !

كانت ليون بفطنتها الاسيوية الطبيعية ، حاضرة للهروب دائما . وامسكها كمال مرددا بأمر :

– ابقي ،

كانت تخاف كثيرا من أن تترك . وعندما كانت أي أيد

تترك يدها ، يروح جسدها ، وظهرها ، وصلبها ، وبطنها ، في دوار خوفا من التخلي عنها . اما جسد كمال الذي كان يهتز تحت ايادي التايلاندية الصغيرة ، فلم يكن صنديدا بكل معنى الكلمة ، ولا كان في الحقيقة رشيقا ، بكل كان زيتيا ذا لثة ، وذا جلد رخص ، لم يكن كمال بحاجة لان يكون جميلا لكي ينسى حقيقة كونه غنيا . كانت الرغبة تعمر نفسه دائما . وكان من مبادئه الخاصة عطاؤه المستمر لنفسه عطاء متجددا امام المخاطر .

كمال ، نمر في التجارة ، وقادر في الحب ، مزاجي متقلب ، وقح ووديع ، في آن واحد . كانت له نظرات تغتسل بضياء اسود ، وتتزركش بأهداب طويلة منحنية ، نظرات ما كانت ليون لتتحملها طويلا دون أن تغضي بعينيها المغوليتين ، عين الهرة المستوحشة .

– ها ، بيل !

وظل ياسين واقفا على عتبة البنغلو رابط الجأش .

ولم يكن كمال عاريا تماما ، ولكنه يكاد . وكان رأس ليون الصغير ذو الشعر الخشن ، يختفي داخل طيات ذاك الثوب العربي الخفيف .

– صباح الخير ! قال بيل ، دون ان يندهش من المشهد، فقد كان معتادا على نزوات المعلم ، الذي كان وبهدوء شرقي مزعج لا يتردد في استقبال معاونيه ، وهو في أوضاع مفرطة في عدم اللياقة ، حتى من اجل معالجة شؤونه التجارية ، كان لا يخرج من نمط حياته الخاصة . كان ذلك ، منذ ثلاثين عاما عندما ولد بيل في بروكلين ، نتيجة زواج امه

الاميركية التي كانت ضاربة على الآلة الكاتبة ، من تاجر سوري ، وكان ذا سحنة سمراء ، وعينان زرقاوان لهما لون السماء ، وذا مشية منضبطة ، وحركات ميكانيكية ، وسريعة . كان يتكلم العربية والاميركية بصوت معدني رتيب ، كأنما هو اعادة بث صادرة عن انترفون ، وبعناية فائقة كان يتجنب كل نبرة خاصة . وكل انفعال أو خور ، يمكن ان يخذله .

كان يرتدي ، غالبا ، وفي كل الفصول وفي جميع الامكنة في الكاريبي كما في لندن ، نفس البذلة ، ذات اللون الرمادي الداكن ، دون تغيير الا في سماكة القماش او نسيجه ، اما بالنسبة للكرافات ، فكانت سوداء اما القميص فهو أبيض .

وراح يمسح نظارته باطارهما الفولاذي ، وهو يجلس على الكنبة الوحيدة على الشرفة ، مستديرا بظهره الى الحرارة الشديدة التي تنبثق من كل الجهات على هضبة الـ « بيل آر » .

وضع ياسين على ركبتيه ، حقيبة يد من جلد اسود ، كانت تبقى مشدودة الى قبضته بصورة دائمة بسوار من جلد . فقد كان معاونو كمال عبد الملك ، يحملون في كل انحاء العالم نفس النموذج من الحقائب ، المصنوعة بدقة ، في احد مصانع لندن . وكانت هذه احدى علامات التعارف بينهم .

ـ اين اصبحنا اذن ؟ سأل كمال !

وغير ياسين النسق الذي رتبت به حقيبته ، وهو يأخذ منها حزمة من اوراق عليها ملاحظات ، ثم قال :

ـ كمال ، اظن اننا سنواجه صعوبات لا يستهان بها .

قال ذلك وهو يتابع بعين خفية ، ايماءات التايلاندية الصغيرة ، الغزلية .

ارهف السعودي السمع . فقد كان لياسين مخيلة تشبه الساعة المنبه ، فعندما يعلن عن ان هناك صعوبات فمعنى ذلك أن هذه الصعوبات موجودة ، واكثر ما كان يعجب كمال فيه هو برودته ، كبائع سجاد في كامل اناقته . فهو يدخل حيث لا يدخل الاخرون . وكان يكفيه لذلك ثقب في رمل ، كي لا يتراجع امام اية مهمة ، فهو عنيد وكتوم .

مضى حتى الان ، سبعة عشر عاما منذ ان وقع كمال معه وثيقة الشيطان . وكان ذلك سنة ١٩٣٦ ، بعد موسم الحج مباشرة . وكانت البواخر الكبيرة تغيب وراء الافق في البحر الاحمر ، محملة بالاتقياء ، بينما كانت القوافل الاخيرة تغيب في اعماق الصحراء . وفي ذلك الحين ، كانت جمارك الملك سعود (ولم يكن قد اشتد حذره بعد من اخيه الاصغر ، فيصل) ، تستقبل في جدة حاجا طريفا في ثياب داكنة ، وكان آتيا من واشنطن ليعلم اللغة العربية الى مهندسي الارامكو ، وهي التروست البترولي الاكبر . كان بيل يحمل بطاقة زيارة ومعه جواز سفر دبلوماسي ايضا . فلم يطلب منه فتح حقيبتيه الثقيلتين المصفحتين بالحديد ، واللتين تحتاجان الى اربعة حمالين لنقلهما .

ولم تكن السعودية وقتها الا مكانا مقدسا . كانت تعيش بمعزل عن العالم مرتلة صلواتها الخالدة . محتفظة بنفسها طاهرة متمسكة باهداب الفضيلة بشدة ، تحت سيطرة

التقاليد الوهابية القاسية . بعيدة عن التجارب ، ومع ذلك ما كانت تحتاج الا لقليل من الاغراء . ولقد لعب الانكليز ، ورقة الاغراء هذه بواسطة جواسيسهم اللوطيين وشعرائهم ، ومستشاريهم المستعربين . وكانت الحرب ، فالتقى روزفلت ، بأبن سعود في البحر الاحمر ، وهكذا حل فيها الاميركان شيئا فشيئا .

كان الامر مختلفا بالنسبة للاميركان . فأن لهم دورهم المحدود بدقة : التنقيب عن البترول ، تنمية الصحراء . كانوا يستطيعون غرز الرافعات في ابار البترول ، واعطاء نصائحهم ، ولم تكن هناك مشكلة في قبولهم في قدس الاقداس . فقد كانوا يعيشون في البيوت القابلة للتفكيك والمحاطة بالاراضي المزدانة باعشاب بلاستيكية . فقد كانت عزلتهم تامة ، وكانت الجزيرة العربية تفخر بذلك .

وكان بيل ياسين هو اول من خرق الحواجز . وكانت فكرة وحيدة كافية لذلك . فالحقيبتان المصفحتان بالحديد ، كانت تحتويان كل منهما دزينة من العلب المعدنية وادة لتسليط الصورة على الشاشة ، (بروجكتور) . سينما في حقيبة ، اما في السعودية ، فهو اختراع شيطاني ، انها محظورة مثل الكحول ، وكانت لا تستعمل الا في السر ، كالكحول ايضا .

استغل بيل الوضع حالا ، وصار يجلب الافلام من هوليوود ويعرضها في القصور عند المساء .

كان الامراء يتخاطفونه . لم تكن الافلام التي يعرضها خلاعية ، وانما كانت من افلام رعاة البقر ، او الافلام البوليسية ، او الكوميديا الموسيقية ، لذا وجد الامراء في

شخص بيل مساعدا لا غنى عنه لهم ، في كفاحهم ضد الغم الذي كانوا يستسلمون فيه الى ضجرهم الطبيعي .

ولم تكن الافلام مترجمة ، فكان يشرحها بالعربية ، وكان صوته الجميل ذا الرنين المعدني يبعث القشعريرة عند الاميرات المترهبات في الرياض وفي جدة . ومن خلال هذا الاميركي ، ذي الاصل السوري ، اكتشفت الاميرات عطور الغرب الممنوعة . ولاحظ كمال في الحال ، ياسين هذا الغريب الذي كان ذا هيئة رصينة ، والذي هو مستعد لعمل اي شيء .

وسأل كمال سليمان :

ـ من هو هذا الشخص ؟

وكان سليمان ، وهو تركي ، قد ابكى العشرات من النسوة ، ذاك المساء ، عندما استدعى ياسين ، وعرض لهن فيلم « ذهب مع الريح » . ولم يمض على زواج سليمان ، من احت فيصل لابيه ، وقت طويل . ولم يكن فيصل قد اصبح بعد وزيرا للخارجية . كما لم يكن سليمان يشغل اية وظيفة ، ولكن ، كان يعتبر واحدا من اكثر الرجال خبرة في القصر .

ثم اخذ كمالا ناحية ، وقال :

ـ انه شخصية مثيرة للفضول ، فلقد أوكلت اليه رئاسة الحكومة مهمة ثقافية ، وانا اعتقد ان له علاقة بال « سي آي اي » . ويمكن ان يكون مفيدا ، وتنبغي مراقبته .

وسأل كمال :

ـ مما يعتاش ؟

ـ انه يعطي دروسا في العربية الى هؤلاء السادة في

شركة « ارامكو » للنفط .

ـ انه يلزم لي . قال كمال ذلك بلهجة رجل مشغول ، كانت تخفي لامبالاته التي تتأتى له احيانا ، وسببها كونه باشا .

ـ وما الذي تريده منه ؟

ولم تكن عند كمال اية فكرة واضحة ، ولكنه كان يعلم ، ان ياسين قد وجد ليستفاد منه .

وكانت الشمس ترسل انوارها الاخيرة على شجرات جوز الهند في « سويت ـ بولفار » ، وتخلص كمال من ليون بهدوء ، ووقف ليجابه عيني ياسين الفولاذيتين ، وراح يزرع، بقدميه العاريتين ارض البنغلو المغطاة بسجادة سميكة . وكان ذا مشية بهلوانية غريبة .

وتوقف فجأة امام الرجل الذي وضع ثقته به .

وكان بيل يتأثر بكمال ، دائما ، فقد كان يجد فيه مزيجا مدهشا من الجاذبية والذبول .

ـ ان واشنطن ، ولا شك اكتشفت شيئا ما . واليهود ينتظرون على نار . ولن اتغاضى عن ذلك ، بل سأذهب الى نيكسون لو اقتضى الامر .

كان كمال يفكر عندها بصوت عال . لقد اعتاد ياسين على محادثة الذات هذه ، حيث يتجلى ذكاء رجل الاعمال ، تمتزج فيها المحاكمات الفعلية بالرموز ، وتظل هادئة في كل حال ، لكنها مشفوعة بنظرات لا تقاوم .

ومد ياسين ، الى سيده ، نسخة طبق الاصل عن رسالة وهي مجرد ورقة ، كتب على رأسها ما يشير الى انها من اوراق وزارة الدفاع .

ـ ماذا تقول هذه الرسالة ؟ سأل كمال .

كان يخاف من قراءة ثلاثة اسطر .

ـ انها تقول ، ان على الشركات التجارية الكبرى ، المختصة بشؤون الطيران (او بأية مؤسسة تصنع الاسلحة) من الان وصاعدا ، ان تحصل على موافقة وزارة الدفاع المسبقة ، قبل ان تتعامل مع البلاد العربية .

ـ وهذا يعني ، عمليا ، موافقة من البنتاغون .

وكان لهذا التوضيح أهميته ، فأن كمال كان موهوبا في كشف النقائص .

ـ من البتاغون ، انني لا ارى انه يصمد طويلا امامنا . فلقد كلفنا جنرالاته الكثير .

وعندها خرج كمال عن طوره ، فراح يلوح بيده ، ويقذف الشتائم بالعربية ، فلقد اغاظه ياسين فجأة ، بطبيعته الهادئة كطبيعة الانسان الالي .

ـ هل يريدون بيعها ، طناجرهم تلك ، نعم ام لا ؟ فلقد ركضنا طويلا وراءهم . اتذكر الغداء في « وولدروف » و « السلام عليكم » التي القاها الجنرال « بورجس » والتكشيرة اللطيفة من سيد بيت المال !

فلقد كانت لدى كمال التجربة الكافية ، كي لا ينتظر اية منة من رجال السياسة . وكان يعتمد ، بالمقابل ، على حصانتهم ، ولكنه غالبا ما كان يراهن بنجاح على جبنهم . وكان اي تغيير في السياسة الاميركية ، تحت تأثير الضغط الصهيوني ، لا يثير دهشته . كان يحتفظ ، بما يكفي من الشواهد ، والاشرطة المسجلة ، والرسائل ، بما يسمح له ، او اراد ذلك ، ان يضع في مأزق كفايته من المسؤولين ، وحتى

الرئيس نفسه ، فيجعل من الصعوبات التي يدعيها ياسين مجرد عراقيل مثيرة للسخرية .

ـ وميك لوثنر ؟

ـ المنبوذ ، اجاب ياسين دون انفعال ، منذ ثلاثة اعوام وانا احاول ... لوثنر ، كان في البيت الابيض ، احـد السكرتارية الخاصين بنيكسون ، وواحدا من اكثر الناس حاجة للنقود، وكانت له كلمة مسموعة، فيما يختص بصادرات اميركا من الاعتدة العسكرية ، وعمليا لا شيء يخرج من ترسانة الاسلحة الضخمة ويرسل الى الخارج دون موافقته .

ـ لوثنر منبوذ ، ليس لك ان تسخر مني .

واخذه الغضب .

ذات يوم ، دعا ارشيبالد وايت ، وهو شخصية مهمة في « دترويت » ، كمالا الى الغداء وسماه كيم . كان كيم ما زال يخرج من طور المراهقة ، يفتح عينيه اللتان كانتا له ، عندما سافر من جامعة القاهرة والقرآن متاعه الوحيد ، الى قلب امجاد الرأسمالية الاميركية .

وكان الدكتور عبد الملك قد رقص ، قديما ، مع جون كرافورد ، واشترى « ناش » . كانت خطواته الاولى .

وهكذا غطس كيم ، مديرا بظهره الى القدرية الشرقية ، التي تعتقد ان كل شيء مقرر، ومكتوب سلفا. وتزوج اميركا، وحرياتها ، ومخاطرها ، وطرقها : انه الحظ المغامر المتاح لاي شخص كي يحتل مكانا فسيحا في عالم الثراء .

ـ منبوذ ! فردة حذائي . ليس لهؤلاء النـاس ان

يسلموننا الاخلاق . اتعرف يا بيل ، كل من الشركات الاميركية، تلتزم من قريب او بعيد ، صراحة او خفية ، بصناعة او تجارة الاسلحة ؟

وكان رأس بيل ، يشتغل ، كأنه عقل آلي .

ـ نعم انها الف وثلاث وثلاثون بالضبط .

ـ هل تعرف الى اي رقم تصل مبيعاتهم السنوية من الاعتدة العسكرية ؟

ـ حوالي ١٠ مليارات دولار .

ـ هل نسيت ان الشركات الاكثر طهرا ، تمارس نفس النوع من النشاط ؟

كان بيل يعرف . فأن بين يديه التقارير الرسمية من الـ « سي آي اي » . كان يعرف ، ان « سنجر » لا تصنع ماكينات الخياطة فقط ، وان « فورد » و « جنرال موتورز » ترسان الحرب البيولوجية ، وان « دوبون دي نمور » ، و « فيرستون » ، و « غولف اويل » ، تعد بين مصـدري الاسلحة .

ـ انهم هم تجار الموت ، ومجرمو الحرب ، وليس نحن يا بيل . ليس نحن . انهم الذين يسلحون في وقت واحد ، الاتراك والقبارصة ، البيافريين والنيجيريين ، والسودانيين في الشمال والجنوب . ليس نحن يا بيل . ليس نحن ... فانا لم احرك اية فتنة بعد ، ولا اثرت اية حرب من اجـل التجارة ابدا . ومـا اطلبه هو أن تحترم اتفاقاتنا . لقـد اشترينا المطاردات الاخيرة من « ويستروب » ومن «كاليفورنيا

افيشن » . وهذه الطائرات هي على الارض . وجاهزة من اجل ان تكون في قواعدنا . والعربون مدفوع .. اذن ؟

ما كانت ليون تحب الغضب . فجمعت قواريرها ، وما زال دخان الصندل ، يتماوج في البنغلو ، زكيا في انـف السعودي .

الفصل السابع عشر

متاعب مع أميركا .. ولكن !

ياسين ، ما كان يقول شيئا، ما كان يقول ابدا شيئا في الحال . ان عيونه الزرق وابتسامته الاميركية ، كانت تخفي مراوغة شرقية ، تنوب عن سداد الرأي عنده . فكان يترك السعودي دائما ، يفرغ غيظه الكامن ، ونقمته ، قبل ان يدنو من حقيقة المشكلة .

كانت فتاة سوداء ، طويلة وشامخة ، تتمـاوج عـلى المرجة الخضراء . فقد خرجت عارية من حوض السباحة ، الذي صنع على شكل قلب ، وكانت ماؤه الصافية تشف عن فسيفساء ، مستوردة من البرتغال ، نقش فيها تاريخ يقول « لارين مورت » . كانت حمرة الشفق تلون الروضـــة ، المغطاة بأزهار جميلة ، تختلط ألوانها الصفراء مع الاضواء الوهاجة ، ومع الق الخبيزة وهدوء الزنبق وطهره ، ومع الورود التي كانت تطبق على البنغلو .

نادرا ما كان كمال يجد الوقت الكافي ، للتمتع بالمنظر

الذي شاءه باذخا ، والذي وضعه احد الرسامين الانكليز في هذا النسق . كان يقدم هذا الزخرف الى اصدقائه ، اما هو فما تمتع به حقيقة ، لانه كان يحمل في نفسه عالما لا نهاية له ، ولا شكل ولا لون له ، عالم شبيه بصحراء بلاده ، ابعاده شاسعة ، حيث يتتابع السراب مع السراب ، وغير الملموس مع الخيالي .

واستدار كمال بظهره الى الكوه الواسعة المكسوة بالزجاج وقال :

— انا لا افهم . انا لم اعد افهم . الى ايـن يريدون الوصول ؟

وابتلع ببطء كوبا من الحليب ، وهي عادة بدأت معه منذ أول مرة وصل فيها الى اميركا .

— بيل . انت تعرف مثلي . فالمسألة هي الا نعود بأيد فارغة . ففيصل لا يحتمل ذلك . فاذا لم تسلمنا اميركا الان، فأن كل سياستنا الدفاعية ستكون موضع بحث جديد . وعندما أقول سياستنا الدفاعية ، فأنا اعني اشعاع العربية السعودية وهيبتها ، والتي يستطيع ، مع وجود فيصل ، ان يكون السيد الحقيقي للعالم الاسلامي المضطرب الذي يبرز فيه أيضا القذافي زارع الثورات ، والمهدد بارادة القوة او ذاك المصاب بداء العظمة كالشاه . انا اعلم ان اميركا تراهن علينا ، واذا اقتضى ذلك تطمين اليهود فلنطمئن اليهود .

لم تكن عند كمال اية نزعة من تعصب ديني ، فلقد ولى منذ زمن ذلك الوقت الذي كان يأمل فيه ان يلاقي المـلاك جبريل ، كما لاقاه النبي محمد (صلعم) . ولقد تعامل ، اكثر

من مرة مع اليهود ، عبر الشبكة المعقدة ، من المال والسلطان. وصرح ، ذات يوم ، « للنيويورك تايمز » ، واحد من اكبر المتمولين في « وول ستريت » ، وهو « تيودور داري قوس » نفسه : ان كمال عبد الملك يمكن ان يعتبر اكبر رجل اعمال عربي في عالمنا المعاصر ، وتستطيع اميركا ان تضع ثقتها فيه .

ولم يكن السعودي يكف عن نصب الافخاخ . وذلـك بعملية نقل الاسهم ، وقد هدد كبار المتعاملين اليهود بسحب اموالهم ، عندما علموا ان هناك عربيا ستؤول اليه المراقبة في هذه المؤسسات ، وفضل كمال التخلي عن هذه العملية .

اما في الجزيرة العربية ، فقد كانت النظرة الى عمليات السعودي البارعة تختلف اذ ان رؤياه التي تغطي كوكبنـا الارضي ، ان في التجارة او في السياسية ، كانت تثير ضده بعض الكره والحسد ، عند المحيطين المباشرين بالملك . وكان يبطل ذلك كله عندهم بقوة ملايين الدولارات .

فقد كان البخشيش في سبتمبر (ايلول) ١٩٧٣ مـا يزال سلاحا مطلقا .

واعاد كمال بصوت هادىء :

— انا لا افهم . ما الذي يجري ؟ ما الذي تغير ؟ فقـد كنت اول من فتح العربية السعودية للاميركيين ، وحميـت طائراتهم ، ورادراتهم ، ضد كل المزاحمات الاجنبية . اذن ماذا ؟

قبل العشية ، كان « بيل » يقرع الباب « ٤ أ . ٨٢ » في البنتاغون ، وهو مكتب المفاوضات الداخلـي للشؤون المتعلقة بتموين الجيوش ، وكان مرتاحا جدا في هذا المكتب

المصنوع من المعدن والاسمنت الذي تسيطر عليه هيئة اركان حرب مغفلة الاسماء ، ولم تكن هي التي ترسم الاستراتيجية الاميركية العليا وانما كانت مكلفة بتطبيقها يوما فيوما . ومن هناك كان ينطلق الضباط المؤتمنون من قبل وكالة الاستخبارات الاميركية « سي آى أى » على تسوية الحساب مع الدكتاتوريين المزعجين او بالعكس ، على اجلاس الاصدقاء المفلسين على اريكة من الدولارات .

نادت السكرتيرة الشقراء ، ذات النظارات الكبيرة ، السيد ياسين بأسمه الاول . وجعلته ينتظر بضع لحظات .

ـ سيستقبلك الكولونيل حالا .

كان الكولونيل بريغ في بذلة الفلانيله . يحتفظ بهيئة لاعب البولو (١) العائد لتوه من النادي .

ـ ما هي الامور العالقة يا بيل ؟

كان بريغ مطلعا . فهناك صفقة تتعلق بست دزينات من الـ « ج ٥ » وثلاث اخرى من طراز « تيجر » ولا يمكن ان تتم الا بواسطة لائحة تصدير تحمل توقيعه . وراح يشرح لـ « بيل » :

ـ ان اللوائح لم تصل الى عندي ، وتجار الطائرات أنفسهم قد اختفوا . توجه اليهم .

واشعل الكولونيل غليونه وراح يتطلع الى بيل من وراء الشعلة ، وافهمه بكلمة واحدة ما لا يستطيع قوله :

ـ الاوامر تأتي من فوق .

---

(١) لعبة رياضية اميركية .

وصدرت عن كمال حركة تدل على نفاد الصبر وقال :

ـ اذا كانت الاوامر تصدر من فوق يا بيل ، فان من السهل ادارتها . فان ما يأتي من العملاء لا يمس الارض .

وغالبا ما كان رجل السعودية يتكلم كبدوي ، نازعا سلاح خصمه بحجج لا تقاوم . وتأكد ياسين ان اللحظة قد اتت ليرد له الكيل . واصغى له المعلم :

ـ انت تعلم أن نيكسون يعاني المتاعب .

ـ هل تريد الحديث عن تلك القصة المتعلقة بووترغيت؟ انا لا أرى علاقة لها بالامر .. وكان بيل قد قام بتحرياته ، مع مديري الشركات الكبرى العاملة بالملاحة الجوية :

ـ ووترغيت ، انها دون شك دسيسة ، مدبرة على نيكسون للتشهير به ، ولجعل الرئيس يتأرجح في الفضيحة .

ـ انا لا أرى ابدا علاقة لذلك بالامر .

ـ ومع ذلك ، فالامر بسيط ، فان الادارة الاميركية اخذت تهتز من فوق الى تحت . وخوف الفضيحة يشل كل عملية ان لم تكن ناصعة البياض . الـ « سي آي أي » ، علقت معظم مهامها والصناعات الجوية يقظة والكونغرس اطلق لجان التحقيق لتدس انفها فيخزائن المال ، في شركة « ويستورب كاليفورنيا أفييشن » وغيرها . انهم خائفون .

ـ خائفون لماذا ؟

وافصحت ابتسامة كمال من تحت شاربه الاسود عن براءة فجائية .

ـ انهم خائفون من ان يتهموا بسكب أوعية الخمر . وانا أقول لك ان اللجان التي شكلت هي على مستوى لم

يسبق له مثيل .

— انا لا ارى ذلك.

وراح كمال يفكر بحدة . وتابع بيل قائلا :

— لنفترض ان الامور سارت كما نشتهي ، وان الصفقة وصلت الى ٨٠٠ مليون دولار ، وان عمولتك كوسيط مع الحكومة السعودية سترتفع الى ٤٥ مليون دولار ، تسقط منها الـ ٥٠٠ الف الضرورية من اجل اقناع عدد من كبار الموظفين السعوديين بأفضلية الطائرات الاميركية . ستقوم لجنة التحقيق برواية هذه القصة للصحف ، وهذا يشكل فضيحة ، ضمن المناخ الذي خلقه افشاء قضية «ووترغيت» . وهذه كل القضية .

ومنذ زيارته الاولى الى « ارشيبالد وايت » ، واتت السعودي فرصة مرات كثيرة لمجابهة مطبات الديمقراطية ، وافخاخ الصحافة . وكان يخرج منها منتصرا ، على عكس اولئك السادة الذين يدفعون من اجل نشر وقائعهم اليومية، ولا يستطيعون مقاومة اغراءات المجد .

— بيل ، يا كبيري ، في حال استنادنا الى ٤٥ مليون دولار ، دعني آخذ الامر بيدي ، وانا اعدك انها ستكون موقعة قبل ثمان واربعين ساعة ، وسأكرس وقتي لذلك .

واخذ بيل ، يمسح نظارتيه دون اعتراض ، فانه كان يفكر من وقت طويل بأن المذلة هي مفتاح كل نجاح . وليست هي المرة الاولى التي يكون سيده فيها على حق تجاه الوقائع الحتمية .

— دعني افعل .

وبهدوء اعصاب ، خفض بيل عينيه ، وكان عطر الصندل القوي ما زال عابقا في الحجرة . كان اعياء عميق يميز نظرات المعلم ، الذي بدا انه يدخل في طور آخر في تلك الآونة . كان عاري القدمين ، يعطيه ثوبه النقي مظهر مبشر لهم . والاغرب من ذلك ، هو انه مع بقائه في ذاك الوضع ، كان يستسلم بعد لحظات الى شهواته ، التي تسخو بها التايلاندية الخبيرة بمداعبات الشرق . لم تذهب به افكاره نحو الميتافيزيك بل نحو الارقام والسرعات القياسية التي كانت تتابع في رأسه . فبعد مجابهته ، ولاول مرة ، بمقاومة اميركية لم يستطع معرفة اسبابها ، اعد في بضع ثوان استراتيجية جديدة او نستطيع القول : سيناريو .

وتمطى كمال متثائبا بلامبالاة ، كما يفعل دائما في اوقات العمل وقال :

— بيل ، ليس لدينا من الوقت ما نضيعه ، ابعث اخطارا لسليمان .

— ولكنها الساعة الثانية صباحا . قال بيل ، وهو يشد فكيه كيلا يستسلم الى النوم .

— هذا صحيح ، ولكنها في الرياض ، لا تكاد تكون الساعة الثانية بعد الظهر . سنمسك بالامير قبل ذهابه الى القيلولة .. سوف تطلب لي بعد ذلك مايك لوثنر في واشنطن واظن ان الناس في واشنطن يشتغلون الى وقت متأخر .

واحتج بيل ، بخجل ، فقد سبق له ان حاول ثلاث مرات الحصول على مستشار الرئيس .

– هذه المرة ، ستطلبه باخطار من قبلي ، وسأتكلم معه بنفسي .

وركز بيل طرف حذائه ، وسأل :

– وبعد ذلك ؟

– ستطلب لي جاك روسل ، عند « ويستروب » .

– المسؤول عن الخدمات الخارجية ؟.

– انه هو نفسه ، ولكن انتظر افتتاح المكاتب .

ما كان ياسين بحاجة لمتابعة تعرجات فكره ، ليعرف ، ان السعودي رغم الظواهر ، يسير نحو هدفه ، مسيرة الباز او الصاروخ .

– بعد ذلك ؟ قال ياسين بخضوع :

– ستحجز لليلتين ، اربع شقق في فندق « سيزار » في « لاس فيغاس » اعتبارا من مساء الغد . واريد ايضا طاولة من أجل اثني عشر شخصا في « النايت – كلوب » ، وان يحجز لنا الصالون البرتقالي . واستدرك المعلم ، وستحمل المال اللازم بعد الظهر ، يجب ان يكسب ضيوفي واذا خسروا فأن ذلك لن يكلفهم شيئا .

وأظهر ياسين ارتيابه . لكن المعلم تابع :

– اجمالا ، ستطلب ان تنظم لي لعبة قمار في فيغاس.

– بالضبط .

وبدت نظرة نقدية عبر نظارتي « بيل » ، الذي قال :

– وعليك ان تحسب لدعوة مايك لوثنر .

رفع كمال بصره نحو السماء . بالتأكيد عليه ان يحسب لدعوة مايك لوثنر . فالقمار يجري في دمه . فبواسطة ورق

اللعب والكشاتبين ، والروليت ، تستطيع تجريده من اية مقاومة . فالانتماء الى البيت الابيض لم يعصم اي انسان من التجارب .

وعبرت عينا ياسين الجامدتان عن عدم موافقته .

– هيا ، يا بيل ، لا تركب رأسك ، فاذا كنت تستطيع وضع الامراء في جيبك ، بواسطة افلام مريبة ، فلا تأخذنك الاوهام حول الطبيعة البشرية .

ربما كان ياسين يفكر بأن اميركا غير العربية السعودية: لقد كان على خطأ .

* * *

الفصل الثامن عشر

من ليون الى اماليندا

— كانت «سنتيا فوكس» ، عاملة المقسم التلفوني تقرأ « آلـة الحب » بلذة ظـاهرة وهي آخـر روايات جاكلـين سوزان . وقد أثارت لديها الكثير من الافكار .

فخطيبها ، الذي كان عامـــلا في تركيب الآلات في «M.G.M.» « مترو غولدن ماير » ، لا ينقصه شيء من هذا ، فقد اقترح عليها ممارسة الحب عند « ماستر وجونسون »، الاستاذين الكبيرين في علم الجنس الاميركي .

— سترين انه شيء رائع . سوف يضعون في عنقـك تيارا كهربائيا ثم تستطيعين ان تلاحظي كل ما يحدث في بطنك . وعندما تشعرين باللذة فان جرسا يقرع . انه مثل تدحرج الطابات في البليار الاميركي الكهربائي ، او انبثـاق النقود من الماكينات الكهربائية عندما يربح فيها اللاعب .

كان الصمت الكبير يخيم على هضبة الـ «البيل — اير»،

وكانت هناك ، ضفادع ، ونجوم . وكانت سنتيا تتابع ذلك من نافذتها المفتوحة ، وتحلم بالاماني . وتطلعت الى ساعتها . فقد كانت تشير الى الرابعة صباحا . بقيت ساعتان للانصراف . ان ممارسة الحب عند « ماستر وجونسون » شيء مهم ، ان لدى هؤلاء أفكارا حسنة .

كانت الاشارات الحمراء ، للنداءات عبر الاطلسي ، تسطع احلام عاملة التلفون « نداء من لندن » . وعلى الطرف الآخر من الخط كان صوت امرأة عذب واجش ، يشير الى ثقة كبيرة بالنفس ، يطلب كمال عبد الملك .

— يا صاحب السعادة . انه لك .

كانت عاملة التلفون ميالة الى البروتوكول ، فهي منـذ رات كمالا في العباءة والكوفية — وقد كان جميلا جدا هذا الزي — لم تستطع ان تصمم على مناداته ببساطة يا سيد .

— « ايوه » اجاب كمال .

يا له من حظ . انه سيتكلم العربية .

— لقد استدعيتك هذا الصباح . اين كنت ؟

وبدا ان آمالا تفتش عن كلماتها :

— كنت في باريس .

كان كمال يمقت طرح الاسئلة على زوجته . لمـــاذا باريس ؟

— هل أوصيت على أثواب أيضا ؟

وتلقى بقلب مفتوح ، عبر الاطلسي والقارة الاميركية ، ضحكتها الرنانة ، والشهوانية ، المهينة من جهة والملاطفـة من جهة أخرى . فهي ما زالت تثيره بعد هذه السنوات

الطويلة ، التي بذرتها بالاكاذيب والخيانات .

كان يحدث ان تقهقه النساء العربيات مع بعضهن بعضا . ولكنهن ما كن يضحكن امام الرجال ابدا .

وعادت آمال الى الحديث بالانكليزية . فأرهفت عاملة التلفون سمعها :

— كيم ، همست آمال ، بصوت رشيق ، هل ستصبح غيورا ؟

هذه النبرات ، من سيدة مجتمع ، لا تشبه مطلقا الارنبة القديمة الملتهبة حبا ، عندما كانت في « بلاي كيرل » . وشد كمال اليه التايلاندية الصغيرة . وبعد قليل من ذهاب بيل ، كانت ليون تعود لتندس في سريرها ، وبدت كأنما هي نائمة ، وكانت يدها الصغيرة ما زالت عند السعودي . كان البدر يغرق البنغلو بأضوائه . والصوت البعيد جدا والقريب جدا ، كان مشبعا بكهرباء شهوانية . وما كانت تقوله لا أهمية له . انها صلوات باطلة ، انه هذر الكلام ، وخداع النظر عند آمال ، التي تمجد « ديور ، وانكارو ، وشانيل » كمن يردد مقطعا من اغنية ذات كلام مكرر ، لا يؤمن به ، فهي التي حفظت آيات قرآنية عن ظهر قلب كي تتزوج كمالا . وأغمض عينيه ، فرآها ، والسوط في يدها ، على رصيف « البوند ستريت » . كانت ليون بالقرب منه حارة مستسلمة ، تتنفس ببطء . كثير من النساء قدمن له طقوس الطاعة ، نساء بلاده الجامدات ، اللواتي طالما سهرن كنار خامدة تحت رماد الحشمة والمكر ، والنساء اللواتي اشتراهن من أزواجهن . والفتيات المستأجرات في الليل ،

وأولئك اللواتي كان يرسلهن ، على بساط الريح ، الى امراء بلاده . ولكن ، كانت لديه هذه ، زوجته التي فرضها ، انها انثى ، قاسية ، قادرة على كل شيء ، ومحرومة من كل شيء . متحدية للقوانين الثابتة في الشرق كتحديها لها في الغرب . ان آمالا ما كانت تمارس الحب الا خارج القانون .

وشعرت التايلاندية الصغيرة بتوتر كمال وهي ما زالت تلامسه .

— آمال ، انني متوتر جدا !

ومن جديد ، عبر الليل والمسافات ، كانت الضحكة الرحبة ، التي لا ترحم ، من زوجته الانكليزية ، تثيره بقوة هائلة .

— كيم . انا ايضا ، لدي الرغبة .

من تراه ينام ، هذه اللحظة ، قربها ؟ ان فترة بعد ظهر اليوم تكاد تبدأ في لندن . لكن ليس لدى آمال ساعة مخصصة للحب .

وسبقته قائلة :

— يوجد فتاة في سريرك .

لم يكن ليؤدي حسابا ، فأعفى نفسه من الكذب وقال :

— كيف عرفت ذلك ؟

واغرقت ليون الصغيرة في اثارة كمال . .

— انني أتوقع ذلك .

واطلق ضحكة فيها من التحدي ، أكثر مما فيها من السرور . فقد كان كمال قد اصيب بأكثر امراض الغرب خطورة ، الحب . وفكر ان الرجال العرب ما كانوا ليعيشوا

بمعزل عن فيروس الغرام ، الا بسبب الظروف والمسافات ، او ببساطة ، بسبب الجهـــل الذي يبقيهم بمعزل عن ذاك المخلوق الشيطاني ، الذي اعتقته القوانين والعادات التـي خلقتها المدينة الصناعية .

ولم يكن اخوانه في الدين ، الشرقيون ، ملقحين ضد هذا « الفيروس » ، فكان كثيرون منهم يفقدون رشدهم ، عندما يقعون بين براثن النمور الغربية ، وهذا ما حصل له . فلقد نقلت آمال ، الفيروس اليه في الحال . لقد سكنت فيه كالرصاصة في الجسد . ولقد جرب معها كل شيء . فمن أجل أن يغرقها بالحلى ، اكتسب صيته بأنه « أكبر مشتر للالماس على وجه الارض » . واعتقد انه بهذه المشتريات ، يضعها تحت رحمته ، في الوقت الذي كانت تفهم كرمـــه بشكل آخر ، الامر الذي اعطى نتائج عكسية لذلك كله .

كانت الغيرة تعذبه ، ولكنه كان يجتهد في اخفـــاء هذا الشعور الذي يخجل منه . ولكونه تلقى لقاح العصرانية الاميركية ، فقد كان على استعداد لان يقبل باتفاق شامـل متبادل بشأن الحرية ، وبناء لمبدأ « انت تقبل ، انا اقبل »(1) ولكنه ، ما كان يقبل عند التطبيق الا القسم الذي يستفيد منـه .

ـ هل رأيت سليمان ؟

ولاحظ بعض التردد عند آمال .

---

(1) تعبير اميركي شائع :

ـ نعم ، قالت ، فلقد مر في لندن بسرعة الريح .

ـ وما الذي حصل ؟

ـ انت وهو .

وبدت كأنها وقعت في الفخ .

ـ بالنسبة للتقنية ، لا بأس بدماغه ، ولكنني افضـــل عواطفك .

ـ وهل هنالك من شيء آخر تفضلينه ؟ قال ذلك وكأنه الان يدخل في اللعبة .

ـ بالطبع يا حبيبي . فانت تعرف جيدا انك لا تقارن من هذه الجهة ، فما لديك مثير ، مثير جدا ! لا يوجد الا واحد منه في العالم ، اسأل الصغيرة التي تنام قربك الآن، ما رأيها فيه ؟ انني استعجل عودتك لملاقاته !

طريف هذا السؤال . الى أين يعود ؟ لديه اثنـــان وعشرون بيتا في انحاء العالم ، كما لو قلنا لا بيت له . فمنذ بضع ساعات كان حاضرا لملاقاتها ، والآن يكفيه أن يسمعها . كانت معذبته . وحدهما كانا يقدران هذه القشعريرة ، وذاك البرد القارس الذي يعتريه ، رغم طراوة الجو . كان يمسك بخيوط امبراطورية واسعة ، ويلهو بالثروة والسلطـــان والحكومات : ومع هذا ، فما اطمأن خاطره الا عندما اتصلت به زوجته اخيرا . كيف لا وهو الناشيء على احتقار النساء .

ـ انتهى ؟ سألت السيدة فوكس .

وما ان أقفل موظف الهاتف ، حتى وصل كمال جهاز التلفزيون الداخلي عنده ، ببنغلو عبدو ، وبرزت على الشاشة

هيئة المدلك السمين كأنها الاعلان . لم يكن نائما ، كان يبتسم .

ـ الكل جاهزون ، يا سيدي . وقد وضع « بارنت و جو » تصميم الرحلة .

وبقي اللبناني يبتسم ، ولم يبد اي اندهاش ، عندما فاجأه كمال قائلا :

ـ لن نسافر .

الفصل التاسع عشر

ووترغيت ومستشار نيكسون والعرب

كان مايك لوثنر هو الذي اختار الحي البورتوريكي ، حيث يقطن في جانبه الشرقي مراهقون غير مهذبين ، ولا يخلو من العنف في أزقته ، ومع ذلك فان رؤية الزبد المتلألىء وراء السفن ، أو فاتنة تعبر في باخرة ، كانت كافية لتجعل من مسكن العزاب هذا ، الذي لا يخلو من قذارة ، ملاذا ومرتعا للهو .

ـ لكن ما بك ؟

وحاولت بربارة ان تجعله يترنح فوقها ، بدل ان يكور كله فوق بطنها ، كان الاثنان عاريين . وكانت هي ما تزال جميلة ، فمنذ ثلاث سنوات فقط كانت وكالات الشارع الخامس تدفع لها بسهولة ٥٠٠ دولار في اليوم ، لقاء وجنتيها المضيئتين ، وشفاهها الغاوية ، وزوج من الافخاذ ، وهو ما يكفي لكي تخلع عنها ثوبها المتواضع ، ثوب زوجة

ذاك الصاحبي(1) المتدين .

— لا أدري . فأنا لا استطيع ابدا ، لا ادري ماذا لحق بما لدي !

وكان يحرك بارتخاء ، ذلك الشيء المسكين الذي طالما كان يستخدمه للجنس . وقالت بربارة :

— عندما افكر ! بالكاد اشعر اني بحاجة الى مداعباتك .

وغمست لسانها بحرارة في اذنه ، وبقي باصرار نائما على ظهره ، وعيناه مسمرتان بالسقف تعدان ما به من لطخات .

وأمسكت بنهديها بجماع يديها ، ورفعتهما ، وكانما كانت تفعل ذلك لتطمين نفسها وقالت :

— مايك ! لست الا ابنة الثلاثين سنة أتعرف ؟

— انا اعرف .

— أتفهم ما أريد قوله ؟

— انا متعلق بك يا بربارة ، وجماعك لنفسك يؤلمني جدا !

— انا لم أجامع نفسي ، ولا استطيع مجامعة نفسي ، اني أحبك ، لكنني أريد ان افهم !

— تفهمين ماذا ؟

— ان هذا ليس من عادتك يا مايك !

فقد كان هذا هو الفشل الثالث منذ بداية الاسبوع ، وصار مايك لا ينام قرب بربارة الا مع وساوسه .

— ماذا فعلت هذه الليلة ؟

---

(1) ينتمي الى فرقة بروتستانتية تدعو الى السلام .

وعض شفته السفلى ، لقد جامع ، وهذا أسوأ ما في الامر .

— ذهبت الى ٩٣ .

— ومن الطبيعي انك خسرت . وحتى اية ساعة ؟

— هل هذا استجواب ؟

ونهض غاضبا بشكل حاد .

— اصغي يا بربارة ، عندما يكون معي ٢٠٠ دولار في جيبي ، وعندما اضعها على مائدة خضراء ، وعندما يزايد من يقابلني ، فأنا مضطر ان اعلن الـ ٤٠٠ للتجربة ، وعند ذاك استطيع ان اقول لك ان شيئا ما يحدث في سروالي ، وهذا اسوأ ما في الامر . واذا كنت املك ١٠٠ دولار ، وكنا نلعب بـ ٤٠٠٠ ، وكنت أخاطر بانتاجي السنوي ، فان هذا الأمر صعوبة ايضا .

— ان هذا ما تنعم به الآن اذن ؟

كانت بربارة تتألم ، فان أية امرأة اخرى كانت تستطيع ان تدافع عن نفسها ، ولم يمكنها تدارك الخلل ، ولم تعرف ما الذي يدفعه للذهاب الى نادي قمار الـ ٩٣ ، فهو شاب ابن الاربعين عاما ، وله جسم البلاي بوي ، ومستشار في البيت الابيض ، وابن عائلة ، ومدلل من قبل الحزب الجمهوري ؟

— كم خسرت ؟

— اكثر مما اربحه في عام .

— وكيف تفكر في تسديد ذلك ؟

— ما زال لدي بيتي في واشنطن !

— وزوجتك ماذا تقول في ذلك ؟

— زوجتي تقول انني دنيء لان لي عشيقة ، ولان شخصا مثلي يجب عليه ألا يضاجع فتيات الغلاف .

وكانت بربارة تعتصر قبضتيها ، وهي على حافة البكاء، ومع ذلك فقد هدأت لان رجلا يخسر انتاجه السنوي في ليلة واحدة ، لا يمكن له ان يستثار .

— انا لم أقل لك كل شيء . واعترف مايك بصوت أصم، لقد أعطيت الذي ربح علي في القمار ، شيكا دون رصيد في الاسبوع الماضي .

— وهل يلاحقك ؟

— ان الامر أكثر فظاعة ، فهذا الانسان هو شخصية مهمة في الحزب الديمقراطي ، ولقد اتصل بي تليفونيا في البيت الابيض واقترح علي تسوية ما .

— وتم كل ذلك تلفونيا ؟

— لقد جاء لمقابلتي .

— انه مع ذلك لطيف .

— لطيف جدا . وانا اعلم ان من لها فخذين كفخذيك، ليس لديها بالتأكيد رأس سياسي ، ومع ذلك حاولي ان تفهمي ، انني مستشار رئيس الولايات المتحدة . والديموقراطيون يفعلون اي شيء ليضعونا في الاوساخ خاصة وان هناك الآن قصة ووترغيت الغامضة .

— وما هي هذه ؟

— عندما تكونين انت عشيقة المستشار الخاص للرئيس نيكسون ، فانك يا عزيزتي تعلمين ما هي هذه القضية !

— انت تمزج الامور ، يا عزيزي ، فالسيدة ، زوجتك، هي التي تقرأ الجرائد الرصينة .

وراحت تداعب شعره الذي كان طويلا ومجعدا ، وترسم بأظافرها على فخذه القاسي المغطى بالشعر الاسود ، رسوما زخرفية . كانت تشتهيه ، وفجأة احست ، على وركها بشيء رطب وحار .

— حاولي ان تفهمي ، يا بربارة ، فان ما يجري هو في الحقيقة مزعج جدا ، فانني لو شئت تفادي الفضيحة فليس لدي الا ثلاثة ايام للدفع .

— استدن !!

— ممن ؟

— انا لا اعرف . من كل الشخصيات التي تعرفها . يمكن من العرب .

وبقفزة ، وقف مترنحا خارج السرير .

— يا الهي ... بربارة ، اين وضعت التلفون ؟

وادار قرص التلفون ، طالبا رقم هاتفه في واشنطن . تطلع الى ساعته .

— ليز ، اما زلت هناك ؟ اني خائف . مـاذا يدعى الشخص الذي طلبني في لوس انجلوس ؟

— انه بيل ياسين . وسوف يبحث الموضوع غدا .

وسوى مايك قميصه ، الذي يلبسه فوق سروال « كلسون » ازرق باهت . واشعل سيكارته المسائية الاولى، وقال :

— العرب ، العرب ، يمكن ان تكوني على حق يا بربارة.

ورغب في اخذها بين ذراعيه ، ونعرى من جديد . وراح يمارس معها الحب .. ففاتته آخر طائرة متوجهة الى واشنطن .

* * *

كانت للسنجاب عاداته ، ففي كل صباح وفي نفس الساعة ، كان يقفز الى حافة شباك مكتب لوثنر . ومكتبه يشرف مثل مكتب الرئيس على الصنوبرات العملاقة التي تحيط بالبيت الابيض . كانت صنوبرات خضراء داكنة ، مموهة بزخرف الخريف الاميركي الوهاج كأنها وجدت بالغلط .

وحلق لوثنر لحيته في الطائرة ، وكان يلبس التويد الرث ، وعلى وجهه ، ندوب الليلتين الماضيتين : فالليلة الماضية مع بربارة ما كانت الا لتبرز الآثار التي خلفتها ليلة الـ ٩٣ السابقة . ما كان لوثنر بحاجة لان يعلن حضوره ، فالتلفون العربي يعمل جيدا في البيت الابيض . اما ليزا ، سكرتيرته ، التي اخبرت سرا بوصول لوثنر ، فقد جاءت سريعا ، حتى قبل ان يخلع لوثنر بذلته ، وقبل ان يحل عقدة « كرافتته » ليحرر رقبته ، كما كان من عادته ان يفعل . كانت ليزا ، وهي فتاة جميلة من اطلنطا ، ترتدي ازياء غريبة ومضحكة باستمرار ، كانت تنتعل البوط تحت تنورة الماكسي ، وتلبس صدرية من التويد بلون الفريز الفاتح ، وياقة ملتفة ذات لون نيلي . وقد رماها لوثنر يوما بهذه الكلمات :

ـ ليزا ، مكانك هو مع ممثلات الاستديو .

وكان هذا صحيحا ، فليزا جديرة بأن تكون شخصية

مناسبة في تمثيلية من الادب الطليعي المترجم عن التشيكوسلوفاكية ، حيث تخبىء البطلة قنبلة في صدرها ، وتطلب كوب ماء .

كانت ليزا تميل الى الايجاز فقالت :

ـ لقد استدعانا بيل ياسين من جديد ، فماذا افعل او اعاد ذلك ؟ .

واجاب لوثنر ، الذي لم تكن تنقصه السيطرة على النفس ، بعد ان اظهر لامبالاته :

ـ ستجعلينه يمر الى عندي .

ولم تعد ليزا الى وضع الاسئلة ، فان سيدها كان غالبا ما يغير رأيه .

ـ متى يعود الرئيس ؟

ـ اعتقد انه سيمكث هذا المساء ايضا في فيلادلفيا ، هل استعلم عنه ؟

ـ لو سمحت .

ولاول مرة ، طلب لوثنر على خطه الداخلي الخاص انطوني شونبرغ ، وهو المكلف بمهمة تتعلق بوزارة الدفاع في حكومة الرئيس .

ـ طوني ، اين صرنا مع العرب ؟

شونبرغ ، كان نموذجا باردا ، لا يتفاجأ ابدا ، وهكذا فان الفائدة المفاجئة ، التي يبدو ان المستشار الخاص لواشنطن في شؤون الشرق الاوسط ، يحملها ، لم تبد له لا اخلاقية ، وانما هي مناسبة ومنطقية تماما ، بعد اخذ جميع الظروف بالحسبان .

— هذه الفترة او تضيع ابدا .

وكان صوت السعودي بادي الصرامة ، ويعرفه سليمان بما فيه الكفاية ، وبشكل يفهمه ان هناك حالة طوارىء .

— كمال ، افعل ما هو لازم ، ولكن قبل كل شيء ، ارسل لي « تلكس » . وسوف أؤكد لك موافقة القصر .

ولكي يريح كمال محدثه ، راح يثني على لطف الامير . فمن بين المقربين من الملك ، يعتبر سليمان اكثرهم ذكاء ، وواقعية بما يكفي لتمرير المصلحة الحقيقية للدولة قبل دسائس السراي . وكان الوحيد الذي لم يكن حسودا اتجاه النجاح الباهر الذي أحرزه كمال ، لان الرجلين ما دخلا ابدا في مزاحمة ، فان أحدهما كان يؤمن بمقدرة المال بينما يؤمن الآخر بقوة الدم .

وحده تنفس ليون الخفيف عكر الصمت ، فقد كانت تنام وذراعاها تلتفان فوق وجهها التفاف نبتة متسلقة . كما أن النسيم الليلي الآتي من الباسيفيك حرك رؤوس النخيل .

— بيل ، أنت نائم ؟

وأيقظ رنين التلفون الداخلي ياسين من غفوته الاولى . وأخذ وقته ليلبس ثيابه ويعقد كرافتته ، محاولا ان يفتح عينيه قبل ان يمثل امام السعودي . كما كانت عادته . ففي مثل هذه الحالة كان يتوزع بين دماثة متطرفة في نفسيته الشرقية ، وتحفظ متأت من تربيته الاميركية .

— بيل ، يا صغيري ..

لقد كان احيانا « صغيري » واحيانا « كبيري »، حسب المزاج وحسب الظروف . وكان كمال يغطي مساعديه بالذهب كما يغطي نساءه تماما ، بشرط ان يعرفوا الا يناموا .

— بيل ، ستقوم حالا بارسال « تلكس » الى الامير .

وقل له ان الطائرات الثلاث عشرة الاولى ستسلم قبل السادس من اوكتوبر (تشرين الاول) . ضع ذلك موضع التنفيذ . واسرع .

وابتلع ، كمال ثلاث حبات من « الانفيتامين » وهو دواء منبه .

ورن جرس التلفون .

— انه اشعارك الى واشنطن . قالت السيدة « فوكس » .

كان صوت لوثنر شاحبا ويكاد لا يعرف . وراحت عينا السعودي تلتمعان وفضل ياسين اليقظ ان يدير ظهره .

— لوثنر . اني محتاج اليك . اتستطيع موافاتي غدا الى فيغاس .

— الى فيغاس .

الجميع يعرفون كل شيء . وربما كان كمال محتاجا اليه . ولكن لوثنر هو أيضا يحتاجه اكثر ، ويعتقد انه يفعل خيرا لو كان اكثر حذرا في كلامه .

— قل للرئيس اني ألح في ذلك فقد حجزت في «سيزار» أي «القيصر» .

— قل للرئيس اني ألح في ذلك فقد حجزت في «سيزار اي القيصر » .

من بحيرة « ميتشغان » الى خليج لويزيانا ، ومن سان

دياغو الى مونهاتن ، كان فندق « القيصر » يلتمع كنجمة في رأس كل المقامرين الاميركيين . لوثنر كان كمن في فمه ماء . ولطالما حدثوه عن حفلات السعودي الاسطورية ، حيث كان يمنح مدعويه الرهن الاول في القمار . وكان من الممكن ان يكون رمزيا او ضخما ، حسب مزاج ، او نزوات ، او خلفيات ، كمال عبد الملك الفكرية . وغالبا ما كان يعيد تمويل الخاسر الاكبر في آخر الحفلة « في مهنتي يجب معرفة كسب الاصدقاء » . هذا ما كان يقوله كمال عبدالملك .

— سأرسل لك « تاكسي » .

وكانت للقيم معان خاصة لدى كمال ولو على طريقته، فهو لن يذهب الى حد اجتياز القارة الاميركية ذهابا وايابا لجلب شخص واحد من لاس فيغاس . وحسب تعبيره ، فان كلمة « تاكسي » تعني طائرة من طراز « لير ـ جت » ، ذات خمسة مقاعد يستأجرها كمال مباشرة من واشنطن لتنقل الرجل من البيت الابيض .

— عليك ان تهتم بكل ذلك ، يا بيل . حرك من اجل ذلك كل السكرتارية ان لزم الامر . وتأكد من صفات المضيفة. وحاول ان تكون السيدة جونس ، واذا كان لوثنر كثير الانهماك ، فان عليها ان تبدو صامدة .

— حتى النهاية ؟ سأل بيل بابتسامة رقيقة .

— أثناء وقت الطيران ، على الاقل .. وما كان المعلم ليهمل اية تفاصيل فقد كان « الانفيتامين » يعطيه اجنحة يحلق بها .

— احضر مصطفى . قال كمال لبيل .

ووصل الحلاق بثوبه الذي يشبه في لونه لون الزعفران، حاملا حقيبة من جلد التمساح ، تحوي لوازمه . واستلقى على الاريكة المتأرجحة ، والمكسوة بالجلد ، واخذ يبلل له ذقنه بينما كان هو يشعر أن الوقت ، قد حدد بدقة في هذه المرة .

❊ ❊ ❊

— من سائل الى سائل دائما . قالها المعلم ، وقد حدقت عيناه ببريق حاد .

وكان مصطفى قد فتح امامه الصندوق الجلدي الاسود ، المزين بالشارات السعودية . والذي كان يضم ثلاثة الاف من قطعة المائة دولار .

وكان عبدو واقفا خلفه يبتسم بانشراح ، يحيط بوجهه شاربان اسودان ، وكان يتولى تجاعيدهما الانيقة ، بمكواه السحرية . ثم قام بدوره بوضع صندوقين مشابهين على مكتب الصراف الرخامي والمذهب . واخرج منهما ثلاثين من الرزم المربوطة بخيوط فضية . كان يتسلى بأرجحتها بأطراف اصابعه ، مثلما يتأرجح رقاص الساعة . وكان ثلاث سكرتيرات ، تنتظرن ادوارهن ، حاملات صناديق صغيرة سوداء مملوءة بالفيش الخضراء التي تحمل رسم جورج واشنطن .

هكذا كانت العادة في لاس فيغاس ، في كل مرة ينظم فيها كمال لعبة قمار ، كان ينقل مسبقا المبلغ المقدر لتغطية

خسارته المحتملة ، وخسارة مدعويه ، وبهذا يتجنب الصيغ القليلة السرية في الحسابات المصرفية .

ـ هذا يشكل مبلغا يساوي مليونين وسبع مائة ألف دولار .

كانت نصف ساعة من الوقت كافية لامناء الصندوق الثلاثة في اوتيل « القيصر » لحساب المبلغ ، وهو المبلغ الذي يسمح لمجموعة كمال الصغيرة ان تدير شؤونها حتى الفجر .

وفي الساعة الواحدة صباحا ، انطلقت طائرة الـ « لير ـ جت » التي استأجرها كمال ، مثل جواد اصيل قبل ان تنزل الى المدرج . كان مايك لوثنر يرتدي السموكن وكمال ايضا ، وتعانقا بحرارة . كانت المدينة القريبة التي تحتضن الصحراء ، تذكر كمال بمكة . والواقع ان فيغاس كانت غوطه وسط العالم الاميركي . وصناعتها الوحيدة : بالروابط التقليدية الغامضة بين فيغاس والمافيا .

وبعد ربع ساعة ، كان الرجلان يدخلان القاعة العملاقة في فندق « القيصر » ، الذي كان أكثر الفنادق اثارة للدهشة في لاس فيغاس ، بتماثيله الرومانية الضخمة ، التي تثير الذكريات في نفوس أولئك الذين هم أكثر معرفة بالروابط التقليدية الغامضة بين فيغاس والمافيا .

ـ لسنا متعبين كثيرا ؟

قالها لوثنر وتمطى .

وكان قد نام في الطائرة مدة ساعة ، قبل ان يوقظه

صوت السيدة « جونس » الموسيقي . والسيدة جونس هي سيدة قاسية اكثر مما هي فطنة ، كانت تتمدد على الاريكة الليّنة الموضوعة في مؤخرة الطائرة . وما كان لوثنر بحاجة لتعريتها ، وما كاد يرفع لها ثوبها ، حتى أخذت الطائرة بالهبوط ، وانبعث النور من الاشارة الضوئية فوق رأسيهما كانت المضيفة تصلح وضعها وتقول : « لنربط احزمتنا حالا » .

ـ سآخذ كاس سكوتش ، قال مايك ذلك وهو يخفي تثاؤبه .

ـ خذ هذه انها افضل .

ومد له كمال يده ، بكبسولتين من الامفيتامين وابتلعهما دون ماء .

ـ مشي الحال !

كانت ترتسم على البـــاب المزدوج بطريقة التسجيل التاريخي ، كلمات تشير الى اسم الشقة : « سيناترا سويت » . وعبر ستائر الموسلين اللدنة ، كانت تتوهج انوار لاس فيغاس الساطعة : فتيات « النيون » ، نوادي القمـــار ، البيـــت الذهبي فيها ، وبنايات « هوارد هيوز » ، فريمونت ستريت المتلالىء ، انها ميتولوجيا ، تواكب نجومها محتويات العالم السفلي .

تقبل لوثنر الصورة ، فحتى صالونات البيت الابيض ليس لها ابعاد هذا الصالون . واخذه كمال من ذراعـــه ، على طول الدرج الذي يؤدي الى اربع غرف تتوزع حـــول درابزين من الفولاذ .

ـ أنت في بيتك . قال كمال .

كان السرير كبيرا الى درجة انه يتسع لثلاثة اشخاص.

ـ لقد أنزلت السيدة جونس في الغــرفة الليلكية ، وآمل ألا يزعجك ذلك . آه نعم ، هناك ايضا كريستيـــل وغابي ، وهما فتاتان مدهشتان .

ـ هذا كثير . اجاب لوثنر ، مندهشا ومستغربا !

وابتسم كمال .

ـ للمسلم الحق في أربع نساء وليس لديك منهن الا ثلاث ، وسوف يكون هذا مطهرك .

ولكن كانت لدى لوثنر ، في تلك اللحظة رغبة عارمة للمقامرة ، فتساءل :

ـ متى نبدأ ؟

بعد ساعة . في الاكثر .

ولقد طمأنت كمال هذه العجلة . فاتجه الى شقتــه واستدعى ياسين .

ـ والآن اننا نسير على الصراط المستقيم يا ياسين وما تبقى لنا هو الاصعب ..

ـ انا افترض انه سيربح ؟

وكانت سخرية ياسين تضايق السعودي . فقال :

ـ لا تردد مثل هذه الحماقات . فنحن لم نزر بعـد الروليت في فندق « القيصر » .

ـ انني اذن ، لا اتبين الامور جيدا ..

ـ ليخسر او ليربح ، فذلك لا أهمية له . فانا اعرف ان لديه متاعب مالية خطيرة . وأريد ان يتخلص منها . ولا أريد تقديم المساعدة المباشرة له .

ـ والطائرات ؟

ـ لن نطلب منه شيئا فهو يعرف ما عليه ان يعمل .

وكانت الروليت في فندق « القيصر » تتفرد بأن كل لاعب يلقى منها فيشات لعب ذات لون خاص . كل كان له لونه اذن وكان عدد اللاعبين محدودا ، وكانت قيمة الفيش تحدد من قبل اللاعب نفسه ، ويمكن تعديلها اثناء اللعب ارتفاعا او انخفاضا .

ـ الامر بسيط جدا ، يا بيل . فكل تعديل يطلبه لوثنر، يوضع في حسابي ، اشرح هذا الامر الى مدير الصالة .

ـ خذوا اماكنكم أيها السادة ، قال كمال .

وكانت ادارة الفندق قد زينت ، وبحرص شديد ، القاعة على الطريقة الشرقية ، فجعلت الطنافس السميكة بين الالات الجهنمية التي كانت تطقطق في الصالونات المجاورة . وكانوا هم فقط الذين يخرقون من وقت لآخر الزمجرة المتصاعدة في هذا النادي الليلي .

وكان كمال ، امام الطاولة الخضراء ، كمن يرعى قداسا ، يتصرف بهدوء العالم الديني . كانت الفيش ، عند بعض الارقام ، تتكوم امامه على شكل ابراج صغيرة وكبيرة. ثم يملي اوامره بصوت هادىء ، ملهم .

ـ الـ ٧ والخيول ، جارات الصفر ، الحد الاقصى الى ٢٦ .

ثم راح يكمل هو نفسه اللعبة ، وهو يرش الطاولة .

واستدار نحو لوثنر وقال :

ـ مابك ما هو تاريخ ميلادك ؟

ـ الثاني من مارس (اذار) ١٩٣٦ .

وكانت الكرة قد بدأت تدور في الاسطوانة .

ولكن كمالا كان لديه ما يكفي من الوقت لان يشحن ، حتى الحد الاقصى ، الـ ٢ والـ ٣ والـ ٣٦ ، مع خيولها ومستعرضاتها ومربعاتها .

ـ ٣٦ ، اعلن مدير اللعبة .

وقد استوجب دفع المبلغ الى كمال بضع دقائق ، فقد ربح ، ٢٨٠٠٠٠ دولار بضربة واحدة .

ـ هذه تخصك . قال ذلك الى لوثنر وهو يدفع جبلا من الفيش .

ـ حلت عندك البركة .

وفي نهاية الليل ، لم تعد عند لوثنر أية هموم .

* * *

واستيقظ في سرير ضخم من طراز ، « سيناترا سويت » . كانت غابي الى يمينه وكريستي الى يساره . وشعر كأن صدغيه ممسوكتان بملزمة ، ونزل دون ضجة الى الصالون . وألقى حبتين من « الكاسلزر » في كوب من الماء . اما السيدة جونس فما كانت تستطيع الانتظار ، قال « لير ـ جت » يجب ان تعود الى واشنطن في نفس اليوم .

ـ شمبانيا . شمبانيا . صاحت الفتاتان .

وكانت تلك صيحة الصباح ، فلقد كانت الساعة تشير الى الثالثة بعد الظهر . وكان سروال « كلسون » مايك لوثنر الازرق السماوي ، مثيرا للفضول ، خاصة اذا أضيف الى

الديكور الذي قضى بوضع كل شيء في موضعه : التمثال النصفي لسيناترا على قاعدته ، والكؤوس الفضية تحيي ذكرى جوائز الـ « اوسكار دي كرونر » ، وكذلك صورة شمسية لـ ج. ف. كيندي ، وعليها عبارات اهداء منه ، وكذلك صورة اخرى لمارلين مونرو .

وتمطى مستشار الرئيس مزمجرا ، كان راضيا : مع انه يعاني من الصداع ، لكن ٤٠٠ ألف دولار اصبحت في رصيده . وغردت حبات « الكاسلزر » فرحة في كأسه .

ـ عفوا يا عزيزي مايك ، يجب ان اتحدث اليك ، قال له كمال :

وكان السعودي في مئزر الحمام ، وما زالت نقاط الماء ترصع جبهته ، فقد كان يستمتع بالدوش ، ثم يكمله بنفحة من العطر المتواضع الذي يحير ويثير حاسة الشم عند لوثنر .

ثم اردف كمال قائلا :

ـ انت تعرف ، فان المشاريع والحب واللعب ، تتساوى عندي . فالافكار تتوارد لدي عندما يحلق لي مصطفى ذقني ، او عندما أمارس الحب ، فليس لذلك وقت معين . اذن لنر !

وترك كمال نفسه ، يسقط بارتخاء على أريكة مغطاة بجلد نمر سميك .

ـ مايك ، لنكشف اوراقنا ، فأنا أعرف الكثير من الاشياء .

ـ متفقون يا كيم . فاذا أردت ان تحدثني عن طائراتك

فاعتبر ان العملية قد سويت .. وان الطائرات الاولى تستطيع الاقلاع في نهاية الاسبوع .

— الطائرات انها مهمة . لكن هناك ما هو اكثر اهمية يا مايك . فان سيدك يعاني من المتاعب .

— اعتقد ان لديه المقدرة على مواجهتها .

— انني اقل ثقة منك ، يا مايك ، قصة الميكروفونات تلك ، وقصة اللصوص ، تسير نحو الاسوأ ، يجب تحييد اولئك الناس .

— أين هذه الشمبانيا اذن ؟

كانت كريستيل عارية .

— تحييد .. تحييد من .. في اميركا الامر يختلف عما عندكم . تساءل مايك غاضبا .

— كل الناس تشترى . كل الناس تقريبا . الكـــل .

— يوجد منهم الكثير .

— انت تخطىء اذ لا شيء يصمد امام الخزائن السوداء .

— وعندما تكون فارغة ؟

أدارت كريستيل ظهرها ، وعادت تصعد الدرج ، ولم يستطع مايك منع نفسه من الابتسام ، وهويشني على مؤخرتها ، وعلى التناسق في اسفل ظهرها .

وأجاب كمال :

— عندما تكون فارغة يجب ملؤها ، حاول اذن ان تصلح ذات البين ، بين سيدك وسيدي . وأعتقد اننا نستطيع ان نسوي هذا الامر بمساعدتك .

وأوثق كمال حزام مئزره بشدة ، ووقف ليستأذن ،

وطبع قبلة أخوية على خد مايك ، على الطريقة الشرقيــة ، وطلب منه أن يفكر . وفي اعماق فيغاس على حافة الصحراء ، كانت تتلألأ البيوت الذهبية ، وهي الاثر الوحيد في المدينة .

وفي الطابق السابع مــن « دزيرأن » كانت الستائـر تتدلى بعناد على نوافذ هوارد هيوز . وكلاعب ، كان التطير عند مايك في دمه . فارتدى ثيابه ونزل الى القاعة الكبيـرة في فندق « القيصر » حيث تصطف بضع دزينات من ماكينات النقود . وكان عليه ان ينتظر بفارغ الصبر احداها ، ودفع بقطعة نقود في ثقبها ، واغلق عينيه قبل أن يشد على قبضتها بقوة . وعندها دوى رنين الانتصار (جاك — بو) وانتظر ، وقلبه يخفق ، تدفق قطع النيكل .

لقد كانت اشارة طيبة .

* * *

كان الوقت بعد الظهر بقليل عندما استيقظت برباره . كانت تخاف ان تستيقظ وحيدة . كانت تفكر بهذا الدنيء الذي ينبغي ان يكون قد نام مع زوجته . وتخيلت البيت في واشنطن . فهو ذو فتحات كبيرة مقفلة بالزجاج ، تحيط به ارض خضراء ، وصنوبر تقطنه السناجب . ولكن ما الذي عند لوثنر اذن ؟ انه جميل بالكاد ، ومتألق ، وانما اقل مما مضى . فقد عرفته اثناء حملة نيكسون الانتخابية ، حيث ارسلته الوكالة ليمثل بين جميلات الحزب . وبالكاد نظـر اليها واحبت فيه ، فجأة ، نوعا من التناقض الــذي يحدد غموض شخصيته ، فعندما كان فمه يضحك تكون عينــاه حزينتين .

ففي ذلك السيرك حيث كان الناس يلامسون بعضهم بعضا . كان لوثنر الوحيد الذي يحتفظ بمسافة بينه وبين الآخرين .

وفي عربة صغيرة في بنسلفانيا ، حيث يتوقف القطار ، وضعتها الصدفة معه وجها لوجه لبضعة دقائق . ولقد تحادثا . وأفصح لها عن نفس الرعب الذي عندها اتجاه الجماعة ، وعن نفس الولع الذي تكنه للشواطىء السرية ، وعن حبه للمسرة والبوح . وبدأ اتصالهما منذ ذلك الحين ، دون ضجيج ، في ذلك المساء في اوتيل « بتسبورغ » ، تحت سماء محمرة من عناقها لمصانع « الفولاذ » ، كانت مدينة قاسية . اما لوثنر فقد كان رجلا لطيفا .

التلفون .

وما كانت تنتظر غيره . فهو وحده الذي يعرف الرقم .

– أين أنت ؟

– في فيغاس .

– ماذا تصنع في فيغاس ؟

– أصنع ما قلته انت لي : الثروة .

– ربحت ..

– افضل من ذلك ، ولكن هذه قصة طويلة . انا مع كمال عبد الملك .

– انت تمزح !

– انا لا امزح . انما اتبع نصائحك والامور تسير جيدا ، وسأبعث اليك بشيك .

وفي نفس اليوم تلقى خصمه في القمار ، وهو من

الحزب الديمقراطي ، برقية طريقة .. « شيك موافق . ضعه قيد التحصيل » .

وكان موقعا من لوثنر . كان الموقف مثيرا للفضول ، واكثر من ذلك كان مخيبا للظن .

* * *

الفصل الحادي والعشرون

رحلة في الطائرة « ابن مكة »

كان برنت يتمرغ في اريكته المصنوعة من جلد احمر ، في مركز ارشاد الطائرات ، عندما اشعل سيكاره الثالث . واستدار نحو جو ، مساعده ، الذي اترع له الكأس الرابع من مشروب الـ « اولد جوهن » في قدح ذي لون قرمزي .

وقال :

– هل رأيت الساعة ؟

كان فجرا رماديا وفاترا ، قد بدأ يطل على مطار «لاس فيغاس» الفسيح ، حيث اطفئت الانوار ، وكانت طائرة « جمبو » يابانية ، تعبيء خزاناتها بالكيروسين ، قبل ان تحلق فوق المحيط الهادىء .

واذا لم يحدد المعلم وحاشيته ، وقت مجيئهما ، فان « بارنت » سيذهب بعد اربع عشرة دقيقة ، الى الشخص المكلف بالمراقبة ليودعه لائحة طيران جديدة ، وسوف تكون

في المرة الرابعة .

اعطني جلد الشاموا .

وفتح كوة الطيار ، ليمسح الضباب عن الآلة التي تواجه الريح .

لا ، يا الهي .. علينا ان نحب ذلك الشخص .

لم يستطع كمال ابدا ان يلزم نفسه بالمواعيد التي يعطيها ، وكان يحتفظ اتجاه الوقت بلا مبالاة شرقية . فقد كان يجعل رؤساء الحكومات ، ونساء العالم ، والصيارفة ، وعلماء الدين ، والامراء ، والجنرالات ، والثوار ، ينتظرونه بفارغ الصبر . وعندما كان يصل مع حاشيته ، كان يلاقيهم بابتسامة لا مثيل لها ، محملا بالهدايا ، وباعتذار مدهش ينساب من شفتيه . واحيانا كان عليه ان يجابه تذمر السلطونات الهرمة التي كانت تغضب منه دائما . وقد حصل له هذا مع أحد أحفاد بسمارك ، هذا الذي أقام كمال على شرفه حفلة كبرى على متن يخته « خديجة » . وعندما استيقظ بسمارك هذا راح يتوسل « ماركو » كي يقول لمعلمه انه لا ينتظر ، حتى عند « كروب » ما انتظره من اجل كمال.

راح جو يلامس بعناية « الكرونومتر » ، فلقد تلقى عند منتصف الليل أول لائحة طيران . كانت الساعة الرابعة صباحا . وكان « بارنت » يسجل على الطاولة المراقبة ، كما لو كان يعزف على البيانو ، او كما لو كان يضرب على آلة كاتبة ، الارقام ، المسافات ، الزمن المتوقع الوصول فيه الى نيويورك ، ثم عبر الاطلسي ، قائد تلك الآلة الجبارة ، او متوجها الى بيروت ، جدة ، الخرطوم ... ايها بالضبط ؟

انه طاقم طائرة «البوينغ» المسماة « ابن مكة » ، والتي هي ملك شخصي للسعودي كمال عبد الملك ، وهو وحده يعرف وجهة السير . وما يجهله هو ، هل يعرفه حتى السعودي ؟

ـ لكن ما هذا الذي حط فجأة ؟

وخرج بارنت الى المدرج ، مرتديا الزي العائد لكمال ، يزين وجهه شارب نقيب بريطاني ، وتحت قبعته المزينة بالذهب ، حاجبان اشعثان ، فلقد كان ذا هيئة ، ان بطوله الذي يصل الى متر وثمانين سنتمترا ، او بقوته كلاعب بيسبول . لقد كان ضابطا لامعا . من كان يظن ان هذا الطاقم ، قد واكب عبر افريقيا ولفترة طويلة ، نقل خردة الحرب ، وذلك لحساب شركة بلجيكية ، غير موجودة قطعا في سجلات التجارة ؟

كان كمال قد التقى هذين المرتزقين في « كاتنغا(1) » ، ليس بسبب ما لهما من وقار فقط ، بل بسبب انتمائهما .

كان تأخر كمال اسلوبا عنده ، واحتياطا امنيا يتخذه حسب خطة ، من اجل احباط اية محاولة عدوانية ضده . فالقتلة ، وهذا جلي جدا ، يضبطون ساعاتهم على المواعيد الدقيقة . فهم بحاجة الى مواعيد . وما كان لكمال موعد ابدا . كان باذخا مزهوا . ولكنه ملزم دائما بالحذر ، وكان قادرا ، وحاضرا لصرخة : من القادم دائما ، محروسا جيدا ولكنه واثق من شخصه . فلقد كان يدفع فدية وجوده خارج المألوف .

---

(1) كاتنغا : وهي مقاطعة في الكونغو وعرفت بإقليم « شابا » احيانا .

[illegible] يعرف ، ان قليلا من الناس من يتسامح مع ولد [illegible] ، ابن السلالة التي طالما اذلت ، ان يتسامح معه في [illegible] او يعيد افتتاح المواقع التقليدية للسلطة وللمال ،

ان هذا الغموض يقود حياته .

[illegible] التلفون يرن في غرفة ارشاد الطائرات . وامسك السماعة ؟

ـ نعم سيدي . اوكي . سيدي .

والحق « جو » ب « بارنت » .

ـ انه يدعوه من سيارته . سيكونون هنا بعد خمس دقائق .

وعاد القبطان الى مركزه وهو يرفع كتفيه . ونادى :

ـ ماركو .

وشق مدير الاوتيل ، الذي كان يرتدي بذلة بيضاء ، و[illegible]رافات سوداء ، باب مطبخه الفاخر ، حيث كان يلقي في الماء الغالي سادس واحد من سلطعون البحر .

ـ حضر الكافيار .

ورفع « ماركو » عينيه الزرقاويين بلون السماء ، وتساءل هل ان عليه ان يطلع قائد « ابن مكة » على قائمة الطعام ؟

❋ ❋ ❋

ـ آه . الكلبات ! صرخ مصطفى وهو يشد ربطة عنقه .

ومع ذلك ، فلقد اتخذ احتياطاته ، قبل مغادرة اوتيل « البحر » ، فقد أعد هو بنفسه حقائب السفر . واكتفى [illegible]مال بحقيبته الصغيرة ، المصنوعة من جلد التمساح ،

والباقي كان معلقا في غرفة الملابس التي تخصه ، والموجودة في طرف « البوينغ » . وما كان عبدو وياسين يحتاجان شيئا غير الحقيبة المعلقة باليد ، فهم سيجدون على متن الطائرة فرشاة للاسنان، وماكينات للحلاقة ، وقمصانا وبذلا .

اما الطيارون فقد كانت لهم حقائبهم الخاصة ، امـا رجل البيت الابيض ، والذي دعاه كمال في الدقيقة الاخيرة، فقد كان يتأرجح تحت ثقل محفظة مصنوعة من جلد الخنزير .

وهذه المرة ايضا ، كانت مضايقات الفتيات تطـارد مصطفى كان يردد :

ـ آه من الكلبات ؟

واعلنت الفتيات عن مشترياتهن التي زادت عـن حقيبتي سفر ، وها هي عدتهما تملأ الآن سيارة الكاديلاك بأكملها. لقد كانت حماقة حقا، ارتكبها عبدو بأخذهن الى سوق لاس فيغاس . لانهن والدولارات تهطل من ايديهن ، أخـذن حوائجهن من الفرو ، والسراويل الجذابة ، والكماليـات الماجنة ، والشعور المستعارة ، والدلاكات الهزازة الكهربائية، والدببة ذات الفراء ، هذا بغض النظر عـن الجزمـات . والاحذية المكسوة بالفـرو ، والسكربينـات ، والبوابيج ، والبنطفلات المصنوعة من الفرو القاتم ، والترانزستورات ، والتلفزيونات القابلة للحمل . وغير ذلك من الكماليات التي قدر لها ان تزين شخصيتهن العدمية .

وهكذا فالاجراءات كانت شكلية فقط ، وكان عـلى مصطفى ان يطبقها . وهذه الاجراءات التي املاها كمـال

[illegible] كانت تقضي بأن أي متاع لا يمكن أن يوضع عـلى من الطائرة ، الا اذا حدد مقدما من قبل المسافرين . وهذه [illegible] الاحتراسية كانت تجر احيا[illegible] الى حالات حساسـة جدا . ومن جهة أنت مدعو الى ليالي ألف ليلة وليلة عـلى السندباد الطائر ، المدعو « أبن مكة » ، ومن جهة اخرى كل شيء مرتب ومعقول تحسبا لاي تفتيش .

وجرت الفتاة ليون وراءهما في الحال ، فقد كانتا يعرفان الطريق . انه رواق مفروش بحرير بري يؤدي الى [illegible] غرف مفروشة فرشا ضخما رائعا . اما غرفة الفتيات فكانت مفروشة بمرايا وردية ، ومزخرفة برسوم تعود الـى [illegible] الالحادية في القرن الثامن عشر . اما المراقد فكانت [illegible] . وتتسع لشخصين ، لا يريد احدهما ان يتعـاطى مع الاخر . وارادت كل من كريستيل وغابي ، ان تندسـا تحت غطائيهما المصنوعين من الساتان ، فنامتا بارتخاء عـلى مداعبات ليون .

وكان الامر مفروغا منه ، فالشاشة المضاءة والمرصعة، كانت تعلن على أحد جوانبها بالانكليزية والفرنسية ان العشاء يقدم بعد اقلاع الطائرة . وسمعن خربشة على الباب . اذ ان عبدو لم يكن مسرورا بسبب امتعتهن المتعبة . وكـان يعاني من تأنيب مصطفى له .

وواجهت غابي اللبناني بهذه الكلمات :

ـ أنت تزعجنا .

وكانت هاتان الفتاتان الشابتان تنسيان الكلام اللطيف في فترات الانتظار .

ـ اذن ، قالت كريستيل ، من المؤكد اننا ذاهبون هذه المرة الى الجزيرة العربية . أليس كذلك ؟

يا للسؤال ! ورفع المدلك كتفيه . انه يقول لهن : انه من الافضل لهن ان يتهيأن للباس ؟ كالعادة . سيكن عاريات تحت الثوب العربي . وأغلق وراءه باب غرفة مساعد القبطان . واذا كانت لديهن الفضولية فما على هاتين الفتاتين الا أن تتابعا ، آخر الانوار المنبعثة من لاس فيغاس .

كان الصمت يخيم في غرفة النوم المغطاة بخشب « الاكاجو » . وكانت السجادة الشيرازية الملقاة على الموكيت البيضاء تحتضن اقدام السعودي ، الذي توجه الى الخزانة وتناول جلابية حريرية وقدمها الى مايك لوثنر قائلا :

ـ افعل مثلي ، غير نفسك ، وسترى كم في ذلك من خير .

هذا هو العرف في الطائرة .

كان الجميع يتموجون ، في خفة ، داخل الاثواب السعودية التي قصها لهم كمال في لندن ، من حرير جيء به خصيصا من ايطاليا . وبما ان درجة الحرارة كانت مثالية على كل الارتفاعات فان الجميع كانوا عراة تقريبا تحت هذه الثياب التي روعي فيها الاتساع لتعطي اكبر قدر من الراحة . وبتغيير الثياب كانت العادات تتغير . وهكذا كان الجميع ينزلقون لا شعوريا في العالم دون عوائق هذا ما اراده كمال ، كان ممثلو المجتمع الغربي الاكثر تشنجا يستسلمون لها ببهجة .

كان الاميركي ، ذا قيافة ويثير الضحك بسرواله المزهر ، المصنوع عند « ساخس » ، وجواربه المصنوعة من الـ « فيل في كوس » ، والمستوردة من فرنسا . اما كمال فاشاح وجهه متقززا ، وبعدما علق بذلته المقلمة بعناية في الخزانة المصنوعة من خشب الابنوس المخصصة لكبار الضيوف قاد كمال الاميركي الى باب الغرفة المخصصة للضيوف ، حيث ينتشر ضوء مغمور ، وعلى طاولة منخفضة ، من الكريستال ، اطرافها ملتوية كمناقيد الببغاوات كانت أغنية فاترة تنساب همسه من شبكة الستريو غير المرئية ، وتطغي على الانفاس الرتيبة الهادئة ، الصادرة عن اربعة موتورات نفاثة .

وقال كمال بابتسامة غير ذات معنى :

ـ ام كلثوم :

وهز مايك لوثنر رأسه متظاهرا انه خبير بالشرق :

ـ انها اكبر مغنيات الشرق . وقال كمال موضحا ، كنت مجنونا بها عندما كنت طفلا . وفي مكة اهداني والدي راديو ترانزستور ... لكن ، ينبغي ان اتركك يا مايك . خذ راحتك .. وسننتظرك على العشاء .

وغمر الاميركي نفسه في الماء الدافيء الذي أعده له مصطفى في مغطس مرصع باللؤلؤ ، ونصحه ، ان يأخذ حماما في انتظار ان تكمل الطائرة « ابن مكة » صعودها .

وكان الاميركي يألف طائرات رجال الاعمال ، فقد سافر اكثر من مرة مع الرئيس في واحدة من طراز «د. س. ٨. » المخصصة للبيت الابيض . اما الترف البالغ وعلى علو ٢٧٠٠٠

قدم عن الارض في الطائرة « ابن مكة » فقد كان يملأه بقدر كبير من الاعجاب والقلق . ان هذا الشرك بالنسبة له ، وهو السياسي الداهية في الحزب الجمهوري والذي نشأ على ان السمعة الحسنة هي ان تبقي قدما له في الارض ، ان هذا الشرك خيالي ومدوخ أكثر من الطاولة الخضراء في لاس فيغاس .

كان الصابون يقطر عنه ، فأخذ يفرك عينيه ، عندما دفعت الباب ودخلت في الكيمونو الخفيف الفاتنة الصغيرة « ليون » . وقالت بلهجتها الطريفة :

ـ أتريد شيئا ؟

ما استطاع جوابا ، فبدون انتظار ، أخذت تفرك له ظهره ببطء .

* * *

قال جو وهو يبتلع كأسا من الويسكي :

ـ انها الساعة الرابعة وسبع دقائق بالتوقيت المحلي، فقد أصبحوا بتوقيت الشرق الاوسط . ومضى على مغادرتهم لاس فيغاس أكثر من خمسين دقيقة بقليل . وكان الليل ذا صفاء مدهش ، تقطعه عند الافق صور وهمية ترسمها الغيوم المرتفعة على علو عشرين ألف قدم .

وقرأ بارنت الكتابة المتقطعة التي تشير الى ساعة الوصول الى واشنطن (ثماني ساعات وست عشرة دقيقة) وكانت الطائرة « ابن مكة » تتجاوز عند ذلك منارة مدينة « سالت لاك » .

وقال صوت :

ـ ستنزلون الى ٢٧٠

ـ ٢٧٠ ، جد مفهوم .

وبيد ماهرة ، عالج مساعد الطيار الحالة . وراح رأس الطائرة ينكفيء ببطء .

كان بارنت غارقا في حساباته ، وقد اعتمد على قاعدة الـ « الجيبيسن » (١) .

ـ انت تعتقد انك في القرون الوسطى ، قال جو ساخرا .

وكانت لدى القبطان الرغبة في ان يلقنه درسا .

ـ الادوات ، انها جميلة جدا ، ولكنني افضل الا اخسر يدي .

وكانت الطائرة تنزلق بين النجوم بسرعة ٦٠٠ عقدة بحرية ، معلقة في الفضاء وكأنها لا تتحرك .

ـ اتعتقد اننا سنأخذ احدا معنا من واشنطن ؟

ـ يتوقع عبدو اخذ فتاتين سوداوتين ، وانا آمل ان نجد هاري ومل . ليس لدي اي رغبة في تحمل الاطلسي .

ـ كيف تجد هاتين الصغيرتين اللتين على الطائرة ؟

ـ كعكة بالفاكهة ؟ انهما تصلحان للامراء .

ـ هل تأكلهما ؟

ولتحاشي الجواب الوحيد ، اخفى قائد الطائرة « ابن مكة » تثاؤبا مليئا !

ـ انا ، يا صديقي ، لدي رغبة خاصة بنوم عميق .

(١) خارطة ملاحة جوية تستعمل عالميا .

« ماركو » الذي كان بادي العصمة في بذلته البيضاء ، كان ينحني نحو لوثنر ويقول له :

ـ « شاتو ـ ماركو » ١٩٢٩

ـ اذن ، قال كمال ، سآخذك الى الرياض .

وكانت غابي تقضم سلطعون البحر ، اما مستشار نيكسون ، الذي كان حافي القدمين ، فقد ترك نفسه على سجيته ، وقال حالما :

ـ الرياض ، سريعا . اني اعدك يا كمال ، لكن دعني أكلم الرئيس أولا !

لم تكن كريستيل جائعة وكانت أكثر ما تكون جمالا في غلالة شفافة من ثوبها العربي . وكان كمال يتطلع اليها احيانا ، وهي مخلوبة اللب ، لا تستطيع ان تزيح عينيها عن الشاشة ، التي تنطبع عليها تعليمات الطيران . كان هناك التدافع المدهش للارقام التي تتغير بين ثانية واخرى ، ومن ثم ظهور نقاط على خارطة شفافة للكرة الارضية . نقاط مضيئة ترسم مسار الطائرة ، وكل نقطة تضاف الى اخرى ، كانت تختصر المسافة المتوجب قطعها . ولم تكن تعرف لماذا تعتصر قلبها هذه الخطوات المتتابعة نحو الطرف الآخر من أميركا ، ونحو الطرف الآخر من العالم ؟ حتى بالنسبة لفتاة تتذوق الارقام فان هذه المعادلة السرمدية المتحركة بين المسافة والسرعة ، بين المكان والزمان ، كانت تؤدي الى احتمالات مدهشة .

كان مزيج من روائح عطور شرقية يتضوع في كل الاتجاهات ، اما ياسين ذو الانف الجاف فقد قام بادارة المراوح خفية .

ـ ان حياتك طريفة ، قال لوثنر .

وكان يظهر من صوته بعض الاطراء ولون من القلق ايضا .

اصبح الآن يعرف عن ظهر قلب ، ملف كمال عبدالملك . في هذا القصر الطائر الذي جاء به من واشنطن ، كان يقيم سرعة العطب الهائلة في هذه الامبراطورية ، التي ولدت من الرمال ، ومن مخيلة بدوي مشرقة . امبراطورية تلتهم السماء ، كما التهم أجداده ابعاد صحرائهم اللامتناهية . فأين هي مداخن المصانع ، والخزائن الفولاذية ، والبنايات ، والاسمنت ، والفولاذ ، وكل ما يؤكد ويوطد دعائم الثروة .

كان غنى كمال عبد الملك الاسطوري شبيها بتدفق الموج في محيط ثائر العواصف . واذا هدأت العاصفة يوما؟

ـ حياة طريفة ؟ ربما . فلم يكن لدي الوقت ابدا للتفلسف . قال كمال . مساء في بيروت وصباحا في لندن . مساء في الخرطوم ، وصباحا في مكسيكو ، مساء في لوس انجلوس ، وصباحا في نيويورك ، آكل واشرب وانام وامارس الحب ، واقبض النقود واعطيها . لي وطن والهي هو الله والقرآن شريعة مثل بقية الشرائع ، انني احترمه ، واتبع شريعته كما يفعل بقية المؤمنين في جميع الاديان . أحب اخوتي ، من المسلمين وغيرهم ، ويسرني ان تكون لدي القدرة لاساعدهم احيانا .

وفرك كمال عينيه فقد كان تعبا .

وطلب ياسين كوبا من الحليب .

ـ من الحليب مع الكافيار .

وقدم له ماركو ما كان يطلبه ، وقد بدا عليه التقزز .

وفكر : انه منافق ، ويعتقد انه مكره على تمثيل دور المسلم المؤمن ومع ذلك فكم كان يتبختر على متن السفينة ببذلته الرمادية . هو وحده ما كان يتغير .

ـ اعذرني ، لدي شغل ، قال له .

وعاد الى مكتبه في مؤخرة الطائرة . انها غرفة اكثر تواضعا من الاخريات ، لا كوة فيها . وكانت مضاءة بشدة ، حيث يطقطق بشكل مستمر ، جهاز ارسال البرقيات وهو مرتبط بالاثنين وعشرين مركزا رئيسيا في امبراطورية كمال عبر المعمورة . وكان يرافق الجهاز باحتراس كما يراقب الطياران ما عندهما من اجهزة وكانت تتناوب عليه أفضل السكرتيرات على متن الطائرة .

وسأل :

ـ لا شيء مهم ؟

كانت « الك فون بورغ » من ديسلدورف تشتغل من اجل « تيسن » عندما أغواها كمال منذ عشر سنوات .

ـ أجابت : لا شيء خاص ، الا ان من الممكن ان يحدث انخفاض قوي في سعر البن وتراجع بورصة طوكيو . آه . نعم . رسالة من « سوأني » : رشيد يهتم بالبترول ، لقد رتبت كل شيء . عم مساء يا بيل .

وأغلقت بهدوء غرفة مساعد الطيار . واكب ياسين على « التلكس » .

لبس مصطفى عباءته ، ومد سجادة صلاة على الموكيت التي في غرفته . واتم وضوءه ، وراح يفتش عن القبلة بواسطة البوصلة . لكن ابرة هذه الآلة البدائية كانت تتذبذب بجنون ، مشوشة بحقل مغناطيسي لا يحميها منه شيء . كانت مشكلة مصطفى أن يجد مكة ، وكان ذلك بلا جدوى ، لانه عندما تطير بسرعة الصوت ، دون اي حد الا النجوم السيدة ، فان اقل الاشياء ملاءمة لنا ، هو الصلاة كما ينبغي والسجود في الاتجاه المناسب .

اكثر من مرة ، كان مصطفى يذرع الممر الجانبي ليصل الى الطيارين ويسألهم المشورة التقنية لتحديد الاتجاه، وكان هذا موضوع مزاح عن بارنت وجو وهاري والآخرين . الاتجاه الذي ينبغي لمصطفى ان يختاره ليصلي الى الله .

ـ هذا المساء ، ستصلي في الـ (٥٠) والانحراف هو عمليا لا شيء .

كان صلب كمال يلمع ، بسبب الزيوت التي ضمخه بها عبدو لتوه .

ـ الى اسفل ، قال كمال ، عند الردفين ، بقوة أكثر .

وعلى ارتفاع عشرة آلاف متر ، بدأ عبدو يلهث . فقال بتهذيب :

ـ يقولون ان هناك اضطرابات .

وكانت تلك طريقته ، اذا اراد ان يقول لسيده « لا تتحرك بهذا الشكل » . وهكذا بعد ان تمسد كمال ، كانت عيناه مشدودتين على « الفيديو سكوب » ، الذي كان يبث

له في كل ليلة ، وفي مثل هذه الساعة ، الصور المتحركة لديه : السيد « ماكاوو » في علاء الدين والمصباح العجيب. وكان قصير النظر ، وليس له الا شعرة واحدة في رأسه ، وكان يطير فوق مساجد بغداد على بساط الريح ويضحك مثل مجنون . وكمال كان كذلك ايضا .

– هل ستمارس الحب يا سيدي ؟ هل ابعث لك احدى الفتيات ؟

– كم الساعة ؟

– بقيت امامنا ساعتان .

وتمطى كمال على سريره العملاق في غرفته الفاخرة . فهو ليس مستاء لكونه وحيدا لمرة واحدة فقط . وادار جهاز تنظيم الكهرباء لا ليضيء بها قنديل السهرة ، وانما من اجل ان تنشر تحت السقف اضاءة لها لون الشفق .

وخلف كوى الطائرة كان الفجر .

وبدأ جهاز ارسال البرقيات يطقطق ، ومسح ياسين نظارتيه ، وراح يحلل بحيوية الاسطر القليلة التي كانت تطبع . توقيع « سليمان بن التركي » وحده كان واضحا ، اما ما تبقى ، فقد وضع ياسين الورقة على شبكة فيها تيار كهربائي ، وهي ستيح له حل طلاسم الرسالة الطارئة التي وجهها التركي الى السعودي :

« تجنبوا بأي ثمن الطيران فوق المتوسط ستوب . راعوا بدقة الاحتياطات الاعتيادية . ستوب . كونوا في باريس في ٤٨ ساعة ستوب » . وتفقد ياسين عقدة كرافاته ، وتطلع الى ساعته وصمم ، وبكل أسف ، انه ينبغي ايقاظ المعلم على اي حال .

الفصل الثاني والعشرون

سميرة والامير رشيد

كانت آخر سيارات الكاديلاك تكنس البحر الهادىء باضواء مصابيحها . وفي الافق كانت انوار بيروت ترسم هلالا مضيئا شبيها بذلك الذي يرى على واجهات المساجد الحديثة .

ومرة أخرى ايضا ، كانت الساعة تشير الى الثالثة صباحا .

وبخطى صغيرة ، رعناء ومتثاقلة ينزل رشيد درج الكازينو ، ذلك الاثر الحقيقي الوحيد الموصى به الى اللبنانيين، من قبل المجازفات المالية الكبرى في الشرق : كان رشيد ، الشيخ الهائل ، الذي ينتعل حذاء من صنع « لوب » بادي الصغر ، ينتقل متمايلا مثل عجل البحر ، متماوجا بثقله ، يفتش عن الدرج ، انه شخص هائل الحجم رخص العود ، قميصه من حرير ، تحيط به هالة من العطر . فتح

صندوقا أخذ منه علبة ملبس من فضة ، كانت مدسوسة بين مسدس وعلبة خرطوش كان الامر اقوى منه ، ولا يستطيع منع نفسه من ذلك ، فبمجرد ان يصبح وحيدا ، كان يسارع الى ملء فمه بالملبس الذي يمتصه بشراهة طفولية ، متناسيا أوامر طبيبه ، وانذارات سميرة عشيقته .

كان الليل حارا ، لم يكن رشيد يصمد امام اغراء « البكارا » أكثر من صموده امام اغراء قطع الكاتو القاتلة ، وسم الحلويات الشرقية البطيء . لقد خسر لتوه مليونا من الليرات اللبنانية ، مستبسلا في اللعب ضد ثلاثة رجال من صنف الكاوبوي التكساسي ، يقلبون « الثمانيات » و « التسعات » مثل المطر . لم يكن رشيد يحسب حسابا لقوانين الحظ القاسية ، فقد استبسل في مواجهة الرياح المعاكسة بعناد أهوج ، كما لو كان يواجه ميليارديرا من تكساس . فقد ادخل فجأة في حسابه ، ليس ماله فقط بل شرفه ايضا ، ولم لا ؟

كانت شمس بيروت ، تضطرم كما لو انها في عيد دائم . فكم من سعادة وهناء وثراء بنيت جميعها على أدوار من الشعوذة . ومسح رشيد جبهته بفوطة كبيرة من الحرير ، وراح يراقب باستمرار ، في مرآة السيارة ، مصباحي سيارة يتبعانه باستمرار وعلى مسافة ثابتة .

اما هو ، الذي كان يخشى ان يتجاوز سرعة الخمسين كيلومترا في الساعة ، فقد ضغط الان بشدة على دواسة البنزين في السيارة ، ولم يطمئن الا عندما ابتعد المصباحان عنه .

كان الامير « رشيد المعروف » يعيش قلقا منذ وفاة سعود ، وتولي فيصل عرش السعودية . وكان يمضي اكثر وقته خارج بلاده . اما منفاه الذهبي في لبنان ، فقد كان يتوافق مع طبيعته الفاسدة ، أكثر من اجواء الرياض المتزمتة . وكان يسمح له فوق ذلك ان يمارس بهدوء دسائسه وتجاراته . وقد وضع القصر العائلي ، الذي عاد اليه من ابيه الاكبر ابن سعود ، في حالة تراجع اذ ما زال يحتفظ بأربع نساء شرعيات ، انجبن له دزينة من الاولاد لا يوحون اليه باي حنان ، وهو يختلف بهذا عن غيره من الامراء بالدم . او حتى عن الاولاد الادعياء للملك الكبير . فبالنسبة لهم تبقى محبة الذرية حتى العبادة ، ويبقى الخوف اتجاه الاطفال ، راسخا عبر الاجيال في الدماء العربية .

وبالطبع كان أصحاب الجلالة يكتفون بتغطية حاجاته العائلية . ولكن رغباته لا يمكن اشباعها الا اذا وضع له ، وفي كل سنة ، في كفة الميزان ما يعادل وزنه ذهبا والماسا . كان نمط كمال عبد الملك يثير في نفسه مرارة فظيعة . لقد حاول طويلا ، ان ينال من سمعة السعودي ، الذي كان بثروته الطائلة يجعله عرضة للسخرية ، وكان دائما يصطدم في محاولاته بجدار من الصمت .

وكان امراء العربية السعودية ، اخوته غير الاشقاء ، يواجهون تلميحاته بصمت من عيار جيد .

ـ انت ترى ان الجميع متواطئون ، لو كنت انا في مكانك لاستخدمت يدي الاثنتين .

كان المتكلم هو جورج نمور وكان قد جاء لمقابلته .

ـ انت ضحية ظلم دعني اساعدك .

وفي ذلك اليوم دخل جورج نمور حياة رشيد ، وبدأت الدسائس الكبيرة .

* * *

كانت سميرة غارقة في سريرها ذي الاغطية المصنوعة من الساتان الاسود ، ولم توفق الى النـوم . فاشعلت سيكارتها التاسعة . وتقلبت في سريرها الواسع دون نظير ، وفي غرفتها تلك ، التي لا نوافذ لها ، لم تكن بحاجة الى مرايا فجدرانها الاربعة مغطاة بلوحات اعلانية تحمل صورها بكثافة تشبه العشق ، كانت عارية هنا ، ونهداها مندلقان هناك ، غامضة وشيطانية ، سادرة في غموض ، متحدية بشهوانية مسعورة ابسط قواعد الحشمة ، كما لو ان جمالها يمكن ان يبرر لها عشق ذات فظيع . كانت سميرة تحب سميرة ، في تعبد هو مبرر الاستمرار عندها ، وكانت تتفشى في الغرفة روائح الماريجوانا وبلغ بها الشعور بالخفة اقصاه ، فتناولت السيكارة العاشرة . وعندها سمعت صوت اغلاق سيارة « الرولس » .

تعود علاقة رشيد وسميره الى ثلاثة اعوام خلت ، علاقة دميمة ومؤثرة في آن واحد . يمتزج فيها الحنان والفسق ، مع ما يتوجب أن نسميه الحب . تخرجت سميرة من مدرسة قلب يسوع . فهي لبنانية تنتمي الى البورجوازية المارونية ، حيث تعلمت سلامة النية وحياء العين . وهذه الفضائل ، مضافة الى الانقياد الظاهري عند فتاة في نبل محتدهـا جعلها لا تقاوم .

ورشيد كان ما يزال جميلا حينذاك ، بدانته تجعله مهيبا ، فأحبت سميرة فيه ، النبل العريق في مظهره ، والذكاء الساطع في عينيه .

وكانت الفتيات المسيحيات الصغيرات في لبنـان ، يحلمن عادة احلاما غير اعتيادية ، احلاما محصورة بامـراء فاتنين من صنع « السوربون » او « يال » ، وكانت سميرة تستمريء الغموض عندما رأته لاول مرة ، وكان ملتحفـا بدخ ، عباءة وكوفية احاطت بوجهه ، وابرزت حدة غامضة في عينيه . التقته في الطابق الخامس والعشرين في فندق فينيسيا . كان الامير يشغل جناحا اميريا في الفندق ، حيث تعمل وفي آن واحد خمسة تلفزيونات بدون صوت . كان يصدر أوامره اليها بصوت ناعم وآمر . وأطاعت خاضعة . وقبل ان يمسها فتحت ثوبها وتركته ينزلق عنها ببطء . كان البحر يتلألأ عبر النافذة الزجاجية ، واقترب الامير مـن سميرة وحملها الى السرير ، ودون ان يتعرى ، راح يمارس معها الجنس بنهم .

والآن ، كانت عيناها مسمرتين على الباب ، وفجـأة ظهر رشيد حاملا لها ، رغم ثقله الفادح ، أحلام ألف ليلة وليلة ، وكان من اولئك الذين يفتحون الابواب بهدوء ويسيرون بصمت . وفتحت عينيها فاذا هو امامها ، معروضا كما لو كان تحت اشعة ليـزر ، بالسينما سكوب ، وبالالـوان . وارتعشت شفتاه النهمتان .

ـ اما زلت تذهبين الى « كاف دو روى » ؟

ـ قليلا .

ــ ماذا يعني ذلك ؟

ــ هذا يعني انني لم اخدعك يا عزيزي !

وبدا خائب الظن . كان ذلك عهدا بينهما . فلما كان يمضي الليل في الكازينو ، تذهب هي الى «الكاف دو روى»، وهو بار على مستوى عال في الحيـــاة الليلية اللبنانيــة . فالطبقة العليا في بيروت ، المشكلة في معظمها من تجار بترول ومتمولين وسماسرة ، كانت لا تنفك تحيي حفلاتها المترفة المتلاحقة ، في ترف وفي حماس صاخب ، باعتبارها تنتمي الى الاقلية الغنية ــ واكثريتها من المسيحيين ــ ، التـــي ترتدي نساؤها ازياء باريس ويدخن رجالها سيكار هافان .

ــ ألم تجدي شيئا ؟

ــ قطط صغيرة كانت تتسكع في شارع الحمراء . ليست مثيرة جدا ، ثم أنت تعرف ، يا رشيد ، الامور ليست كالعادة انني اعي الاشياء ، هؤلاء الناس جميعا يمجنـــون كما لو انها كانت المرة الاخيرة ، او كما لو ان نهاية العـــالم تقترب .

اصطحبها رشيد ، في البداية ، الى الكاف ، وكان يثيره أن يراها ترقص . وشيئا فشيئا ، عندما بـدأ وزنـــه يتجاوز المائة والعشرين كيلوغراما صار يتركها تذهب وحيدة، في غزوات الليل . شرطه الوحيد ، ان تروي له كل مـــا يحدث لها وكانت تروي له كل شيء حتـــى التفاصيل ، وكان يصغي ، ضخما ، وعاريا داخل ثوبه الحريري الموشى بالذهب ، والمنتفخ على بطن عظيم . وكانت طياته وتعرجاته كافية لتخفي تحته اللحم المتهدل ، وما تبقى له من الجنس.

الى ... اليها « احكي .. احكي ايضا » .. ويتابع بلا توقف ... الملبس ، التي كان يلهو بها بين يديه كما يلهـــو ... الياقوت في مسبحته .

ارفقي لي هذا الراديو .

كانت « الرولينغ ستونز » (١) تمزق طبلة اذنه البدوية . ولم يكن يحب الا الغناء الرتيب المشبع بالسكر .

ــ هل استمعت الى الاخبار ؟

ــ يا سميرتي . هل تتصورين ان هناك ترانزستورات ... طاولة « البكارا » . أجابها برفق . كم كانت جميلة في ... ، كان من الممكن ان يتزوجها ، لولا تلك الشرائع الدينية المقدسة ، ولولا هؤلاء العلماء المفلسين . كان عليها ان تغير دينها بالتأكيد ، فهناك آخرون فعلوا ذلك . وراح يفكر بتلك ... اماليندا ، زوجة كمال .

وتمطت سميرة بساقها ، فقد كانت معجبة برشاقـــة ... ثوبها وانتظامه .

ــ تحدثوا في الراديو ، عن شخص تعرفه انت ، لبناني . انه اختفى في باريس لدى خروجه من محل خياطة . ولم افهم الموضوع جيدا .

امتقع رشيد وتشنج وجهه ، وغطى العرق جبهتـــه ، وبللت البقية الباقية من شعره الاجعد التي كان يرتبها بعناية خاصة ، وبجهد يائس ، من اجل اخفاء صلعته .

ــ انت مجنونة يا سميرة ، كان عليك ان تصغي بشكل

---

(١) موسيقى اميركية صاخبة .

افضل . من هو هذا اللبناني ؟ أليس هو نمور ؟

ـ بالضبط انه نمور ، جورج نمور . وقالوا ايضا انه باريسي أكثر من كل اللبنانيين . هل هذا الامر خطير ؟

ـ يلعن دينك ...

وهكذا لم يستطع رشيد منع نفسه من اطلاق اكثر الشتائم العربية انتهاكا لحرمة الدين ، كان متشنجا فأخذ يصيح :

ـ انني خسرت للتو مليون ليرة . كل شيء يتقصف . كل شيء يفلت مني ! نمور . كان فرصتنا الاخيرة ! نمور . اختفى ، ما الذي يصيبني انا ؟ اهتمي باقامة الصلاة يا سميرة !

ووقع الامير « رشيد المعروف » ضحية اضطراب خطير . لم تكن سميرة قد رأته في حالة مشابهة قبل ذلك ابدا .

ـ انت تسبب لي الالم ، قالت سميرة .

وكان يغرس اظافره الطويلة جدا في فخذها .

ـ انهم سيدفعونه لي ! انهم سيدفعونه لي !

ـ لكن من ، ماذا ، عما تتكلم انت ؟؟؟

ـ كمال . سأظفر به !

لم تكن سميرة تتخيل بعد ، من هو كمال عبد الملك ، وهل يمكن ان يكون هناك شيء مشترك بينه وبين جورج نمور . ولم تستطع أن تتخيل اكثر من ذلك . لماذا كان اختفاء الملياردير اللبناني يشغل عشيقها الى هذا الحد ؟

الفصل الثالث والعشرون

ازمة تصل الى البلاط

[illegible] رشيد يتأمل عبر كوة طائرة من طيران الشرق الاوسط افق الصحراء المحترقة المترامي الى البعيد . كانت [illegible] فيه الغثيان . كان يستطيع تحمل السفر مع سميرة بشكل افضل ، فهي ستشد من أزره . وتبعث [illegible] في عينيه الزائغتين ذات الاهداب المرتعشة . كان رشيد [illegible] ، فهو لا يركب الطائرة الا مكرها . يجب ان يكون [illegible] ، ليستطيع النوم فوق المحيطات ، وان يكون لديه [illegible] ذاك المتمرد ، الذي لا يكتفي بتحدي اخوته في الدين [illegible] بل يتجرأ على الله نفسه . ولاكثر من مرة ، كان الامير [illegible] يسري عن نفسه ، باجتياز شبه الجزيرة من شمالها الى جنوبها ، من بغداد الى عمان ، وهو غاف في قلب [illegible] « الرولز » . وخلال ثلاثة ايام كان يقطع طريق [illegible] سائقه اليمني ، واسمه نبيل ، الذي لا يتعب . [illegible] الليل في البحرين ، حيث تسيل بفزارة افضل

انواع الويسكي ؛ ثم يتابعون السير الى الدوحة ، حيث النساء الملفعات بالاسود من أخمص اقدامهن حتى رؤوسهن . يلبسن ذاك الزي الغريب ، وهو قناع من جلد صلب ، يجعلهن شبيهات بالطيور التي تقع فريسة للصياد . وبعد ذلك يقضون ليلة تحت الخيمة ، كما في القديم . وكان شيوخ القبائل المجاورة يأتون لتقديم آيات الولاء للامير ، ويقدمون له العطايا التي تمشي . وكان من المألوف ان احدا من هؤلاء كان يرجوه ان يقبل امرأة من نسائه من أجل قضاء الليل معهـا .

واستدعى رشيد المضيفة . وسألها بعصبية :

ـ ما هذه الضجة ؟

ولم تكن المضيفة اللبنانية تندهش ابدا عندما يبدو رجل من الخليج ، او من شبه الجزيرة العربية قلقا . اذ لم يكن يسافر على طائرات الشرق الاوسط الا هؤلاء ، وهم بالمئات فقط . وكانوا يصطحبون معهم صقورهم وفراريجهم وسلال خضارهم .

ـ انه تغيير السرعة . اجابت المضيفة .

وجفف رشيد العرق عن جبينه .

ـ هل لديكم كاتو ؟

ـ ليس لدينا حلويات على متن الطائرة . لكننا سنتوقف في الكويت ، يا صاحب السمو ، وسأبعث من يجلب الملبس .

وقبل نصف ساعة من هبوط الطائرة، كانت ست طالبات كويتيات ، قد صعدن الى الطائرة في بيروت . وجلسن في

مقدمة الطائرة . ولكن يشغلن حمام الطائرة واحدة اثر اخرى. ان في « [illegible] جوب » ومعهن حقائب صغيرة في ايديهن . ولاحظ رشيد المناورة ، وهو يراهن يخرجن متلفعات بعباءات تافهة ، محجبات حتى اعينهن . وندم على انه لم يبدل ثيابه .

في البلاد العربية ، كان الامير الذي يلبس البذلة ، يظهر بمظهر ممثل تجاري ، او كرئيس دائرة . وللعباءة افضلية اخرى ، هكذا فكر رشيد ، وهي انها تخفي البدانة .

ان لديه اهتمامات اخرى ، كعملية المطاردات الانجليزية، الصلة الواسعة بينه وبين تمور . واختفاء اللبناني ليس مجرد مصادفة . فمن هو يا ترى صاحب المصلحة في تصفية المسألة هذه ؟ انه كمال المكي الحديث النعمة ، وكمال وحده . ومنذ ذلك المساء تأكد الامير من الحقيقة ، وتجاوز الآيات التي تعد بالجنة « اولئك الذين يصفحون » وتوقف عند السور التي تقتضي العقوبة بالمثل . وكان رشيد يفهم القانون المقدس حسب مقتضيات حاجاته ومقتضيات الظروف .

❊ ❊ ❊

طلب سليمان الماء . فقدمه ابراهيم له في قدح من الفضة .

ـ هل جهاز التكييف متوقف ؟

ـ نعم سيدي منذ الصباح .

كان وقيد ايلول/سبتمبر/ يعتصر المدينة ويصعب

احتماله . وندم سليمان على عدم لحاقه بالملك الى مرتفعات الطائف غير البعيدة عن مكة ، حيث يخفض هواء الجبل الحرارة حتى ١٨ درجة مئوية . واستوقفته عودة رشيد السريعة . فهو لا يشغل بالطبع اية وظيفة رسمية ، فاحتقار فيصل له جعله بدون حظوة . ولكن اميرا بالدم هو امير بالدم . والعائلة السعودية التي يصعب احصاء عددها ، كانت متماسكة ، رغم ، انقساماتها والمنازعات الداخلية التي تمزقها ، وذلك بقوة العصبية في العشيرة .

لقد كلفت التركي كثيرا ، معرفة ان الدم في الجزيرة العربية ما زال اقوى من السلطة .

واستدعى سليمان سكرتيره ، الذي وصل وذراعاه مثقلتان بالجرائد . وحدها الطبعات الفرنسية في الصحافة اللبنانية هي التي نوهت باختفاء نمور ، اما الصحف الصادرة بالعربية فبالكاد تكلمت عنه . فالغالبية منها التي تعتاش على الاعانات ، فضلت الا تدنو من الموضوع . وعندما ادخل ابراهيم الامير الى مكتب سليمان ، فهم هذا الاخير ، ان رحلته ليست غريبة عن اختفاء نمور . فهو بصفته سفيرا متجولا ، ومستشارا خاصا للملك كان ذا يد عليا في مصلحة الاستعلامات ، ومكافحة الجاسوسية . فتواطؤ رشيد مع نمور ما كان ليغيب عنه . وبما انه كان يجتهد في خدمة مصالح البلاد بشكل غير مباشر ، فانه احترس من ان يكون في ذلك التواطؤ ما يهددها . فرشيد المزود ، والمشبع ، والفاسد ما كان ليصبح خطرا ، الا اذا حرم من مشاركته ، التي يمكن القول انها شرعية ، في اموال

[illegible] .

واخذ سليمان السبق في الحديث وقال :

ان هذه القصة مزعجة ، يا صاحب السمو !

والتمع الغضب في عيني رشيد ، بعد هذا الهجوم [illegible] .

انه ينبغي فعل شيء ما .

الاسف . جورج نمور ليس واحدا من رعايانا ، [illegible] ذلك ، انه مسيحي .

[illegible] الشخص الهائل الحجم المتحف بالبياض ذراعيه [illegible] :

اني اتساءل ما دخل الدين في هذه القضية ، فهي [illegible] جيشنا بمعدات حديثة ، نعم ام لا ؟

انها في النتيجة الشاغل الاكبر لحكومتنا ، ولجلالته [illegible] .

ان نمور معتمدنا الشرعي ، لقد ادى دوره في [illegible] في انكلترا افضل من اي كان !

[illegible] من سليمان حركة اعياء :

ان هؤلاء المرتزقة حياتهم معقدة ، وتجارتهم ليست [illegible] . فمن اجل خدمة يؤدونها لنا ، كم من الخدمات [illegible] لخصومنا ؟ ان نمور يشتغل لصالح ليبيا والعراق ، [illegible] الاتصالات مع ايران . كل هذا ليس جليا ، كثير من الناس [illegible] في اختفائه .

التمع الغضب من جديد في عيون رشيد .

ان صديقك كمال عبد الملك هو واحد منهم بلا شك؟

لقد كان هذا اتهاما اكثر منه سؤالا . والنبرة كانت جليدية .

– لست ادري ، اجاب سليمان بدم بارد ، ان هذه البلاد تجد نفسها مدينة بالكثير الى مهارة كمال وحيويته ، الذي هو مثلك ، واحد من ابناء مكة ، ولا اعتقد ان اية علاقة بينه وبين نمور يوما ما ، واحد منهما مهرب ، والآخر رجل اعمال آفاقه عالمية ، الاول سعودي معروف ومحترم في اميركا كلها .

وفقد الولد غير الشرعي لابن سعود سيطرته على نفسه .

– يا صاحب السعادة ، ان هذا غير ممكن ، انك تدافع عن محدث نعمة ، عن رجل كل الصفقات حلال عنده . انا ايضا بحاجة لان اكسب قوتي .

– انا لم اجعلك تقول ذلك .

وفضل رشيد الا يسمع ، او بدا كانه لم يسمع ، وقال بصوت اكثر لطفا :

– يجب ايجاد هذا اللبناني ، يجب استعمال اية وسيلة وسأذهب حتى الى الملك ، ان لزم الامر !

– كان عليك ان تبدأ من هناك .

وكان لسخرية سليمان هذه ، اثر الدوش على الامير . فوقف ، وهز اطراف عباءته ، واستأذن بوضع الاصبعين على شفتيه . ثم استدار قائلا قبل ان يخرج :

– سآخذ هذه القضية على عاتقي ، انا بنفسي .

وفي المساء نفسه ، استدعى رشيد اليه ، ابن عمه بشير ، الجنرال في سلاح الجو ، وراح يخط بالقلم الاحمر

[illegible] البحر المتوسط ، الطريق التي ستتبعها الطائرة [illegible] التي تعود الى شواطيء شبه الجزيرة العربية . [illegible] في جنوب السويس ، على مدخل البحر الاحمر ، [illegible] المسماة : شدوان .

– اذا تقول لو ان طائرة اسرائيلية ، اطلقت صواريخها [illegible] « البوينغ » التي تخص صديقنا كمال ؟

– هذا امر ممكن الحدوث . اجاب الجنرال محاولا [illegible] .

– واذا قامت احدى طائراتك ، تحت جنح الظلام [illegible] « ابن مكة » ، واجبرتها على الهبوط في ناحية ما [illegible] الربع الخالي ؟

وأكد الجنرال ان هذا ايضا ممكن الحدوث ، ولكن [illegible] عملية كهذه ستكون مرتفعة .

– كم ؟

وطلب الجنرال اربعا وعشرين ساعة للتفكير .

الفصل الرابع والعشرون

خط سير متعرج .. ومؤامرة

توقف « الفيديو سكوب » وما زالت ترتسم على شاشته صورة الكلب « بلوتو » . ضحك كمال ، وانتهت ضحكته الطازجة ، المعدية ، باستمالة « بامبا » الراقصة الصغيرة السوداء التي صادها عبدو في « سافوي » في هارلم . كانت تضحك بقوة ، ولم يعد بامكانها التوقف ، فوضعت يديها بين فخذيها لتتمالك نفسها ، كما تفعل المراهقات سيئات التربية . وقد دعاها عبدو الى الرقص :

ـ ماذا يعني لك ان تذهبي لشرب القهوة في اوروبا غدا صباحا ؟

ـ يا يسوع ؟

كانت المكيدة نفسها هكذا دائما : فطور في اكابولكو ، عصير فاكهة في باهاما ، غداء في لندن ، او سمك سلمون طازج في « ريجفيك » وكن يقلن دائما نفس القول : « يا يسوع » او « ماماميا » حسب الاقليم . ويحلفن الايامين

... لكن ، مع السعودي وحواريه ، كان كل شيء ... ، وكل شيء ممكن الحصول . وهكذا وجدت « بامبا » ... ، وهي الزنجية من سافواي ، على متن طائرة ... جت « مستاجرة ، نقلتها الى واشنطن ، وسارت من ... الى « ابن مكة » . ثم ان عبدو ، وهو المحترف ، كان ... را . بعد ان تسقط الارض وحرث فيها . لقد كانت ... وقاسية .

كان مخدع السعودي في مقدمة الطائرة « البوينغ » على ... ما يرام ، وهو المخدع المتناهي في الترف . فقد وضع ... مهندس اميركي ، فجمع بين زخارف شرقية وغربية . ... النور ينبعث باشكال حلزونية تتراءى على الجدران ، منبعثة ... فوانيس عربية قديمة ، ومنعكسة في كل الانحاء بواسطة ... رايا متحركة ، وفراش اعد من زغب النعام كان يغطي السرير العملاق ، ورائحة الصندل ، التي لا غنى عنها ، ... انت تمزج فوحها مع بقايا الروائح الخريفية لحشيشة الكيف .

ولم يتعكر مزاج المعلم ، بسبب التلكس الذي ارسله سليمان ، فقد انقضت الدقائق الخمسون التي مضت على اقلاعهم من واشنطن ، فاستغرقها الفيلم الماجن الذي كان يعرض في « الفيديو كاسيت » . وكانت بامبا تفضل الصور المتحركة ، اخذها من منكبيها ، وابرز لها نهديها الساحرين ، في تلك الاونة وردت الى راسه فكرة ، من اجل اوثر المسكين .

فقال : احتفظي بسروالك .

حاول اقامة علاقة معها . فهزت راسها يمينا ويسارا في مجون . فلم تكن بحاجة الى شيء اصطناعي .

وخرجت « بيغي » من غرفة الحمام الصغيرة ، وكانت قطرات الماء ترطب بطنها كالندى . وانزلقت بغيرة بين بامبا والسعودي ، الذي بدا لون جلده بالنسبة للون الابنوس الخاص بجسديهما ، اشقر وكانه شبه نورماندي تقريبا .

كانت هاتان الفتاتان السوداوتان تتمتعان بنوع من الذكاء ، فتجاوزتا عبدو بعزم وتصميم ، وراحت بامبا تكهرب بلسانها جسم المعلم ، بينما راحت بيغي، المتمددة على السرير، تداعبه باثارة ، دون تفريق بين راسه واخمص قدميه . ثم قفزت تلامس صدغي السعودي بفخذيها ، وكاد ينهار ، ويحرك فمه ، لكنه لتربيته المسلمة ، تذكر ان الكلاب فقط يتاح لها ان تدس انوفها انى تشاء ، وان الفم يستعمل فقط لاعلان الفضيلة ، فانفلت كمال من بين ايدي « بامبا » و « بيغي » ، لينادي على عبدو بالانترفون .

ــ ايقظ الفتيات ، وارسل واحدة منهن الى هنا .

ــ غابي او كريستيل ؟

ــ تلك التي يكون لديها رغبة اكثر .

كان يحب حتى المبادة ، المزج بين الاسود والابيض . وانزلق الباب المصنوع من خشب الاكاجو ، ببطء بفعل الكهرباء ، مخليا الطريق امام غابي، ودخلت، كانت في مئزر الحمام معطرة ، ندية ، كما لو انها امضت الليل بطوله نائمة.

بيغي ، وبامبا ، منجدلتان ، تتعانقان بملء الفم . ولا

يفهمان من التقبيل الا لاطلاق تفيق ، كقوقاة طيور الحم . فصل كمال بينهما بلطف . وقال :

ــ الك انت . .

واختلطت ممارسة الجنس بين كمال وبيغي وبامبا والفرنسية غابي ، دونما تفريق ولا تمييز ، وبنوع من الحماسة الحيوانية الشبقة ، تسودها طقوس الشهوة ، ويحكمها اثارة متنوعة تقوم على ثنائية الجنس او تناقض الجنس ، في اطار لوحة خارجة عن المالوف .

ــ مستوى ٢٣٠ ، الريح ٢٧٠ ، استرجع خط برمودا.

كان هاري يدق على المنظم الآلي ، والاطلسي يتلألأ بومضات الغروب . وفي الافق ، كانت الظلال والالوان الرمادية تجتاح السماء .

ــ رائع ، قال ميل ، ٤٠ عقدة في الارداف ، هذا سيوصلنا الى روما في الثالثة صباحا .

ــ الثانية وست وخمسين دقيقة ، اجاب هاري منشرحا ، وهو الذي يدق على المنظم الآلي ببراعة روبنشتاين .

ــ قدر ! ياسين ! ايقظنا خدمه ؟

ــ بارنت توقع ذلك . حالة الطقس : رعود ، واضطراب على متن الطائرة ، اذهب لتر ما الذي يريده ؟

لم يكن احد يعرف ، حقيقة خط سير الطائرة «ابن مكة»، الا كمال وياسين وحدهما ، وهي لم تكن تلك التي قدمها قبطان الطائرة على متنها ، وقبل اقلاعها بستين دقيقة بالضبط .

ــ برمودا ، في كم من الوقت ؟ سأل ياسين .

وبدا ميل ، كأنه يستشير مقياس الوقت عنده « الكرونومتر » .

ـ اثنتا عشرة دقيقة .

ـ اوكي . قال بيل في اثنتي عشرة دقيقة سنغير وجهة السير .

احمر وجه ميل :

ـ انت تمزح يا سيد ياسين .

ولم تكن تبدو على ياسين هيئة المزاح .

ـ سنسير باتجاه ايسلندا .

ـ ايسلندا ! لكن ذلك مستحيل . التنظيم . خطة السير . يجب مراجعة ذلك كله ، والانطلاق من الصفر . هذا غير ممكن .

ودون ان يجهد نفسه ، تصور ياسين ، ان تذكير مساعد الطيار بان كل الطرق تؤدي الى روما ، هو نكتة مسلية .

ـ انه امر من المعلم . تدبر انت امرك .

ـ افضل ان اترك هذا الخليط المشوش الى بارنت .

بعد ان ابتعدت الطائرة عن مجال التقاط الذبذبات الصوتية الواردة في واشنطن ، توجب عليها الاتصال بهاملتون . وكان فيها انكليز مهذبون لحسن الحظ . انكليز هاملتون ، برمودا ، قدموا المساعدة اكثر من مرة لطائرة « ابن مكة » لان السعودي كان يعبر أجواءها عشرات المرات في العام وليست تلك أول مرة يغير فيها رايه . ومن المؤكد، ان ميل وهاري ، ما كانا يستطيعان التصور بان هذا الانعطاف المرتجل فوق المحيط ، ليس بسبب نزوة عند هذا

[illegible] . وانما هو بسبب الدسائس الماهرة المدبرة ضده .

وقال احدهما للآخر :

ايسلندا . هل تعتقد ذلك ؟

ان ميل ما يزال يحتفظ بطيارة نفس كواحد من قدامى المدربين . اما الاربعة آلاف دولار . التي كان كمال يدفعها شهريا . فما رسخت في نفسه الا الاعتقاد بان المفاجاة هي القانون الوحيد عند السعودي . فالامر كان يسبق دائما الامر المضاد . وخطة الطيران كانت تخفي خطة اخرى، والمكان المقصود والمعلن ما كان يتوافق الا نادرا مع نهاية الرحلة .

ـ اذا انتهى بنا المطاف الى ايسلندا فقط ، فسادفع لك [illegible] دولار . قال هاري ذلك وهو يبتسم .

وكان القبطان يراهن دون خوف ولا مخاطرة ، فقد [illegible] عليه ست سنوات في خدمة كمال ! وكان قد دخل [illegible] بعد بارنت ! فايسلندا كانت واحدة من الزوايا النادرة في العالم التي ما كان يحط فيها المعلم ابدا .

منذ تسعين دقيقة كانوا يطيرون في اتجاه الشمال . [illegible] الليل المخيم عليهم ، كانوا ينطلقون . والضوء على [illegible] ولون الحبر على يمينهم . ثم تارجحوا مطمئنين [illegible] ذروة سوداء . تجمعت من بقايا عاصفة . اجازتها الطائرة « ابن مكة » لتوها .

ومن جديد اضاءت الاشارة الزرقاء ، وانتزع الرنين [illegible] الطيارين من حالة النيرفانا .

والتفت هاري الى مساعده التفاتة متآمرة وقال :

ـ هيا ..

كان ذلك دون جدوى ، فياسين قد جاء ، وبيده ورقة: ولم يكن هاري قد سمع صوت خطاه ، وعلى الورقة استطاع ان يقرأ « شانون » .

ـ هل يستغرق وقتا طويلا هذا التزلج المتعرج ؟

ـ الى منتهاه .

ـ ماذا يعني الى منتهاه ؟

وبنظرة جليدية ، كانت تحمل نوعا من ابتسامة ، قال بيـل :

ـ سترون كثيرا .

واستعد الطيـاران للاتصـال بمونتريال من اجـل طلب الاذن .

ـ انا اعتقد اننا سننتهي بقذفنا الى باريس ، هذا ما توقعه هاري .

* * *

وعلى بعد عشرة آلاف كيلومتر من هناك ، كان الجنرال بشير في الاركان العامة السعودية في سلاح الطيران ، قد دعا لتوه الى اجتماع مع طيارين باكستانيين . فقد استاجرهما لحساب رشيد . فتح امامهما خريطة قناة السويس .

ـ هناك الى الجنوب ، ستجريان اتصالا بهم ، من هذه النقطـة ، وتجنبا اطـلاق النـار وستقودانهم بلطف الى الصحراء . وانا اهتم بالباقي .

وانتهت المهمة الهزلية التي تخيلها رشيد من اجل تصفية كمال : انتهت بنزهة غير ذات جدوى قام بها الطياران فوق ساحل البحر الاحمر . فطـائرة « البوينغ » التي تخص السعودي لم تات الى الموعد !

الفصل الخامس والعشرون

كمال يتجاهل حادث نمور

ـ ادت الطائرة « ابن مكة » الى موقف الطائرات الخاصة، واندفعت « الكاديلاك » ، وسط هالة من الضبـاب ، نحـو الطائرة بمصباحيها المضـائين . كانت ككل سـيارات « الكاديلاك » التي يملكها السعودي ، مسجل عليها منشأها، ومعه احد الارقام . وهو الرقم (١٦) .

كان الليل رطبا . وكانت مستنقعات الميـاه تعكس الانوار بلمعان قوي :

ـ هل هي العربية السعودية ؟ سالت كريستيل .

ولم يجرؤ عبدو على القول للفتاتين بأن الطائرة حطت في « بوزجيه » وليس في السعودية ، سلم لكل منهما شيكا مغريا ، وقال مازحا :

ـ ان المعيشة غالية ، في هذه البلاد يا صغيرتي ؟

وقبل ان يغادر طائرته عانق كمال الطيارين هـاري وبيل ، وقال :

— سيكون باستطاعتكما النوم ، لكن ليس نوما عميقا . فلقد سبقكما ياسين وحجز لكما غرفتين في فندق«بلازا» حيث سنكون جيرانا .

واستدار نحو ياسين وقال :

— هل أرسلت مجموعة التلكس ؟

— نعم يا معلمي . لديك طاقمي اتصالات في فندق جورج الخامس ، وقد أكد الفندق ذلك .

— وزوجتي ؟

— انها لم تجب .

ولم يندهش ، فان آمال ما كانت تجيب أبدا ، ومع ذلك فقد شعر السعودي بغصة في حلقه . لماذا اوتيل جورج الخامس — كان بامكانه ملاقاتها الى « نويي » أو في قصرهما في جادة « فوش » وهو قصر من مرمر ، مؤثث على طراز لويس الخامس عشر ، ولقد شيده في عيد زواجهما . لكن آمال تفضل الفندق . وكانت تقول : جادة « فوش » ، ذلك كئيب ، انه المنزل . حتى السعودي يفضل هو أيضا ، اللقاء بها في بيئة مترفة ، وانما مؤقتة : « نحن بدو » لقد كانا متفاهمين .

كان يهبط سلم الطائرة ، وفجأة اذا بلسان يدغدغ اذنه ، انها بامبا التي راحت تعانقه بحرارة .

— شكرا . كانت رحلة رائعة . قالتها بلهجتها الرطبة.

وشدها كمال نحوه واجابها بابتسامة لطيفة :

— اننا في البداية . اما الآن فسيهتم عبدو بشؤونك .

القى نظرة اخيرة على « ابن مكة » وكان ظلها ينسحب على

الارض رماديا ، وضجيجها النفاث يوحي وكأنها ما زالت تواصل طيرانها . نعم ، هذه الدابة الضخمة ملكه ؟ ملكه هو، هو وحده ؟.

عادت « ترنسركو » (١) الى اضاءة مكاتبها من اجله . واجتاز بنظره موقف الطائرات القليل الاضاءة . كان هناك رجل خطه الشيب ، عاري الرأس انيق اللباس ، ينتظر كمالا . أخذه كمال بين ذراعيه بمودة ، وهنأه بسلامة الوصول .

— هذا لطف منك ان تكون هنا ، يا ارنو . اين هم الاخرون ؟

— في الطبيعة !

— عمانويل ؟

— كان عليه ان يذهب الى لندن . لكن لدينا مشكلة مع « لويدز » .

— وسليم ؟

— في جنيف . لقد ذهب لرؤية السويسريين من اجل قضية الارض التي تخصك .

— على كل ، هل نقلت المال على حساب ال « تشيز » ام على حساب زيوريخ ؟

— زيوريخ .

وبدا كمال مرتاحا ، فحساب الـ « تشيز منهاتن »

---

(١) شركة فرنسية تقدم خدمة للطائرات ، تقوم منشآتها في مطار بورجيه عند حافة المدرج .

كان مثقلا جدا ، وقد بلغ ، ما كان يدعوه ، « المنحدر الخطر »

كان مظهر ارنو دي لاسكاري شاذا في مثل هذه الساعة من الصباح . كان في هيئة رياضي ماو ، ثياب من التويد ، وسروال خيال ، وكان حليق الذقن منذ وقت قريب ومعطرا بال « فتيفير » : كيف يمكن التصور انه لم يستطع الخروج من سريره الا بجهد منذ اقل من ساعة ؟

حضر الجمركي الخفير ، وبقية من سيكارة « غلواز » تلتصق بشفتيه . وحيا السعودي باسترخاء ، وسأل اتماما للشكليات : « الديكم ما تصرحون عنـــه » ؟ واهتم ياسين بالجوازات .

ودون ان تنتظر الكاديلاك زيادة على ذلك ، سارت في اتجاه باريس .

ـ جيلبرت ! قال كمال مخاطبا السائق ، اطلب لي فندق جورج الخامس الشقة (٨٢٠) . ضغط لاسكاري على الزر الكهربائي الذي يرفع الزجاج الفاصل ، وانحنى نحو كمال .

ـ نحن نتظرك بفارغ الصبر . قضية نمور تخلـــق اشكالات .

بدا كمال كأنه لم يسمع . وطلب كمال وهو يعلق فمه الى « الانترفون » :

ـ اذن ، جيلبرت ، فندق جورج الخامس .

ـ الـ ٨٢٠ مشغولة يا معلم !

ـ اطلبها بالحاح اكثر !

قدم لاسكاري سيكاره الى السعودي ، واخذ واحدة لنفسه ، وادخل طرفها في المبسم « البز » الذهبي .

ـ لا تقلق يا كمال ، زوجتك هناك ، لقد وصلت من لندن هذا الصباح ، قصة نمور تشغلها .

ولاحت من كمال ابتسامة شاحبة ، لكن رمش اهدابه وحده كان يخونه !

ـ اماليندا ، ليس لها ما يشغلها في هذه القضية ، انا لا ارى ما الذي يشغلها يا ارنو !

اجاب البارون بلهجة متسامحة :

ـ انها تعتني بأمورك عناية خاصة .

ـ اموري ! لكن عما تتكلم انت ؟ فبأي شيء يعنيني اختفاء هذا اللبناني ؟

ـ انه بلا شك لا يعنيك بشيء . ولكن لا تستطيع منع الناس من الكلام . كان نمور في حماية رشيد ، وكما تعلم انت ، فرشيد لا يحبك . ثم كانت قصة هذا العقد مـــع الانكليز .

كان كمال مأخوذا دائما بسرعة البديهة عند الفرنسيين . فبدون اي لف او دوران وصل لاسكاري الى جوهر الموضوع . ولم يكن السعودي منزعجا من كون هذا النبيل ، الذي افلسه القمار ، في خدمته . لقد علمه ابوه اللغة العربية ، التـــي تعلمها بدوره في مراكش ، عندما كان ضابطا هناك بأمـــرة « ليوتي » . وبعد ذلك ، فقد ذرع الشرق من اجل ملاذه . وكان يعرف الارض باكملها . كانت الابواب ما زالت تفتح عند ذكر اسمه . ان كمال يدفع له بطريقة الملوك .

وكان السعودي قد هدأ فقال :

ــ ماذا تقول الصحف ؟

ــ لا شيء تقريبا . عمودين في صحيفة « فرانس ــ سوار » : مقالة صغيرة في « لوموند » .

ــ والبوليس ؟

ــ لقد رأيت انا بنفسي ، رئيس الفرقة في وزارة الداخلية .

ثار السعودي بعمق وقال :

ــ ماذا يعني ذلك ؟ باي شيء تشغل نفسك انت ؟

وعلا صرير « الانترفون » من جديد ، وكان صوت السائق يقول : « الــ ٨٢٠ مشغولة دائما » .

وسمح ذلك للبارون ان يفكر ، واخفى كمال ضيقه . ما كان لاسكاري يجهل العلاقات العاطفية التي تربطــه بالانكليزية المتوحشة . وان كان السعودي طائشا عندما تزوج منها .

ــ سامحني يا ارنو ، لكنني لم افهم معنى تدخلك . دع البوليس الفرنسي يقوم بعمله اذن .

ــ لم يكن الامير سليمان من هذا الراي ، وقد تصرفت حسب تعليماته .

ــ هل وصل ؟

ــ الليلة الماضية .

وكانت الكاديلاك تنطلق عند مستديرة « الشانزليزيه » حيث تبدو المنطقة صحراوية في ذلك الوقت . وكان انزعاج كمال غير عميق .

يقع فندق جورج الخامس في زاوية شارع بطرس الاول ملك صربيا . وكانت الشقة ٨٢٠ تشرف على سطوح المنازل . كانت شقة فاخرة مزخرفة ، يطل امامها برج ايفل وسط فجر باريس . كانت اماليندا على التلفون منذ ثلاثة ارباع الساعة . وكانت هي التي طلبت « سليمان » .

ــ لم تات للاقائي في شارل ديغول .

ــ ليس الوقت مناسبا يا آمال :

ــ لقد انتظرتك طوال النهار .

ــ احب ان تحترسي ، فالخطر الان اكبر من اي وقت مضى .

ــ الخطر ! اي خطر ؟ خطري الوحيد .. هو ان افقدك

ــ تفقدينني اذا انفجرت الفضيحة . نفقد كل شيء . عليك ، حتما ، ان تتجنبي الاسوا .

ــ لكن ماذا تريدني ان افعل ؟

ــ سيكون كمال هنا بين لحظة واخرى . كوني قوية ، طبيعية ، طمئنيه ، اخدعيه !

ــ واذا تحدث عن نمور ؟

ــ لن يتحدث عنه .

ــ واذا تحدث عنه ؟

ــ انت لا تعرفين شيئا .

ــ متى اراك ؟ لقد جئت من اجلك !

ــ سنلتقي . اني اعدك .. اني احبك .

وضعت سماعة التلفون . وكان يغمرها فرح غامض ، بينما راديو « الترانزستور » يذيع بصوت خافت ، قطعة

قديمة من موسيقى الجاز الاميركية ، وتركت ظفرها الدقيق يركض على بطنها المسطحة والمذهبة . كان لها فخذان قاسيان كان ضوء الفانوس الخافت يرشح بهدوء ، بعث فيها شعورا بالرغبة لم فتحت عينيها :

راح كمال يتطلع اليها . وقف ، بمعطف السهر ، جامدا على عتبة الباب الفاصل بين شقتيهما . كانت عيناه الجميلتان غارقتين في التعب ، ورات ابتسامته البيضاء على وجهه الاسمر النحيف المثلم بالتجاعيد ، وكان فيه من اللطف اكثر مما فيه من القوة .

ـ اكنت هنا ؟ .

ووقفت في الظل .

ـ كنت تشغلين الهاتف كثيرا ؟

ـ كنت اتحدث مع سليمان ، انه قلق بشانك ، وينتظرك بفارغ الصبر .

ـ ما زلت تلبس معطفك ؟

كان يشتهيها ، لكنه كان مثل الغطاس امام الماء البارد ، ياخذ وقته . ثم حزم امره واقترب من السرير ولامس وجنتيها ، ثم ترك سبابته تنزلق على رقبتها البلورية ، وارخى راحة كفه على اسفل بطنها . فاخذت يده ، وحملتها الى شفتيها ، في حركة خضوع . فتراجع خطوة ، لقد ثارت فيه رغبته . ثم وضع امام عينيها صرة من جلد الابل ، استطاعت ان تقرا عليها اسم « تيفاني » وهو جوهري في نيويورك . وحلت الخيط الحريري ، فانبثق جدول بين يديها ، الماس ملبس بالزمرد الصافي . انه عقد ، ما لبثت ان

نضدته فوق شعرها المنساب في شكل شلال . وتراجع كمال خطوة الى الوراء ، وبدا للالئ الحجارة الكريمة المتالقة على القسم العلوي من جسمها ، شبيها بالزبد الملتمع في ذرى الامواج .

ـ ما كان ينبغي ذلك . قالته بتهذيب ، وبالانكليزية . ثم اردفت تقول بفرنسيتها العامية الظريفة .

ـ هذا شيء رائع ، يستحق الاعجاب .

والقى السعودي سلاحه :

ـ هذا شيء قليل .

ان ذلك لشيء قليل فعلا بالنسبة له . فان له حسابا لدى اكبر الصاغة في العالم . فهو يرسل الحلي كما ترسل الازهار . ولكن آمال كانت مثل الكريستال صلبة وسريعة العطب ، وكانت حبة الالماس الواحدة كافية لجرحها .

ـ انت جميلة ، قال .

وبدا يتعرى .

وخرجت من السرير ، وشعرت حالا بالرغبة في ان ترى نفسها ، عارية باكملها ومستعدة . واغلقت على نفسها غرفة الحمام ، وبقيت هنيهة امام المرآة الوحيدة . وكان كمال يتساءل عما يدعوه الى محبة هذه المرأة وتحمل هذا العذاب الذي لم تكن تكف عن اذاقته اياه منذ ان تقابلا لاول مرة ، في احدى ليالي « بارك لان » .

※ ※ ※

الفصل السادس والعشرون

امالينذا تلتقي « الامير »

امالينذا ، ليس اسما ، امالينذا لم يكن اسمها . انه اسم حربي فقط ، اسم من اجل اشعال حرب الاغراء بين « بوند ستريت » « وسوهو » ، وبين المصورين والنوادي الليلية . فقد اختارته لما فيه من رنين غريب ، وربما ايضا من اجل الالماح الى ابيها الذي لم تعرفه . ارمني ، او تركي ، لا احد يستطيع الجزم . كل ما عرفته عنه هو انه غادر قبل ولادتها ببضعة اشهر ، ولم يره احد بعد ذلك ابدا .

كانت قبل ذلك تدعى ليندا فليتشر . ولـدت سنة خمسين ، في قلب لندن ، داخل تلك الدائرة الضيقة ، التي تتمحور حول كنيسة ماريلبون . انه حي المتسكعين ، والباعة المتجولين ، والعجزة والماجنين ، وكانت تجمعهم جميعا لغة واحدة ، ولهجة مشتركة ، كانوا يتكلمون الكوكناي ، عامية لندن ، واغنية البؤساء فيها .

وكانت ام امالينذا قد جاءت من بلاد « الغال » ، عيناها في زرقة البحر ، وكانت هي تشبههما بزرقة الغسيل ، تركها زوجها لانها كانت ترفض الا ان تمارس البغاء ، كانت جبارة وصلبة .

افتتحت محلا للغسيل بما تبقى لها من ارث متواضع قرب محطة « بادينغتون » . وفي المساء ، كانت تقرا لابنتها بصوت عال ، « اوليفر تويست » ، و « دافيد كوبرفيلد » و « توم ساوبرز » . ولما اصبحت في العاشرة ، اكتشفت ليندا ان ظروفها ستكون اسوا بالمقارنة مع ظـروف امها . وتولدت لديها الرغبة ، بعد مضي وقت قليل ، بان تغير محيطها .

وفي العمر نفسه بالضبط ، طلب كمال من ابيـه ، الطبيب ان يقدمه الى المليونير . وفي حينها لم يكن يصل عدد سكان مكة الى المليون . اما في لندن فكان الامر بالعكس . كان يكفيها ان تغامر في الاحياء الثرية لتشهد الموكب المتالق ، والكئيب ، الذي لا ينتهي ، مـن السيارات التي يقودهـا اصحابها ، كانها المحفات ، الى الاحتفالات في الجنائن في ساحة بكنغهام، والى دوبال «برفورنس» في «ليـسترسكوير» والى «دربي ديبسوم» والى ميدان سباق «اسكوت» .

وكان التناقض حادا جدا .

كان بامكانها ان تناضل في النقابات ، او تسجل في حزب العمال ، لكنها فضلت ان تعبر لوحدها عبر الحواجز الاجتماعية .

ــ مامي ، اريد ان ادعى الى بكنغهام !

— ستدعين ، بالطبع ، يا عزيزتي ، واذا لم تدعي فان ذلك لا اهمية له .

— ساصبح غنية يا مامي .

كانت المرأة الغسالة بشوشة وذات ذوق سليم ، فغنت لها الاغنية التي كانت سائدة في حينها : « الذي يحصل يحصل » .

كانت ليندا ترفع اكتافها ، وتقذف بشعرها الاسود الكثيف ذات اليمين وذات اليسار، وتقول للقدر: كلا. هذا الرفض ، وهذه الثورة ، وهذه الرغبة العارمة في غزو عالم آخر ، وتلك الحاجة الحادة الى الحرب . كل ذلك كان يجعل من ليندا فليشر الاخت الصغيرة للسعودي لما بينهما من شبه .

قرأت يوما في «الافيننغ ستاندارد» ، الاعلان التالي : « السيد ريموند ، يحتاج الى مضيفة جميلة في بارك لان » ، وتمكنت ليندا بجمالها المشع وجانبها المتواضع ومظهرها الجاد من اثارة الدهشة في نفس صاحب الـ « بلاي غيرل » في الحال . لم يحاول ان يضاجعها ، كان ضد هذا المبدأ ..

وكان يحب ان يلعب بالنسبة للفتيات العاملات عنده دور المحامي المستنير والابوي .. وكان يذهب معهن الى حد الاشارة احيانا الى الزبائن المهمين . وما كان يجبرهن بشيء ، وآمال ما كنت مومسا ابدا .

وفي اليوم الذي تطلع فيه كمال عبد الملك — وكانت لندن تدعوه « بالامير » حينذاك — في اعماق عيني امال : دعاها الى المائدة الخضراء ، وايقن ريموند على الفور ان امال قد واتاها الحظ وقال لها ذلك .

كانت الساعة تشير الى الثالثة صباحا ، بينما كانت سحابة خفيفة تغشي « بارك لان » . وكان كمال ينتظر جالسا ام مقود سيارته الرولز ، والراديو يصدح فيهما : بموسيقى « البوب » فاطلت عليه بثوب بالغ القصر من « ماري كوانت » .

— اسمي امالينداa .

وكان الصوت عميقا .

— كمال ..

وراحا يجوبان بالسيارة الشوارع الخالية ، دون هدف وبدون مقدمات اخذت يده ، وراحت تداعب بها نفسها . وظل هو يقود السيارة بيد واحدة ، وبعدها راحت تداعبه فكان عليه ترك المقود ، ليقودها هي ... واوقف السيارة ناحية ، في زاوية قليلة الاضاءة ، في ارض عراء ، آهلة بالظلال ، والهررة وربما الجرذان ، وعلى حواشي الارض المعتمة كان هناك التماع نهر « التاميز » او « التايمز » الذي يخترق لندن .

— اين نحن ؟

لم يكن يعرف . فقد تجاوزا قبة سان بول ، وغرقا في الليل المشع ، على طول الشوارع الباهتة المقفرة التي لا تنتهي ، ولم تكن امالينداa خائفة ، فلقد نشأت في احضان هذه البهارج الكاذبة . وغطست براسها في حضن كمال ، مبهورة ، مترعة ، للحظات رفعت راسها بعدها لتراه وقد اغلق عينيه . كانت له اجفان مثقلة ذات زرقة ، تغطيها رموش بارزة . كان جميلا .

وابتعدت عنه ، وفتحت علبة «الشابلوه»، ودون اية كلمة اودعتها سوار الزمرد الذي اعطاها اياه .

ــ ماذا تفعلين ؟

ــ انا لا اعرفك ، وانت لا تعرفني . اني اتركك . فلا يكفي ان تكون غنيا لتكون جديرا بي . وحــاول امساكها ، ولكنها كانت قد اصبحت في الخارج . وقبل ان تغلق الباب قالت له ايضا :

ــ لا تبحث عني انني فتاة تهدم الرجال .

وفي تلك اللحظة ، لم تواته فكرة اللحاق بها . ان اية امراة ما كانت لتفلت منه ابدا . الجاحدة ، انه يراها تبتعد ، وقد اعادت له هديته، ويعتبر هذا صفعة. اعماله فينيويورك تدعوه ليكون هناك غدا. الغى سفره. وانتظر المساء بفارغ الصبر، وانتظر الليل ايضا، ووصل الى الطابق التاسع من «بلاي غيرل» وراح يبحث بعينيه، عن طاولة الـ «بلاك جاك»، ولم تكن اماليندا تلك التي تقوم بالخدمة، انها صينية، قاسية، منقبضة الوجه ، تلك التي حلت محلها . وطلب المعلم .

ــ ريمولد تعب ، عاد الى البيت ، وسيكون عند الظهر في مكتبه .

لم يكن كمال قد اشتهر باسم « السعودي » بعد . مع ان ارشيبالد وايت ، كان قد اشركه في اعماله وان عائداته كانت محترمة . وتمكن كمال من ان يخلق بين الشرق واميركا مجرى ضخما ، تتلاقى فيه اسرار مخادع النوم ، واسرار الدولة ودسائس القصور . وكان ما يزال ابن ثلاث وثلاثين

عاما، وصار يهيمن على امبراطورية مالية فتية، انها «العالم السعودي الواسع» (S.W.W.) وعشرون من «الاذرع اليمنى»، هم المجلون من خريجي الجامعات الاميركية ، يساعدونها عبر العالم . كان يشعر بنفسه رائدا ، ومع ذلك فان شيئا ما ينقصه . كانت تلك المراة تنقصه .

استدعى ارشيبالد وايت عند الفجر : والغى عودته .

ولم يكلفه مزيد جهد الوصول الى السيد ريموند عبر التلفون :

ــ اماليندا هي كذلك دائما ، انها تذهب وتعود .

ــ اين تسكن هي ؟

ــ لها « استديو » في بعض نواحي « مايفير » ، لكنني لا اعرف عنوانه .

ولم يكن كاذبا ، فانه كان يفكر وهو يعيد سماعة التلفون ، ان هذه القضية ستنحو منحى جيدا . و « الامير » سيعيد الكرة .

* * *

ــ ١٢ او ١٣ ؟

ــ ١٢ .

ــ كارت ؟

ووضع السعودي امامه رزمة من ٥٠٠ ليرة وتردد بلا انتباه . عاد صوت الصينية القاطع يكرر :

ــ كارت ؟

ــ كارت .

واعطته « روا » واستلمت الـ ٥٠٠ ليرة .

واستغرق في افكاره . وكان قد بدا اللعب وهو مرعوبص خاصة وانه كان يشرب . اقترب ريموند .

ــ ليس هذا حسب الاصول . قال له ذلك من وراء ظهره .

واستدار كمال . وابتسم ابتسامة ظريفة .

ــ اسمح لي يا صاحب السعادة . ان اقدم لــك الشمبانيا .

صاحب السعادة ، شمبانيا ، انها دائما نفس الكلمات. نفس المراهم ، ونفس الادوية . ولكن كلمات هذا العجوز القواد ، لم تعلق بمسامعه . فلا الخسارة ولا الربح ، ولا الخيلاء ولا السرور ، كانت قادرة على شيء معه ، فهي لا تنهكه ولا تنعشه . حتى سلطانه نفسه ، توقف فجاة ، ولم يعد يثير فيه النشوة ، ان له نساءه الاخريات ، ولكنهن ذليلات طائعات . انهن مجرد حريم مشتت على سطح هذا الكوكب . حريم لا يفتأ يتمهدهن بالرعاية ، في تجواله بين بيروت وجده ونيويورك وباريس .

ولكن ما الذي عند امالينذا زيادة عنهن ؟

ــ هل هناك اخبار جديدة ؟

وراح ريموند يضحك عبر دخان سيكاره « الهافان » وحدثت فرقعة خلف كمال كانت اليفة لديه : كان ورق اللعب يخلط .

ــ اقطع ؟ .

وفرقع الصوت ايضا ، مثل فرقعة السوط . واستدار كمال على مقعده ، فاذا امالينذا تمد له يدها بالكرت .

ــ اقطع .

ولم يكن قد تبقى الا لاعبان على الطاولة ، الامر الذي جعل كمال « يقطع » . وراحت امالينذا توزع ورق اللعب بسرعة كبيرة وبمهارة . وكان كمال يحاول عبثا ملاقاة عينيها ، فلم يكن يرى الا اهدابا .

وانتظر نهاية الليل . وكانت اليد المشوقة ذات الاظافر الحمراء ، تركض على الطاولة . والان اصبحا وحدهما ، وجها لوجه .

ــ هذا كاف ؟ .. قال كمال .

وكان قوله امرا ، فلقد استعاد فجاة لهجة الرجــل المسلم . فرفعت عينيها مذهولة ، وتلقى نظراتها كانها البرق .

واخذ يسحب ببطء من جيبه علبة جواهر ، وراح يفتحها باهتمام فارتعشت عينا امالينذا تحت تاثير وهجها . ووضع السعودي يده المقفلة في يدها ، كما لو كانت هي المرة الاولى . ان هذا الرجل ، يمكن ان يكون كريما ، واسع الثراء او مجنونا ، لكن مهما يكن الامر ، فانه عندما يضع رجل ، حتى ولو كان ينتمي الى عالم الشرق الجغرافي ، في رابع اصبع من يدها اليسرى ٣٦ قيراطا من الماس ، فلا بد للقلب ، ان يلين مهما بلغ من القسوة ، ولا بد من القبول بتغيير قواعد اللعبة . ولاول مرة راى في نظرتها الوقحة ، التي كانــت تمسك نظراته ، شيئا ما يشبه الحنان . لقد حدث له ما لم يكن حدث ابدا ، لقد احب امراة ليس هو سيدها تماما .

ــ هيا ، اسرعي ، قال لها ، لم يبق لنا الا بضع ساعات

للنوم ؛ سنسافر هذا المساء .

استغرقت الرحلة عاما كاملا . عاشوا خلاله كما البهلوان على خيط غير مرئي ؛ معلق في السماء وفي الكازينوهات ، والفنادق الفخمة ، والمنتجعات وفي الغابات الكثيفة ، بين سنغافوره ، ولوس انجلوس والخرطوم ، ولندن ، وفي كل مكان تفرضه اعمال كمال .

وذات يوم ، بدات طرقهما تتباعد ، وعرفت اماليندا انها ما خلقت لتكون زوجة لبدوي .

* * *

الفصل السابع والعشرون

سؤال وسط الكارثة

خرجت من غرفة الحمام عارية ، مشعة ، وكان الماس « تيفاني » ينساب حتى بطنها . وغابت فجاة نظرتها الخليعة المسيطرة ، بنظرة مليئة بعرفان طفولي بالجميل ، وركعت عند قدمي السرير خاشعة .

ـ كمال ، اني احترمك !

ولم تكن تكذب ، كان تقديرها له بالنسبة لسخائه كزوج كتقدير الفقراء لهبة تاتيهم من السماء . ثم امسكها بقوة ؛ مرسلا اصابعه في شعرها الاشهب ، وضغط راسها على بطنه ، فراحت تغمره بالعضات والقبل ، وبدات تمارس الحب معه على طريقتها ، وهي في كامل عريها . ولقد كان لمبادرة اماليندا هذه ثمنا مقداره ٢٥٠٫٠٠٠ دولار دفعه كمال لشراء قلادة ملكية . ولم يكن واضحا ما سيحدث فيما بعد ؛

ولكن الاحتفاظ بآمال ، واضحة ، مغلوبة ،عند قدميه كان لا يقدر بثمن .

كان غروره كشرقي يمنعه من القاء الاسئلة التقليدية . فلم يحدث حتى بعد ست سنوات من زواج عاصف ، مليء بالضباب والاكاذيب ، لم يحدث ان سألها ان كانت تحبه ام لا ؟ او انها لم تحبه يوما ؟ .

وفي الاشهر الاولى التي تلت زواجهما ، لم يبتعد بعضهما عن الآخر ، بل راحا يجوبان السماء معا ، ووضعها في مجرى اعماله ، وقدمها الى زوايا العالم الاربع ، كخطيبة له ، ولقد استفاد من جمالها الرائع ومن صراحتها في القول ، اكثر من مرة . واكثر من مرة ايضا ، سببت له المتاعب الكبيرة ، برفضها للتقاليد وآداب المعاملة في بعض الطبقات الاجتماعية .

كانت تستمرىء العناد . وذات يوم خلال مادبة غداء كان يقيمها كمال على شرف دوقة ايطالية ، وبينما كانت تقدم لها هذه نصيحة ادبية ، ما كان منها الا ان صفعتها بكل برود بهذا الرد :

ـ انني لست بغيا !

وعندما سألها جنرال فرنسي حول نشاطاتها ، اجابته بكل صفاقة :

« اشرب ، والتهم الطعام ، واجامع ، وابعثر النقود »

وكانت هذه الغطرسة تفتن كمالا في البداية .

ولم يكن الزواج منها قضية صغيرة ، فكمال ، رغم

تحلله من المعتقدات الاسلامية ، لم يكن يستطيع ان يتزوج من كافرة . كان عليها ان تبدل دينها ، وان تتعلم الوضوء ، والصلاة ، وان تحفظ بعض السور من القرآن . ولقد اشترطت ان تكون المرأة الشرعية الوحيدة لكمال ، ولم يضايقه ذلك . فهو مثل معظم العرب الشباب هذه الايام ، ساخط على تعدد الازواج من حيث المبدأ ، وكانت قضية الحريم تربكه ، وتخلق عنده غيظا مميتا .

وعندما نزلت آمال لاول مرة في مكه ، ثارت ثائـرا عميقا ، فلقد قام شيخ القوم ، وقد خط الشيب لحيته فاكسبها ذلك لون الصحراء ، قام هذا الشيخ باحتضان كمال ، الولد السفيه ، وقال له :

ـ يا صغيري ، لقد كانت افكارك مجنونة دائمة ، ولكن هذه الفكرة جميلة جدا . واستدار نحو آمال ، المتبرقعة بحجاب من كتان شفاف ، كان يوهن انفها ويعطي لعينيها الخضراوين المزيد من التألق ، وقال :

ـ لا تخافي يا آمال ، انه الله في كل مكان .

اما الطبيب العجوز ، عبد الملك ، فقد امتلأ قلبه حنانا ، وكان يشكر الله من اعماق قلبه ، لانه اختار لولده امرأة عربية جميلة . وكان يجد في شفتي آمال ، شبها بشفتي جـون كراوفورد ، تلك التي مثلت احمل ذكريات شبابه ، وحث شيخ القوم ، اخوانه العلماء على اقامة الشعائر المتوجبة في احتفالات الزواج على الطريقة الاسلامية ، وقاد هو بنفسه ، الزوجين ، الملياردير صاحب « البوينغ » ، وتلك التي كانت مديرة للعبة « بلاك جاك » ، الى عند الحجر الاسود في الكعبة

المقدمة :

وبمجرد ان اصبحا وحيدين ، داخل البيت العائلي ، ذي الحجارة الكلسية ، قاما بممارسة الحب . وكانت هي تتأمل عبر الكوة ، منظر المدينة المقدسة الملتهب .

ــ جعلتني اقوم بامور كثيرة !

ــ آمال ، كنت كافرة ، وهذه الامور التي تقولين عنها تجعل منك الان زوجتي .

ــ انت قليل الايمان ، لماذا هذه السعدنات !

ــ مؤمن ام لا ، في الحالتين يجب ان نلعب اللعبة .

وكان كمال مكفهر الوجه ، كان شيء ما يتمرد في داخله . فالمسلم لا يمكن ان يتحلل ابدا من تأثير الاسلام القوي ، حتى ولو تصور انه اغلق قرآنه مرة واحدة والى الابد . ولم يعتريه شك ، في ان كائنا من كان ، لم يؤت القدرة على ان يجعل منها مسلمة حقا ، تلك التي ما خلقت الا الجنس والغضب والاستسلام شبه ميتة للرجال . كان يريد الغاء المسافات ، واستدراك الزمن ، ذلك لانه القى نفسه على شفا حفرة ، يمكن ان تحفرها الحضارتان المختلفتان بين فتاة من لندن وشاب من مكه .

لقد غمرها بترف خارق . وكان يستجيب حتى لنزواتها الاكثر اسرافا في البذخ ، ولقد ابقته حيويتها وامكاناتها اللامحدودة في مركز هامشي وشاذ في المجتمع الدولي . كانوا يستقبلونها دون قبول حقيقي ، وكان الجميع يخشونها اكثر مما يحبونها .

لمدة طويلة ، آمن كمال بوفائها . وكان يخفي غيرته ، ويتجنب القاء الاسئلة عليها . مرة واحدة فقط لم يستطع الصمود ، كان ذلك ، عندما كانا مسافرين في الدرجة الاولى في احدى الطائرات ، وبينما هي تقترب من بيروت اخذت ترتج بشكل فجائي مثير للقلق . ارتجاجا زعزع مسيرتها ، ثم انبعثت النيران من جانبها الايسر قريبا منهما . وبدا وجه اماليندا ارجوانيا ، وغرزت اظافرها في قبضة زوجها ، ثم ارتفع صوت القبطان : الزموا الهدوء ، اخطرنا برج المراقبة، المطار في حالة تأهب .

وتحت جناحي الطائرة كان النور يغمر المدرج ، يقذفه عدد لا يحصى من « البروجكتورات » .

وتخلص السعودي من اظافرها الناشبة فيه ، وغرس عينه في عينيها .

وكانت مرتعبة .

ــ انها لحظة الحقيقة ، امال ، اريد ان اسالك سؤالا .

ــ لك كل ما تريد .

ــ مع من خدعتني .

واصلت الطائرة الاشتعال وانبعث اللهب الشديد من الكوى ، وبدلا من ان تنزلق بنعومة نحو الارض بدت كأنها تنزل بطريقة غير منتظمة ، على مدرج غير مرئي .

منحت امال نفسها الوقت للتفكير ، وقالت :

ــ انني لم اسمع .

فاعاد سؤاله قائلا :

ــ انـا سـنموت ، ربما ، وانني والحال هذه اريد ان اعرف .

ورای اجفانها ترتعش تحت البريق الارجواني ، وقالت له مستنكرة :

ــ ابدا . لم اخدعك مع اي كائن كان .

ثم راحت الطائرة تجري على جليد من ثاني اوكسيد الكربون ، وبمجرد توقفها ، كان الاطفائيون قد سيطروا على الحريق ، وملأت المكان سيارات الاسعاف وصفارات الانذار، واضواء البروجكتورات المتحركة .

وفي السيارة التي كانت تنقلهما الى المدينة ، شدهـا كمال نحوه وقال :

ــ لم تكذبي علي ، اليس كذلك ؟

وهزت راسها على الطريقة العربية ، من اعلى الى اسفل، اشارة للنفي . ولم يك ممكنا تصور ما هو اكثر غموضـا من ذلك .

ضغط كمال بشدة على كوعها وقذفها بشتيمة :

ــ عاهرة ..

وعاجلها بصفعتين .

وفي المساء امتلأت رغبة في النوم معه .

مـا كان لاية امـرأة قط ان تذيـق السعودي هـذا الاحسـاس، بانه تحت سيطرتها الى هذا الحد ، وبانه فاسد ومنحط . كان يكافح باليأس ، ويذكرها دائما ان قدر الزوجة هو ان تخضع ، وان تطيع ، وكانت عاصية عنيدة .

ــ عليك مع ذلك الا تنسـى من اين خرجت انا !

ــ تريدين القول من اين اخرجتك !

ــ لست امراة من الحريم .

ــ انت مسلمة ، واستطيع ان اردك بكلمة واحـدة من حيث اتيت .

وسخرت من ذلك بقولها :

ــ ان تطلقني ؟ انك تغامر باشيا كثيرة .

وكان في لهجتها ابتزاز . فصفعها . فالقت بنفسها بشدة عليه . وغالبا ما كان ينزع صدارها ويغرس اصابعه بفظاظة بين فخذيها ، الى ان تختلط صيحات الالم بصيحات اللـذة .

❊ ❊ ❊

ــ كمال ، انني احترمك !

كانت جاثية على ركبتيها ، تمارس الحب معه عـلى طريقتها ، بشكل جعله ينفجر بطريقة حيوانية غريزية .

وشعر بدم الثورة يشتعل في عروقه ، ودفعها ، بحدة جعلتها تسقط خارج السرير ، ووثب نحو غرفة الحمـام وفتح الدوش على آخره ، فراح يتدفق على كتفيه ، ونظف بالفرشاة بطنه وصدره وفخذيه ، بواسطة محقنة كهربائية، ثم ارسل الماء المعقم بين اسنانه ، كما لو انه يتوضا لا شعوريا.

اما اماليندا فراحت تصيح ، وتطرق باب الحمـام بقدميها ، فذكره صياحها بانه ترك بلاده ليغزو الغرب .